نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر

دراسة شاملة للنظم السياسية

١

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الاسلامى
بكلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة الثانية

منقحة

١٩٧٩

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

فهرس الكتاب

إفتتـــــاح

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان لقيام الدولة المملوكية فى مصر فى العصور الوسطى أهمية خاصة فى تاريخ نظمها ؛ وقد حكمتها من ٦٤٨ إلى ٩٢٣ هـ (١٢٥٠ — ١٥١٧) ، أى زهاء ثلاثة قرون إلى وقت مجىء العثمانيين ، وهى فترة تطورت خلالها النظم السياسية والاجتماعية تطوراً كبيراً . ثم إن من نظام هذه الدولة أن يكون حكامها وجيشها من الرقيق ، وهو نظام لدولة لم يقم فى أرجاء الدنيا إلا فى ظل الإسلام ، وليس له مثيل فى خارج الإسلام ؛ ولم يظهر بشكله هذا إلا فى مصر .

كذلك ستظهر لنظم دولة المماليك فى مصر تعبيرات اصطلاحية جديدة ، تختلف كل الاختلاف عمّا عرفناه من قبل ، وهى التى كان معظمها إلى وقتئذ عربياً فارسياً . وسنجد أن نظم دولتهم ، ولو أنها قامت فى مصر امتداداً لنظم سابقة ؛ فإنها استوردت هى الأخرى نظماً جديدة . ومن قبل لاحظ مؤرخ اسمه السيوطى اختلاف نظم مصر فى عهد المماليك عن ذى قبل ، فقال إن السلطان بيبرس — واضع نظم دولتهم — أراد أن يسلك فى تنظيم مملكته بمصر مملكة جنكزخان — وهى دولة المغول — فرتب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بمصر[1] ؛ وقد كان الترك مجاورين للمغول منذ القدم ، بل إن المغول أُعتبروا جنساً من الترك .

ولقد كانت كثرة المؤلفات المعاصرة عن المماليك فى مصر مما جعل نظم

---

(١) حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ٢ ص ٨٥ .

دولتهم واضحة ، بالنسبة لنظم أخرى ظهرت فى تاريخ مصر أو فى أى بلد إسلامى آخر ؛ بحيث نستطيع أن نرسم لوحتها المميزة . وفوق ذلك ، فإن هذا النظام المملوكى عاش فى مصر ، حتى بعد زوال دولتهم ، إلى القرن التاسع عشر ، حينما قضى عليه نابليون ومحمد علىّ باشا ؛ مما يمكّننا من أن نتعرف عليه عن قرب . ومع ذلك ، فبسبب أن بعض نظم دولة المماليك مستورد ؛ فإنه لم يكن من السهل دائماً أن نتتبع أصول مصطلحاتها ، أو حتى الوصول إلى نتائج حاسمة عنها .

وإنى لأدين بظهور هذا الكتاب لسفريات عديدة قمت بها وراء المخطوطات فى مكتبات عواصم متعددة — لا سيما فرنسا — وهى كنوز تكشف عن أسرار نظم المماليك ورسومهم فى مصر .

* المؤلف

صا جه

(١) كل نسخة مبيعة تكون ممضاة بيد المؤلف .

مقدّمة

طابع الدولة — عصران فى حكمها — أصل طبقة المماليك — تهيئتهم للحكم والحرب .

إن الدولة التى قامت فى مصر على يد المماليك أولاً وقبل كل شىء دولة عسكرية . ولما كانت طبقة المماليك الحاكمة غريبة عن أهالى مصر ، فإن الدولة نُسبت إلى طبقة المماليك ، فسميت الدولة التركية[1] ، لأن أغلب المماليك ترك الأصل .

كذلك غلب الطابع السياسى على دولتهم ، بحيث أصبحت كلمة مملكة بمعنى أن حاكمها متعسف[2] (أو تقراطى) — تُطلق على دولتهم ، فسميت المملكة الإسلامية أو الممالك الإسلامية[3] — بسبب أنها كانت تمتد إلى عدة أقطار إسلامية — كما أن حكامها سُموا بالملوك .

ومع ذلك لا يجب أن نبالغ فى مدى الطابع الأجنبى أو السياسى لدولة المماليك : فالدولة فى وقت المماليك لم يكن لها معناها فى وقتنا ؛ وإنما هى مجموعة من الناس ، تحركها الشريعة الإسلامية التى يحافظ عليها الحكام ؛ فعصبيتها تكون للدين قبل كل شىء . كذلك كان معنى المواطن فى ذلك

---

(١) الخالدى (م ٩٣٧/١٥٣٠ — ٣١) ، كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى إلى صناعة الإنشاء ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس (B N.) ، برقم ٤٤٣٩، ورقة ١٤ ب ؛ المقريزى ، الخطط ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ١ ص ١٥٣ س ٨ — ٩ ، ٣ ص ٣٣٩ س ٣ . أوافق المستشرق « Demombynes » على رأيه فى نسبة هذه المخطوطة المعاصرة للخالدى ؛ حيث اطلعت بنفسى عليها فى باريس ؛ وإن كنا لا نعرف شيئاً يذكر عنه .
أنظر . La Syrie à l'époque des Mamelouks. Paris, 1923, Préface. V – VI ,

(٢) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٢ . أنظر فهم العرب الفرق بين الخلافه والملك .

(٣) أنظر Van Berchem: Matériaux pour un Corpus Inscriptionum, Arabicarum. Le Caire, 1903, t. 19, Egypte 1, ère, pp. 208, 216, 226, 244.

الوقت — إن جاز استعمال هذا اللفظ على الإطلاق بالنسبة المسلمين في العصور الوسطى — هو الانتساب قبل كل شيء لعالم الإسلام .

*

وقد عرفت مصر في حكم المماليك عصرين أو دولتين[١] . الأولى : المماليك البحرية[٢] (٦٤٨ - ٧٨٣/١٢٥٠ - ١٣٨٢) ، وهي تسميه نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون، وأسكنوهم قلعة جزيرة الروضة في المنيل بالنيل — أو ما كان يسمى البحر أيضاً — حيث قضى هؤلاء المماليك على دولة الأيوبيين ، وتولوا الحكم بعدهم . وأبرز عناصر المماليك البحرية ، هم الذين أتوا من بلاد القفجاق أو القبجاق أو حتى البجناك أو البشناق (البوشنق[٣]) ، التي سكنتها عناصر تركية الأصل رعوية ، في منطقة بحر قزوين ، وامتدت حول الفلجا (إتل) ، مكان شعوب الخزر السابقة[٤] ، الذين زال سلطانهم بعد أن أفناهم الروس المجاورون لهم ، مما مهد لسكنى القفجاق ، وهي أيضا البلاد ؛ التي تكونت فيها دولة مغولية — أثناء حركة الغزو المغولي نحو الغرب — عُرفت بالقبيلة الذهبية[٥] .

---

(١) عموماً ، انظر مقالة :

Ency. de l'Isl, (art Mamlüks) t3, p. 230 sqq.

(٢) عنهم ، انظر : الخطط ، ٣ ص ٣٨٤ ؛

Ibid (art al - Bahriyya) 2 ed t 1, p. 973 - 974 ; (art Rawda) t 3, La régiment Bahriyya dans R. E. 1, 1952, : Ayalon: p. 1211 p. 133 sqq.

(٣) صبح الأعشى ، ٤ ص ٤٥٨ . عن هذه الجماعات ، انظر : الرمزي ، (وهو بلغاري) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ، في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، بلدة أورنبورج ، المجلد الأول ، ص ٩٥ .

(٤) عن هؤلاء ، انظر : D'Hsson. Des Peuples du Caucase. Paris, 1828, p. 199 sqq. .

(٥) أنظر : Poliak . Le caractère colonial de l'Etat Mamelouk, dans ses rapports avec la Horde D'or. R.E. I. 1935, p. 231-234 .

والثانية : المماليك البرجية[1] (٧٨٤ — ٩٢٣ / ١٣٨٢ — ١٥١٧) ؛
وهي تسميه نسبة الى أن غالبية سلاطينها من المماليك الذين كانوا يسكنون
بروج القلعة على جبل المقطم ، وقت حكم المماليك البحرية ، حيث قاموا
بانقلاب عسكري ضدهم ، واستولوا على زمام الحكم منهم . وأبرز عناصر
المماليك البرجية ، هم الذين أتوا من بلاد الجركس أو الشركس ، وهي لفظة
روسية قديمة تعني القوقاز[2] — بجوار بحر قزوين — وهم ترك أيضاً ،
ربما هاجروا إليها وقت غزوات المغول . وقد بقي المماليك البرجية في حكم
مصر إلى وقت الفتح العثماني ؛ كما أن بقاياهم استمرت تحكم مصر مع العثمانيين
إلى أن قضى عليهم محمد علي باشا .

٭

بيد أن لفظة : « المماليك » نفسها[3] ، تعني ما يملك بقصد تربيته والاستعانة
به كجند وحكام ؛ على عكس لفظة « العبيد » التي تعني العبودية . فالعبد يولد من
الرقيق ؛ بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع ، كما أن العبد يعني أسود ،
بينما المملوك يكون أبيض . وهم وإن كانوا مختلفين في الجنس ؛ لأنهم
يجلبون من مناطق متعددة ؛ إلا أنهم قد جمعتهم وحدة الغربة والمخاطرة ..

وكان أساس هذه الطبقة هو تاجر المماليك ، فهو الصلة بين دولة المماليك
في مصر والبلاد التي يأتون منها . ولا ريب أن تجار المماليك لم يظهروا
في مصر ، بدليل اللقب الذي كان يُطلق عليهم ، وهو : « خواجة » أو
« الخواجا » أو « الخواجكية » ، الذي يقول عنه المؤرخ القلقشندي إنه يعني التجار .

---

(١) ابن إياس ، ط. بولاق ، ١ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ . يقول ابن إياس ربما أن أصلهم من العرب ، وسكنوا هذه المنطقة .

(٢) أنظر . Poliak : Op. cit, p. 234 n (5).

(٣) عن ذلك . انظر . لسان العرب ؛

وأنظر . Ency. (art Mamlûk) t 3, p. 230.

الأجانب[١] . وقد كان معظمهم من الأوربيين النصارى أو من اليهود ، وإن كان بعضهم أيضاً من الإيرانيين .

أما المكان الذى يأتون منه بالمماليك فهو - كما ذكرنا - من بلاد القبجاق الممتدة إلى البحر الأسود وبحر قزوين والتركستان ، أومن بلاد الجركس وهى القوقاز . أو حتى من بلاد الططر أو منغوليا ، حيث كان الترك عموماً يبيعون ذكور أولادهم وإناثهم[٢] . كذلك كانت بيزنطة ومدن إيطالية لها مستعمرات على البحر الأسود[٣] ، قد تخصصت فى بيع المماليك ، مثل الجنويين ، الذين كانت لهم مستعمرة كافّا « Caffa » ، على بحر أزوف ؛ فكانوا يتاجرون فى المماليك من الجورجيين واللان والأرمن . بل امتد نشاطهم إلى أوربا فكانوا يبيعون اليونان والسلاف والصرب والألبانيين[٤] ، بحيث أن البابوية هددتهم بعقاب الدنيا والآخرة[٥] .

وقد كان التجار الأجانب يأتون بالمماليك غالباً عن طريق البحر ، حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغرى دمياط والإسكندرية ، بينما التجار المسلمون يأتون غالباً عن طريق البر . فماذا كان هؤلاء التجار يصنعون

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ٦ ص ١٣ س ١٥ — ١٧ ، ص ٦٩ س ١ ، ص ٧٣ ؛ أنظر أيضا : Ayalon : L'Esclavage du Mamelouk. Jerusalem, 1951, p. 1, 37 .

وهو لفظ فارسى ، معناه السيد .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، ٢ ص ٣٧٩ س ١٢ .

(٣) أنظر . Pernoud : Les Villes Marchandes aux xivème, et xvème siècles. Préfaee de René Crousset, Paris, 1948, pp. 50,54, 68 sqq, 71, 92— 93.

(٤) أنظر . Heyd : Histoire du Commerce du Lavant au, Moyen - Age. Leipzig, 1923, p. 443, 560.

عن جلب المماليك من بلاد الروم ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ س ١٦ .

(٥) أنظر . Zananiri · L'Egypte et l'eqilibre du, Levant au Moyen - Age (637 · 1517). Marseille, 1936. p 60.

فمثلا : البابا يوحنا الاثنا وعشرين (Jean xxll) والبابا مارتن الخامس (Martin V.) أعلنا حرمانية الجنويين أو المسيحيين ، الذين يتاجرون فى الرقيق من المماليك .

بالمماليك حين وصولهم القاهرة؟. فنحن نسمع فى القاهرة عن أسواقهم[١]، مثل : سوق خان الخليلى ، وخان مسرور . وربما كان يُشرف على هذه الأماكن تجار آخرون يشترون المماليك منهم ، يسمى الواحد منهم : تاجر المماليك أو معلم تجار المماليك[٢] . كذلك وجُد تاجر الخاص فى الرقيق[٣] ، الذى تخصص فى بيعهم أو جمعهم للسلطان ، وربما كان يعاونه « دلال المماليك » الذى يبحث عنهم[٤] . وهذا لا يعنى أن المماليك لا يباعون فى مصر إلا فى القاهرة فقط ؛ وإنما كانوا يباعون أيضاً فى أماكن أخرى ، مثل الإسكندرية[٥] . وتبدو قيمة تجار المماليك فى أن السلاطين يستقبلونهم كما يستقبلون كبار الشخصيات ، حتى ولو باع الواحد منهم رأساً واحداً من الرقيق ؛ فيستضيفونهم ، ويمنحونهم الخلع[٦] ؛ إذ — ولا ريب — هم المتسببون فى قيام دولتهم .

وكان المحظوظون من المماليك هم الذين يشتريهم السلطان ، الذى يدفع ثمنهم من بيت المال ، وأحياناً من ماله الخاص . وكان السلطان يفضل شراء المماليك الصغار ، الذين يسمون[٧] : أجلاب ، أو جلبان ،

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ط. Kahle ومصطفى ، بعنوان : Die Chronik (K. M,) ، استنبول ١٩٣١ — ١٩٣٦ ، ٤ ص ٤٠٤ . أنشأه جهاركس الخليلى ، الخطط ، ٣ ص ١٥٢ . نسبة إلى مسرور ، الذى عاش أيام صلاح الدين ، وبنى فى ساحتها فندقاً أو خاناً . نفسه ، ج ٣ ص ١٤٩ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٣ س ٢١ ؛ ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (حوادث) ، تحقيق Popper ، ط. California ، ١٩٣٠ ، ص ٢٢٨ س ١٤ — ١٥ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٦٩ . ترجم المقريزى لأحدهم ، وهو إسماعيل بن محمد بن ياقوت ، الخواجا تاجر خاص السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

(٤) أنظر . ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (زبدة) ، تحقيق Ravaisse ، ط Paris ، ١٨٩١م ، ص ١١٥ س ١١ .

(٥) أنظر . Heyd : Op. Cit, p. 443.

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٧١ س ٥ . أنظر أيضا : نفسه ، ٣ ص ٣٤٨ س ١٧ — ١٨ .

(٧) عن هذه التسميات ، انظر . زبدة ص ١١٦ ؛ حوادث ، ص ١٩١ س ٢٠ ، ٢٣١ س ٧ ، ٢٤٠ س ٥ ، ٣٣٤ — ٣٣٥ .

أو مشتروات ، وهى ألفاظ تعنى : جلبهم من بلاد أخرى ، أو شرائهم . وكانت أسعارهم مختلفة ، تتوقف على قيمتهم ، وعلى حسب مقادير العملات المختلفة المعروفة وقتذاك . فمثلاً : بيبرس — مؤسس دولة المماليك فى مصر — لأنه كان أعور ، بيع بثمانمائة درهم فقط(١) ، وهو ثمن بخس ؛ وأن قلاوون وصل ثمنه إلى ألف دينار(٢) ، حتى عُرف بالألفى ، كما أن بعض المماليك بيع بأثمان خيالية(٣) .

ولم يكن السلطان يقتصر على هذا الباب وحده فى إنشاء طبقة المماليك ، فكان يحصل على مماليك السلطان سلفه ، الذى توفى أو عُزل أو قتل ، بالقسر أو بالشراء(٤) ، ويعتبرون من مماليكه ، ويسمون حينئذ(٥) : قرانصة أو قرانيص أو قرانص أو حتى مماليك سلطانية . كذلك كان السلطان يستولى على مماليك الأمراء الذين يتوفون أو يغضب عليهم أو يقتلهم ، ويسمون : سيفية(٦) . كما أنه كان يأخذ بعض أولاد الناس — ويقصد بهم المصريون — ويضمهم إلى مماليكه ، وربما كان أهلهم يبيعونهم إليه من الجوع(٧) . أما المماليك الذين يشتريهم الأمراء ؛ فإنهم يسمون مماليك الأمراء أو أجناد الأمراء

(١) المقريزى ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه زيادة ، ط ٢ ، ١٩٥٧ ، ١/٢ ص ٦٣٧ س ٤ .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٣٥

(٣) بلغ ثمن أحدهم أيام سلطنة الناصر بن قلاوون مائة الف درهم (الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ س ٢٣) ، أى حوالى خمسة آلاف دينار ؛ أو ثلاثة آلاف جنيه ذهبى ، بواقع الدينار ستين قرشا صاغا ذهبيا . انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، القاهرة ، ص ٣٦ .

(٤) حوادث ، ص ٢٤٠ س ١ ، ص ٦٧٢ س ١٢ — ١٤ . يكون ذلك بحضور القاضى ؛ ويصفه بأنه شراء ملفق .

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٥ س ١٠ ؛ حوادث ، ص ٢٥٠ ، ٣٣٥ ؛ زبدة ، ص ١١٦ .

(٦) زبدة ، ص ١١٦ ؛ وأيضا ابن إياس ، ٣ ص ١١ . كيف أخذ السلطان مماليك أحد الأمراء المتوفين ، دون نظر لوصيته .

(٧) « أولاد الناس » لها معانى متعددة . أنظر ، بعده .

والمماليك الذين يشتريهم السلطان أو حتى الأمراء يُوضع أغلبهم في أماكن خاصة، تعرف بالطِباق أو الأطباق[1] — مفردها طبقة أو طبق — وهي المدارس العسكرية، فهي أشبه بالحجر في عهد الفاطميين[2]. وتوجد الطباق في أماكن متفرقة في القاهرة وخارجها ولا سيما في القلعة؛ حتى قد بلغ عددها اثنى عشر طبقاً أو أكثر، فنسمع بأن بعضها كبير كأنه حي بأكمله، قد يحتوي على ألف مملوك[3]. فكان المماليك الذين يدخلون الطباق، يُعرفون باسم: مماليك الطباق أو الكُتـَّابيـَّة أو كتابيـَّة[4] — مفرد كُتـَّابي — لأنهم يسكنون الطباق، ويتعلمون الكتابة. ولا يعني هذا أن جميع المماليك يذهبون إلى الطباق، بل منهم من يلحق مباشرة بخدمة السلطان، ويتربى مع أبنائه تربية خاصة[5]، وإن كان بعض السلاطين يرسلون أبناءهم إلى الطباق[6]، مثل أغلبية الأمراء.

ولا نعرف كيف كان التعليم في الطباق[7]. ولكن المملوك الصغير كان يوضع في طباق من أترابه ومن نفس جنسه؛ فمثلاً طائفة الأرمن والجركس — لتقارب موطنهما — يكونان معاً، وطائفة جنس الخطا والقبجاق معاً[8]. فيتعلم المملوك الخط والقرآن والشرع، وحينما يكبر

---

(١) حوادث، ص ١٩١ س ٢٠، ص ٢٣١ س ٧؛ الخطط، ٢ ص ٣٠٩ س ١٩، ٣ ص ٣٠٦ س ٢٤، ص ٣٤٦ س ٢٢ فما بعدها.

(٢) عنها، انظر. الخطط، ٢ ص ٣٠٩ — ٣١١؛ ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، القاهرة ١٩٥٣، ١ ص ١٩٧ — ١٩٨.

(٣) زبدة، ص ٢٧.

(٤) نفسه، ص ١١٦، ١٢٥؛ ابن إياس، ٢ ص ٩٠ س ٨ — ٩.

(٥) أنظر. السخاوي، الضوء اللامع، ط. (القاهرة)، ١٠ ص ٢٩١.

(٦) ابن إياس (K.M)، ٤ ص ٣٠١.

(٧) منه بصفة عامة، انظر. الخطط، ٣ ص ٣٤٦ وما بعدها.

(٨) نفسه، ٣ ص ٣٤٧ س ٤ — ٥، ٣ ص ٣٤٨ س ١٢، ١٣.

أى يصل سن البلوغ ، يتعلم أنواع الحرب من : فروسية ، وضرب السيف ، ورمى السهم والنشّاب ـ وهذه الأخيرة سهام من الخشب ـ ولعب الرمح . فقد كان لهم أصطبل (أو اسطبل) خاص بهم[١] ، وهو أشبه باصطبل الحجرية فى عهد الفاطميين[٢] . وكانوا يقومون بمباريات الفروسية أمام السلطان ، فى ميادين خصصت لهم[٣] .

وكان الذى يشرف على تعليم المماليك فى الطباق متخصصون ، حيث كان المملوك يحترمهم جداً . فمنهم الفقية أو المؤدب[٤] ، الذى بالإضافة إلى تعليمهم الكتابة وغيرها ، يعودهم على التمسك بالدين ، وملازمة الصلوات والأذكار ، حيث كان التصوف منتشراً بين المماليك الحديثى الإسلام ، إذ كان بعضهم فى أصله غير مسلم . وأيضاً خدام الطباق أو الطواشى[٥] ، أو الأغى (الأغا)[٦] ـ جمعها أغاوات ـ الذين يشرفون على تربيتهم . ويوجد متخصصون فى تعليمهم شتى طرق الحرب والفروسية ، مثل معلمى الرمح ، وربما يرأسهم معلم المعلمين[٧] . ويبدو أن الإشراف العام على الطبق يكون لشخص يسمى مقدم الطباق ، من حقه أن يعاقب منهم غير الطائعين ،

---

(١) زبدة ، ص ١٢٥ . يسميه اصطبل الجوق .

(٢) عنه ، الخطط ، ٢ ص ٣٣٩ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٨ .

(٣) ابن إياس ، ١ ص ٢٦٦ . كان السلطان برقوق أول من أحدث ذلك ؛ واستمر بعده .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ س ٦ ، ١٧ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٤٧ س ٥ . هى كلمة تركيه مفردة وجمع ، ولعل أصلها من الطاووس للتعبير عن الرجل الجميل . عن هذه الكلمة ، انظر .
Ency. (art Tawâ shî) t 4. p. 740
نفسه ، ٤ ص ١٨٠ – ٢١٩ ، Dozy: Suppl, 2, p. 67. أصلها التركى طابوشى .

(٦) عن أغاوات الطباق ، انظر . ابن إياس ، ٣ ص ٥ س ٩ ؛
Ency. (art Agha) t 1, p. 184; 2 ed t 1, p. 253.

(٧) ابن إياس ، ٢ ص ٤١ س ٨ ، ٣ ص ٣ س ٢٥ . لا يحدد وظيفة معلم المعلمين .

وله هيبة قوية على المماليك . ولكن يبدو أن الإشراف العام على كل الأطباق كان لأمير من أمراء المماليك هو مقدم المماليك ، الذى كان له نائب ؛ فكان مقدمو الطباق مسئولين أمامه[١] .

وكان لتعليم المماليك فى الطباق نظام دقيق مرتب . فليس لهم أن يخرجوا من الطباق إطلاقاً ولا سيما ليلاً . وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوماً فى الأسبوع . ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى والفول المسلوق ، وغير ذلك . وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة . وقد يأخذون مرتباً قليلاً قد يصل إلى ثلاثة أو عشرة دنانير فى الشهر[٢] .وكانوا يؤاخذون بشدة فى كل حركاتهم وسكناتهم ، فإذا اقترف أحدهم ذنباً أو خرج عن النظام وآداب الدين والدنيا ، قوبل بعقوبة شديدة . وكان السلطان يذهب لتفقد أحوالهم من طعام وغيره . ولكن منذ عهد السلطان برقوق[٣]، سمح للمماليك بالخروج من الطباق والمبيت خارجها فى القاهرة ؛ بحيث أنها أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم . ويلاحظ المقريزى أن ذلك جر إلى نسيان تقاليد المماليك فى التعليم بالطباق ، وأنهم أخلدوا إلى البطالة ، وسعوا إلى نكاح النساء ، حتى صارت المماليك أرذل الناس وأدناهم .

وكانت الدراسة فى الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً ؛ وإن كانت أحياناً تمتد إلى عدة سنين[٤] . فإذا انتهت الدراسة ، أعتق المملوك . ويكون الإعتاق بالجملة ، ويقام له احتفال خاص بحضره السلطان والأمراء ،

---

(١) صبح ، ١١ س ١٧٢ ؛ زبدة ، س ١٢٢ ؛ حوادث ، ص ٨٣ س ٧ ، ٤١٧ س ١ — ٢ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٤ س ١٧ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ س ٢٠ ؛ النجوم (P) ، ٧ ص ٦٥٠ س ١٥ . أو خمسة دنانير ، انظر . ابن إياس (K.M) ، ٤ ص ٣٩٣ . أو عشرة دراهم فى اليوم . الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ س ٢ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٤) النجوم (P) ، ٦ ص ٥٠٩ س ١٥ فما بعدها ؛ انظر . Escl,p.18-19:Ayalon

وذلك بناء على شهادة تسمى: إعتاق أو عتاقة(١). فيسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً «قماشاً» وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة. وحينئذ يسمى عتيقاً أو معتوقاً — جمعها معاتيق — ومعتقه يسمى أستاذه(٢). أما رفاقه المتخرجون معه، فيسمون خُشداشية، مفردها خُشداش(٣).

وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أو نقيب. أما الذين يصلون إلى الإمارة، وهى مرتبة تهيء للوظائف الكبرى الحاكمة فى البلاط والجيش أو حتى للسلطنة نفسها. وكان من المفروض أن المملوك لا يحصل على الإمارة، إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة(٤)، فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج بروح الإسلام، وبرع فى الفنون الحربية؛ بحيث كان منهم من يصير من كثرة علمه فى مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب؛ لذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون فى سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون

---

(١) حوادث، ص ٢٤٠ س ٣، ٣٣٥ س ٢٠؛ منهل، ٨ ورقة ٤٢٠.
نقلها Ayalon : Escl, p. 17.

(٢) ابن إياس، ١ ص ١٥١ س ١٢، ١٧، ٢١٩ س ١٤؛ حوادث، ص ٧٢٠ س ٩ — ١٠؛ السخاوى، الضوء اللامع، ٣ ص ٢٨٩.

(٣) مثلاً: ابن إياس، ١ ص ١١٤؛ حوادث، ص ٣٢٣ س ٢٠. هى كلمة معربة عن اللفظ الفارسى خواجه تاس، أى زميل الخدمة. وهى الخشداشية أو الخوشداشية أو الخجداشية أو الخوجداشية أو خشداشين؛ والمفرد خوشداش أو خشداش أو خجداش أو خوجداش. أنظر Steingass : Pers. Eng. Dict.
سلوك، ٢ ص ٣٨٨ — ٣٨٩، ملاحظة (٣)؛ انظر أيضاً
Quatremère : Sult. Maml, trad, I, p. 43 n (61).

(٤) الخطط، ٣ ص ٣٤٧ س ١٢؛ بيبرس الدودار (م ٧٢٥ / ١٣٢٥)، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٢٨، ورقات ٧٥ — ٧٦. فمثلاً كتبغا الملقب بالعادل، الذى توفى سنة ٦٩٤/ ١٢٩٥، كان أصله من سبايا التتر، ثم مملوكاً، وتنقل فى مرتبة الإمارة من أمير عشرة، ثم مقدم ألف، ثم نائب السلطنة، ثم السلطان. ابن إياس، ١ ص ١٣٣. عن السلطان المؤيد شيخ، أنظر أيضاً. ابن إياس، ٢ ص ٣.

فى إظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدى . وعلى العكس لما أهمل هذا المبدأ ، أصبح الوصول إلى مرتبة الأمير يكون عن طريق أن كان المملوك محسوباً للسلطان .

وقد كانت لغة المماليك هى اللغة التركية[١] — وهى لغة مملوءة بالفارسية والعربية — حتى ولو لم يكونوا تركاً . فعدد كبير من سلاطين المماليك وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية ، دون أن تكون لهم معرفة بالعربية[٢] . ومع ذلك ، فكثير من المماليك أتقن العربية ، وأصبح فصيح اللسان ، وله مسائل فى الفقه عويصة ، يرجع له فيها العلماء[٣] .

*

فهؤلاء المماليك ، هم أساس الطبقة التى حكمت مصر منذ سقوط الأيوبيين إلى مجىء الفتح العثمانى ، وبقيت بقاياهم إلى العصر الحديث وقت محمد علىّ باشا ؛ يتبيّن منها أنهم كانوا يهيئون للحرب وللحكم .

(١) زبدة ، ص ٩٩ .
(٢) ابن إياس ، ١ ص ١٢٠ س ٥ .
(٣) نفسه ، ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

الكتاب الأول

جدول(١) بأسماء سلاطين المماليك ، وتواريخ حكمهم فى مصر

١ — دولة البحرية أو القبجاق

	هجرى	ميلادى
١ — المعز أيبك	٦٤٨ ـ ٦٥٥	١٢٥٠ ـ ١٢٥٧
٢ — المنصور على	٦٥٥ ـ ٦٥٧	١٢٥٧ ـ ١٢٥٩
٣ — المظفر قطز	٦٥٧ ـ ٦٥٨	١٢٥٩ ـ ١٢٦٠
٤ — الظاهر بيبرس	٦٥٨ ـ ٦٧٦	١٢٦٠ ـ ١٢٧٧
٥ — السعيد بركة خان	٦٧٦ ـ ٦٧٨	١٢٧٧ ـ ١٢٧٩
٦ — العادل سلامش	٦٧٨	١٢٧٩
٧ — المنصور قلاوون	٦٧٨ ـ ٦٨٩	١٢٧٩ ـ ١٢٩٠
٨ — الأشرف خليل	٦٨٩ ـ ٦٩٣	١٢٩٠ ـ ١٢٩٣
٩ — الرحيم بيدار	٦٩٣	١٢٩٣
١٠ — الناصر محمد	٦٩٣ ـ ٦٩٤	١٢٩٣ ـ ١٢٩٤
١١ — العادل كتبغا	٦٩٤ ـ ٦٩٦	١٢٩٤ ـ ١٢٩٦
١٢ — المنصور لاجين	٦٩٦ ـ ٦٩٨	١٢٩٧ ـ ١٢٩٩
٩ — الناصر محمد (مرة ثانية)	٦٩٨ ـ ٧٠٨	١٢٩٩ ـ ١٣٠٨
١٣ — المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ ـ ٧٠٩	١٣٠٩ ـ ١٣١٠
٩ — الناصر محمد (مرة ثالثة)	٧٠٩ ـ ٧٤١	١٣١٠ ـ ١٣٤١
١٤ — المنصور أبو بكر	٧٤١ ـ ٧٤٢	١٣٤١
١٥ — الأشرف كجك	٧٤٢	١٣٤١ ـ ١٣٤٢

(١) أنظر . على الخصوص : زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى حسن وحسن محمود ، القاهرة ١٩٥٢ ، الجزء الأول؛ وأيضاً : Les Mosquéesdu Caire. Paris, 1, p. 52 - 3. : Hautecoeur et Wiet ولقد أضفنا بعض الأسماء الناقصة ، وضبطنا التواريخ على حسب مراجعنا ، ولا سيما بالرجوع إلى أسمائهم المنقوشة على العملة .

	هجرى	ميلادى
١٦ — الناصر أحمد	٧٤٢ ـ ٧٤٣	١٣٤٢
١٧ — الصالح إسماعيل	٧٤٣ ـ ٧٤٦	١٣٤٢ ـ ١٣٤٥
١٨ — الكامل شعبان	٧٤٦ ـ ٧٤٧	١٣٤٥ ـ ١٣٤٦
١٩ — المظفر حاجى	٧٤٧ ـ ٧٤٨	١٣٤٦ ـ ١٣٤٧
٢٠ — الناصر حسن	٧٤٨ ـ ٧٥٢	١٣٤٧ ـ ١٣٥١
٢١ — الصالح صالح	٧٥٢ ـ ٧٥٥	١٣٥١ ـ ١٣٥٤
٢٠ — الناصر حسن (مرة ثانية)	٧٥٥ ـ ٧٦٢	١٣٥٤ ـ ١٣٦١
٢٢ — المنصور محمد	٧٦٢ ـ ٧٦٤	١٣٦١ ـ ١٣٦٣
٢٣ — الأشرف شعبان	٧٦٤ ـ ٧٧٨	١٣٦٣ ـ ١٣٧٧
٢٤ — المنصور على	٧٧٨ ـ ٧٨٣	١٣٧٧ ـ ١٣٨١
٢٥ — الصالح حاجى	٧٨٣ ـ ٧٨٤	١٣٨١ ـ ١٣٨٢

ب — دولة البرجية أو الجركسية

	هجرى	ميلادى
٢٦ — الظاهر برقوق	٧٨٤ ـ ٧٩١	١٣٨٢ ـ ١٣٨٩
٢٥ — الصالح حاجى (مرة ثانية)	٧٩١ ـ ٧٩٢	١٣٨٩ ـ ١٣٩٠
٢٦ — الظاهر برقوق (مرة ثانية)	٧٩٢ ـ ٨٠١	١٣٩٠ ـ ١٣٩٩
٢٧ — الناصر فرج	٨٠١ ـ ٨٠٨	١٣٩٩ ـ ١٤٠٥
٢٨ — المنصور عبد العزيز	٨٠٨	١٤٠٥
٢٨ — الناصر فرج (مرة ثانية)	٨٠٨ ـ ٨١٥	١٤٠٥ ـ ١٤١٢
— سلطنة الخليفة المستعين بالله المؤقتة	٨١٥	١٤١٢
٢٨ — المؤيد شيخ	٨١٥ ـ ٨٢٤	١٤١٢ ـ ١٤٢١
٢٩ — المظفر أحمد	٨٢٤	١٤٢١
٣٠ — الظاهر ططر	٨٢٤	١٤٢١
٣١ — الصالح محمد	٨٢٤ ـ ٨٢٥	١٤٢١ ـ ١٤٢٢
٣٢ — الأشرف برسباى	٨٢٥ ـ ٨٤١	١٤٢٢ ـ ١٤٣٨
٣٣ — العزيز يوسف	٨٤١ ـ ٨٤٢	١٤٣٨
٣٤ — الظاهر جقمق	٨٤٢ ـ ٨٥٧	١٤٣٨ ـ ١٤٥٣

	هجرى	ميلادى
٣٥ — المنصور عثمان	٨٥٧	١٤٥٣
٣٦ — الأشرف إينال	٨٥٧ — ٨٦٥	١٤٥٣ — ١٤٦١
٣٧ — المؤيد أحمد	٨٦٥	١٤٦١
٣٨ — الظاهر خوشقدم	٨٦٥ — ٨٧٢	١٤٦١ — ١٤٦٧
٣٩ — الظاهر ألباى	٨٧٢	١٤٦٧
٤٠ — الظاهر تمر بغا	٨٧٢	١٤٦٧ — ١٤٦٨
٤١ — الأشرف قايتباى	٨٧٣ — ٩٠١	١٤٦٨ — ١٤٩٦
٤٢ — الناصر محمد بن قايتباى	٩٠١ — ٩٠٤	١٤٩٦ — ١٤٩٨
٤٣ — الظاهر قانصوه	٩٠٤ — ٩٠٥	١٤٩٨ — ١٥٠٠
٤٤ — الأشرف جانبلاط	٩٠٥ — ٩٠٦	١٥٠٠ — ١٥٠١
٤٥ — العادل طومان باى	٩٠٦	١٥٠١
٤٦ — الأشرف قانصوه الغورى	٩٠٦ — ٩٢٢	١٥٠١ — ١٥١٦
٤٧ — الأشرف طومان باى	٩٢٢ — ٩٢٣	١٥١٦ — ١٥١٧

جدول بأسماء الخلفاء العباسيين ، وتواريخ خلافتهم فى مصر

ا — فى عهد المماليك البحرية أو القبجاق

المستنصر بالله أحمد .	٦٥٩ — ٦٦٠	١٢٦١ — ١٢٦٢
الحاكم بأمر الله أحمد .	٦٦٦ — ٧٠١	١٢٦٧ — ١٣٠١
المستكفى بالله سليمان .	٧٠١ — ٧٤٠	١٣٠١ — ١٣٤٠
المستعصم بالله أحمد .	٧٤٠	١٣٤٠
الواثق بالله إبراهيم .	٧٤٠ — ٧٤١	١٣٤٠
المستعصم بالله أحمد (مرة ثانية)	٧٤١ — ٧٤٨	١٣٤٠ — ١٣٤٧
المعتضد بالله أبو بكر	٧٤٨ — ٧٦٣	١٣٤٧ — ١٣٦٢
المتوكل على الله محمد .	٧٦٣ — ٧٧٩	١٣٦٢ — ١٣٧٧
المستعصم بالله زكريا .	٧٧٩	١٣٧٧
المتوكل على الله محمد (مرة ثانية)	٧٧٩	١٣٧٧

ب — فى عهد المماليك البرجية أو الجركسية

	هجرى	ميلادى
المتوكل على الله محمد	٧٧٩ – ٧٨٥	١٣٧٧ – ١٣٨٣
الواثق بالله عمر	٧٨٠ – ٧٨٨	١٣٨٣ – ١٣٨٦
المستعصم بالله زكريا (مرة ثانية)	٧٨٨ – ٧٩١	١٣٨٦ – ١٣٨٩
المتوكل على الله (مرة ثالثة)	٧٩١ – ٨٠٨	١٣٨٩ – ١٤٠٥
المستعين بالله العباس	٨٠٨ – ٨١٥	١٤٠٥ – ١٤١٢
المعتضد بالله داود	٨١٥ – ٨٤٥	١٤١٢ – ١٤٤١
المستكفى بالله سليمان	٨٤٥ – ٨٥٥	١٤٤١ – ١٤٥١
القائم بالله حمزة	٨٥٥ – ٨٥٩	١٤٥١ – ١٤٥٥
المستنجد بالله يوسف	٨٥٩ – ٨٨٤	١٤٥٥ – ١٤٧٩
المتوكل على الله عبد العزيز	٨٨٤ – ٩٠٣	١٤٧٩ – ١٤٩٧
المستمسك بالله يعقوب	٩٠٣ – ٩٢٢	١٤٩٧ – ١٥١٦
المتوكل على الله محمد	٩٢٢ – ٩٢٣	١٥١٦ – ١٥١٧

الفصل الأول

السلطان

اختيار السلطان — ألقابه — سلطته الزمنية — السلطة الدينية — مظاهر الخلافة العباسية فى مصر — ألقاب الخليفة — تفويض السلطان — مبايعة الخليفة — حقوقه .

وقد كان على رأس المماليك السلطان ، وهو يأتى فى الغالب نتيجة لاختيار الأمراء له ، وليس نتيجة للوراثة ؛ فهو بذلك الأول بين أقرانه : « Primus inter Pares »[1] . وقد حاول بعض السلاطين البحرية أو البرجية إدخال المبدأ الوراثى ، ولكن أمراء المماليك لم يأخذوا به[2] ، ولم يكن للابن الأكبر للسلطان حق ملزم فى التولية بعد أبيه ؛ غير وصية أبيه له .

ومع ذلك ، فقد كانت هناك ظروف تحدد هذا الاختيار ، وتهيء الوصول إلى السلطنة ، منها على الخصوص كثرة عدد المماليك عند الأمير الهادف إلى السلطنة ، فكان يقال إن مقام الأمراء بمماليكهم[3] ؛ فبعضهم عنده خمسة آلاف ، أو سبعة آلاف ، أو حتى اثنا عشر ألفا[4] . ومن ناحية أخرى ؛ لكى يحتفظ السلطان بالسلطنة كان عليه أن يخنق ويقتل ويسجن وينفى أعداءه ، أو أن يتقرب من كبار الأمراء ويوزع عليهم الإقطاعات والوظائف ، أو أن يلجأ ليجعل كبار الأمراء يعيشون معه

---

(١) أنظر . Demomb : La Syrie, xxx.

(٢) أنظر سيرهم فى المصادر المملوكية .

(٣) المقريزى ، كتاب السلوك ، (مخطوط) بدار الكتب ، برقم ٤٠٥ ، ٢/٤ ، ورقة ٤٣٤ . أوردها على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٠٠ .

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ٢١ س ٢ ، ١ص ٣١٥ س ٣ ، ١ص ١٢٩ س٣ . أنظر أيضاً الخطط ، ١ س ١٠٣ .

فى القلعة[١]، ليكونوا تحت نظره . وإن وجدنا فى أيام المماليك البرجية — وهو العصر الثانى من حكم المماليك — أن أغلب من يصل إلى السلطنة كان يكتفى بنفى أعدائه دون أن يقتلهم ؛ خوفاً من أنه إذا عُزِل يقع فى نفس المصير ؛ وكانت أشهر أماكن النفى : الإسكندرية ودمياط وقوص بمصر ، والكرك بالشام[٢] ؛ كما نسمع أيضاً بالتسامح : الذى وصل إلى حد أن يسمح لسلفه المخلوع بالحج[٣] .

وكان للسلطان القائم ألقاب ، أهمها : لقب « سلطان[٤] » ، وهو لقب يعنى صاحب السلطة العليا . وقد تسمى به الفاطميون فى مصر من قبل ، بجانب لقب الإمامة والخلافة ، وإن لم يكن عندهم لقباً رسمياً ، فلم يظهر على العملة أو فى الأوراق الرسمية . ولكن السلاجقة فى العراق اتخذوه لقباً رسمياً ؛ كما اتخذه الأيوبيون ومن بعدهم المماليك ؛ فيسمى : السلطان ، أو سلطان جميع الإسلام[٥] ، أو سلطان الإسلام والمسلمين[٦] ، أو غير ذلك . كذلك لقب : « ملك » ، - وهو مثل « سلطان » ، يعنى صاحبه السلطة العليا — كان من ألقابهم ، مثلما كان من ألقاب وزير التفويض الفاطميين وملوك الأيوبيين . فظهر عند المماليك على العملة وفى الكتابات الرسمية ؛ وإن

(١) كما كان الحال الى آخر أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون . الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ ص ٣ — ٤ .

(٢) ابن اياس ، ١ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ ، ٢٤٨ ، ٢ ص ٣٨ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٣٨ س ١٦ — ١٨ .

(٤) صبح ، ٥ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ ؛ زبدة ، ص ٨٩ ؛ انظر . الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ١٩٥٧ ، ص ٣٢٨ ؛ Ency. (art Sultan) ، 4, p.568 sqq

(٥) أنظر . Corpus, 1, p 300

(٦) أنظر Ibid, 1, p. 299 ؛ صبح ، ٦ ص ٥٣ ؛ Colin : Contribution à l'étude des relations diplomatiques entre les, Musulmans d'occident et l'Egypte, au Ve siècle. 1935, p. 198 أنظر نص لقب برسباى : عبدالله ووليه ، السلطان ، الإمام الأعظم ، الملك الأشرف ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، خادم المساجد الثلاثة ، سيد الملوك والسلاطين ، قسيم أمير المؤمنين ، أبو النصر برسباى .

أتى بعد « سلطان » ، بسبب أن الأول أعمّ فى التسمية(١) ، فيسمى : السلطان الملك ، أوملك الأقاليم المصرية(٢) . وكان لسلاطين المماليك ألقاب درج عليها الحكام فى الإسلام ، مع أنها كانت قاصرة على الخلفاء وحدهم ، مثل : الناصر والظاهر والقاهر والأشرف ، حيث سُكت على العملة ، وكتبت فى المستندات الرسمية . ووجدنا لهم أيضا اللقب ، الذى يشتمل دائما على كلمة : « الدين » ، مثل : سيف أو حسام أو زين أو عز أو ركن « الدين » . بل أغار السلطان على ألقاب الخليفة ؛ فكان له لقب : « قسيم أمير المؤمنين » — أى الخليفة العباسى السنى ؛ الذى انتقلت خلافته إلى مصر بعد استيلاء المغول على العراق ، بقيادة زعيمهم هولاكو (هولاجو) عام ٦٥٩/١٢٦١ — حيث سكوه على العملة(٣) ، أو حتى : الإمام الأعظم(٤) ، أى أن السلطان أعظم من الخليفة ، الذى أطلق عليه الإمام أيضا .

وفوق ذلك ، كان للسلاطين تسميات دينية عديدة ظهرت فى كتاباتهم الرسمية ، وحتى على العملة ، مثل : نصير أمير المؤمنين(٥) ، أو ناصر الملة المحمدية ، أو محيى الدولة العباسية(٦) ، أو خادم المساجد الثلاثة(٧) . وله ألقاب تدل على فروسيته ، مثل : هازم الفرنج والترك والتتر ، أو قاتل

---

(١) صبح ، ٥ ص ٤٤٨ .

(٢) مخطوط بالمكتبة الأهلية من غير عنوان ، برقم ٤٤٤٠ ، وهو يشمل مكاتبات رسمية ، ورقة ٤٠ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب ، ٣٠ ورقة ١ .

(٣) انظر . حسن المحاضرة ، ٢ ص ٦٦ ؛ Lavoix: Gatalogue des monnaies, Musulmanes de la Bibl N. Paris, 1886, 280 (711), 281 (712) ؛ وانظر أيضا Corpus, 1, pp. 119, 127, 279.

(٤) أنظر . قبله ؛ Corpus, 1, p. 46.
أول من اتخذه الملك الرحيم آخر ملوك بنى بويه فى فارس والعراق (٤٤٠ — ٤٤٧) أنظر . Répertoire, 7, 2577 ؛ حسن الباشا ، الألقاب ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، كما اتخذه السلاجقة ، انظر . Répertoire, 8, 2934, 2960

(٥) مخطوط (B.N.) . ٤٤٤ (رسائل) ورقة ٤٠ ب .

(٦) أنظر . Lavoix, p. 315 - 6 (793 - 4)

(٧) أنظر . Colin : Op. cit, p. 198.

الكفرة والمشركين ، أو المجاهد المنصور ، أو سيد ملوك العرب والعجم والترك ، أو إسكندر الزمان وسلطان الأوان[١] . وله ألقاب جاءته وراثية من الدولة الفاطمية ، مثل : السيد ، الأجل[٢] ، وهو لقب الوزير الفاطمى . كما كانت لهم صفات ترفع من قدر السلطان ، مثل : « مقام » ، فيقال : « المقام العالى » ، و « المقام الشريف العالى » ، و « المقام الأشرف » ، أو « الحضرة » ، التى كانت تستعمل فى مكاتبات الخلفاء ، فكان يقال : « الحضرة العالية » ، و « العلية » ، و « السنية » ، و « الشريفة العالية » ، و « الكريمة العاليـة »[٣] . وعلى العكس توجد عبارات تبيّن تواضعهم ، مثل : « عبد الله ووليّه »[٤] ، وهذه العبارة تكتب فى المراسلات ، حيث كانت أيضاً للخلفاء من قبل . وكان يوجد ألفاظ تبدو أنها كثيرة الاستعمال فى رسوم البلاط ، وفى طريقة مخاطبة السلطان ، مثل : « مولانا »[٥] . وأخيرا كان السلطان يتلقب « بأستاذ »[٦] ، بالنسبة لمماليكه .

وعمل السلطان هو الحرب ، فهى وظيفته الأولى ، التى لا نجدها لخلفاء الإسلام الفاطميين أو العباسيين ، فهؤلاء لايذهبون إلى الحرب ، وإنما

(١) مخطوط (B.N.) ٤٤٤٠ (رسائل) ورقه ٤٠ ؛ صبح ، ٦ ص ٣٥ ، ٥٠٣ ؛ أنظر . Colin : Op. cit, p. 206.

(٢) صبح ، ٦ ص ٦ . انظر . نص لقب بيبرس ، وهو : السلطان ، الملك ، الظاهر ، السيد ، الأجل ، الكبير ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، ركن الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، قاتل الكفرة والمشركين ، ناصر الحق ، مغيث الخلق ، ملك البحرين ، صاحب القبلة ، خادم الحرمين الشريفين ، محي الخلافه المعظمة ، ظل الله فى الأرض ، قسيم أمير المؤمنين ، بيبرس بن عبد الله الصالحى ، أعز الله سلطانه ، انظر . Mayer : Saracenic Heraldry. Oxford. 1933, p. 107 . وأيضا : حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٨ ؛ على ابراهيم ، المماليك البحرية ، ص ١٨٥ .

(٣) انظر . صبح ، ٥ ص ٤٩٣ — ٤٩٤ ، ٤٩٨ ، ٦ ص ٢٠ ؛ السلوك ، ١ / ٢ ص ٤٥٣ س ١٦ وهامش .

(٤) أنظر . هامش (٢) ؛ وقبله .

(٥) ابن عبد الله الظاهرى ، الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، تحقيق وترجمة Moberg ، ط. Distribuent ، ١٩٠٢ ص ٥ .

(٦) ابن اياس ، ١ ص ٢١٩ س ١٤ ؛ انظر . قبله .

يولون قواداً من قبلهم . ولكن سلاطين المماليك كالأيوبيين ، كانوا يذهبون على رأس الجيوش للحرب أو لقمع الثورات والفتن . كذلك يقوم سلطان المماليك بدور هام فى السياسة الداخلية ؛ فموظفو الدولة مسئولون أمامه ؛ فهو يفوض سلطته إلى عدد كبير منهم ، ولا يمنحها إلا لمن يثق فيه ، وإن كان يهتم على الخصوص بالنظر فى مظالم الشعب بنفسه ، وهو ما عرف اصطلاحاً : بنظر المظالم[1] . وفوق ذلك ، يرسم السياسة الخارجية ، ويستقبل رسل الملوك .

وكان السلطان لابد أن يكون قوياً ؛ لتبقى السلطة الزمنية فى يده . ومع ذلك ، فهو لم يكن غالباً يستقل برأيه فى الأمور ، بل أنه يمثل روح الإسلام الأولى ، فكان له جماعة من كبار أمراء المماليك يسمون : «الأمراء أرباب المشورة» ، ومجلسهم يسمى : «المشور» أو «مجلس السلطنة»[2] . كذلك كان السلطان يستشير طبقة العلماء والقضاة ، ويأخذ خطهم فى كل ما يقرره[3] .

ولم يمنع ذلك بعض كبار الأمراء المماليك من الذين تولوا الوظائف الكبرى فى البلاط أو فى الجيش من التحكم بنفوذهم فى السلطان ، وبخاصة إذا كان السلطان صغير السن[4] ؛ بحيث كان أشبه بالنرد بين أيديهم أو بالطير بين مخالب النسر . وفى هذه الحالة معناه أن سلطته الزمنية مقضى عليها .

*

---

(١) أنظر . حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٦ . انظر نص تقليد الخليفة للسلطان .

(٢) صبح ، ٤ ص ٤٥ ص ١٦ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٣٩ س ١٩ ، ٢١ ؛ مؤلف مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك ، نشر Zettersteen ، ط . London ، ١٩١٩ ، ص ١٣٦ س ٢ ؛ ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، تحقيق Carlyle ، ط . Cantabrigiae ، ١٧٩٢ ، ص ٧٢ . يذكر ابن شاهين المشير كعضو للاستشارة ، وهو الذى يناقش من يستشيرهم السلطان من الأمراء ، زبدة ١٠٦ .

(٣) زبدة ، ١٠٦ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٣٠٥ . ملاحظة المقريزى فى ذلك .

وعلى العكس لم تكن للسلطان سلطة دينية بالمعنى الحقيق — على الرغم من ألقابه الدينية- بل كان فى حاجة إلى السلطة الدينية الشرعية لتوليه السلطة الزمنية؛ إذ كان من المصطلح عند المسلمين وقتذاك ، أن لا سيادة بدون تفويض من خليفة المسلمين ، لا سيما وأن السلطان نفسه من المماليك ، ليس له نبل الأصل . ولذلك وجدنا المماليك فى عهد بيبرس يقيمون فى مصر نظام الخلافة العباسية[1] ، التى قضى عليها فى بغداد عام ٦٥٩/١٢٦١ ؛ ليفوضهم الخليفة سلطتهم فى البلاد التى يحكمونها ؛ وحتى يبقوا الإسلام على السلطة الشرعية الممثلة فى الخليفة . ومثل هذا التفويض له سابقة فى الإسلام ، منذ أن ضعفت خلافة العباسيين ، حتى وهى فى بغداد، حينما كانت تفوض سلطتها الزمنية لقوادها الترك فى الولايات، ، أو فى بغداد نفسها . كذلك ليست هذه أول محاولة لإقامة الخلافة فى مصر ، فقد حاول ابن طولون والأخشيد - وكلاهما من ولاة مصر — الأول مع الخليفة المعتمد فى ٢٦٩/٨٨٢[2] ، والثانى مع الخليفة المتقى فى ٣٣٣/٩٤٤[3] . كما أن مصر كانت قاعدة للخلافة الفاطمية الشيعية من ٣٥٨ إلى ٥٦٧/٩٦٩- ١١٧١[4] . كذلك السلطان قطز قبل بيبرس حاول إحياء الخلافة العباسية بعد انتصاره على المغول ، ولكنه قتل قبل أن تتم فى عهده ، وإنما تمت فى عهد خلفه بيبرس . ولدينا صورة

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٠ — ٤٤ ؛ صبح ، ١٠ ص ١١١ ، انظر .
Zur Vorgeschichte des Abbâsidischen Schein, - : Hartmann, Cbalifates von Cairo Abhandlungen d. Deutschen Akademie der wissenschaften Zu Berlin Phil. Hist. kI. Jgg 1947, publ, 1950, Nr. 9.)

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ط . الحسينية ، ١١ ص ٣٠٠ .

(٣) السيوطى ، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٣٠١ هـ ، ص ٢٦٢ .

(٤) انظر كتابنا : نظم الفاطميين ، فصل الإمامة ، الجزء الأول .

تقليد أول خليفة عباسى فى مصر ، وهو أحمد الملقب بالمستنصر بالله[١]، عم المستعصم ، آخر خليفة عباسى فى بغداد ؛ الذى قتل على يد المغول .

ومع ذلك ، فالخلافة العباسية نفسها ، لم تكن فى حد ذاتها سلطة دينية مطلقة[٢] ، حيث أن السنة على عكس الشيعة لم تجعل صفات دينية للخليفة ، وكان من يقوم بأمور الدين ، ولهم صفات دينية ، هم العلماء ، ولذلك قيل : إن العلماء ورثة الأنبياء[٣]. فالخليفة ليس رئيس الدين الإسلامى ، ولكنه رأس المسلمين ، وتمتاز سلطته على العموم عن السلطان بأنها تشمل جميع المسلمين ، حتى الذين لا يخضعون لسلطة السلطان . كذلك كان نظام الخلافة العباسية ، الذى أقامه المماليك فى مصر ؛ ليعتمدوا عليه فى تولية السلطة ضعيفاً ؛ فيصف السيوطى الخليفة بأنه أمير فى حاشية السلطان[٤] ، ويقول عنه المقريزى : حسبه أن يقال له أمير المؤمنين[٥] . فقد كان الخليفة يأتى فى المرتبة الرسمية بعد السلطان ، وعليه أن يقدم الولاء له مرة شهرياً[٦] ، بالصعود إليه فى القلعة على جبل المقطم ، إذ كان الخلفاء العباسيون فى مصر

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٥ — ٤٧ . لدينا مخطوطة فى باريس مهداه الى بيبرس ، بعنوان : المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية ، من تأليف ابن أبى الفرج البصرى ، (B.N.) ، برقم ٦١٤٤ . وقد قتل المستنصر هذا على يد المغول ، حينما خرج لاسترجاع الخلافة ؛ فتولى بعده أحمد أيضا — وهو من آل العباس — ولقب بالحاكم بأمر الله ؛ حيث يعد أول خليفة عباسى مات بمصر .

(٢) أنظر ملاحظة Abel : Le Khalife, présence sacrée. Sl,1957, pp. 29–45, ؛ أنظر أيضا Nallino : Notes on the nature of the Caliphate ؛ Rome, 1914. Ency. (art Khalifa) t2, p.933, sqq

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٧ .

(٤) السيوطى ، الخلفاء ، القاهرة ١٩٠٥ ، ١٦٤ . س ١ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٩٤ س ٩ — ١٤ .

(٦) ابن إياس ، ١ ص ١٠٣ س ٢ — ٣ .

يقيمون فى مكان محدد لهم بمناظر (أو قصر) الكبش ، بجانب مسجد ابن طولون ، وأحياناً مع السلطان فى إحدى بروج القلعة ذاتها [١] .

وقد كان من مظاهر الخلافة العباسية زمن المماليك إعلان الخطبة للخليفة فى المساجد ؛ ومن بعده للسلطان ، إلا فى مسجد القلعة ، فتكون للسلطان ثم للخليفة [٢] . ومع أن اسم الخليفة العباسى سك على العملة وهو فى بغداد وبقى يسك إلى عهد بيبرس ، الذى سك اسمه معه ؛ إلا أنه بعد ذلك منع السلاطين سك العملة باسم الخلفاء [٣] ، مع أن السكة كانت من شعار الخلافة الإسلامية دائماً . ولكن بقى للخلفاء لبس البردة [٤] — وهى من لباس النبي ، ومسك القضيب — وهو عصاة ، على عادة الملوك القدامى — ؛ وكلها من أيامهم فى بغداد .

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٩٣ س ٢٢ — ٢٣ ، ص ٣٩٤ س ٦ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٩٣ (آخر الصفحة) ؛ نفسه ، ٢ ص ٤٨ ؛ صبح ، ٣ ص ٢٧٩ .

(٣) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٨ ؛ انظر . Lavoix, p.274 (700) ; 275 (701) ; Mayer : 280–1 (712–713) ; 282 (715)
A Hoard of, : Mamluk coins, vol III, no 4, Rep. from the Quarterly of Dep. of Ant in Palestine, p. 168–9.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٠ . كانت البردة للنبى ، وكساها للشاعر كعب ابن زهير ، فاشتراها منه معاوية بعد ذلك ، ولبسها الخلفاء فى الأعياد ، ثم خطفت هى والقضيب أيام المسترشد فى العراق ، ولكن السلطان سنجر السلجوقى أعادها فى ٥٣٠/١١٤١ ، ولبسها الخلفاء العباسيون فى مصر . صبح ، ٣ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ ؛ انظر . الرازى (أبو حاتم) ، الزينة فى المصطلحات الإسلامية العربية ، تحقيق الهمدانى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ١ ص ٥٣ ؛ انظر . Ency. (art Burda) t 1, p. 815 ; Dozy : Dict. des noms de vêt, p. 59 — 64.

وكان للخلفاء العباسيين فى مصر عدة ألقاب كانت لهم من قبل وهم فى العراق . فمنها ، لقب « خليفة[1] » ، الذى استعمله الخلفاء منذ موت النبى ، بمعنى « خَلَفَ » ، وهى فى معناها الفقهى تدل على المجىء بعد آخر . ويرى بعض الفقهاء ، أن لقب « خليفة » ، يدل على معنى « النيابة » ، والقيام مقام النبى فى أمته . ولقد أصبحت تعنى فى أيام المماليك - كما تنص عليها تقاليد الخلفاء[2] العباسيين فى مصر — أنه من أسرة النبى من فرع بنى العباس ؛ الذين تولوا الخلافة من قبل فى العراق ، وقضى المغول على خلافتهم . ومنها ، لقب « أمير المؤمنين[3] » ، الذى ظهر على يد عمر بن الخطاب ، إذ كلمة « أمير » وليس « ملك » ، تعنى سيداً من العرب ، بينما « المؤمنين » ، هم المسلمون الذين دخل الإسلام فى قلوبهم ، وخرجوا للجهاد فى سبيله . ولقد أصبحت تعنى فى أيام المماليك على الخصوص لقباً شرفياً للخلفاء ؛ بحكم السيطرة الاسمية على أرض العروبة ، التى لم تعد أرض الجزيره العربيـــة وحدها ، مهد العروبة والإسلام ، ولكن أيضاً بلاد مصر والشام والفرات بحكم إسلامها وتكلمها بالعربية ، ولا سيما مصر التى أصبحت مركز العروبة والإسلام وقتذاك . وكما ذكرنا ، أغار السلطان على هذا اللقب ، فسمى نفسه : « قسيم أمير المؤمنين »[4] ، وبيبرس هو أول من تسمى به ، ووضعه على العملة ، وذلك ، مع أنه فى عهد الأيوبيين ، كان للسلطان منهم هو[5] : مولى أمير المؤمنين ، أو خادم أمير المؤمنين ، أو خليل أمير المؤمنين ، أو صاحب أمير المؤمنين ومنها ، لقب « إمام »[6] ، الذى ظهر لأول مرة على يد على بن أبى طالب ، على أساس أنه الزعيم الدينى ؛ لذلك وجدنا بروز هذا اللقب عند خلفاء

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٠ فما بعدها ؛ صبح ، ٥ ص ٤٤٤ فما بعدها .

(٢) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٥٠ .

(٣) المقدمة ، ص ١٧٩ فما بعدها .

(٤) انظر . ابله .

(٥) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٦٦ .

(٦) المقدمة ، ص ١٥١ فما بعدها .

العباسيين فى مصر ، وأصبح يرادف لقب خليفة[١] . وقد أغار السلطان على هذا اللقب أيضاً ، فسمى نفسه : « الإمام الأعظم »[٢]. كذلك كان لهم اللقب ، الذى يشتمل دائماً على كلمة « الله » ، مثل : المستنصر بالله ، وذلك على عكس السلطان ، الذى كان له اللقب المشتمل على كلمة « الدين » .

وكان يصحب تسمية الخلفاء العباسيين فى مصر ذكر صيغة : « صلى الله عليه وسلم »[٣] ، حيث جاء أصل هذه العبارة فى الدعاء لإبراهيم وآله فى الصلاة . وهذه لم تُذكر لبنى العباس وهم فى العراق ، وإنما ذكرت للفاطميين وهم فى مصر ، وهى تدل على اعتقاد الفاطميين فى طبيعة أئمتهم الإلهية بحكم أنهم — فى اعتقادهم — ورثة وصية النبى لعلىّ ، فى أن تكون سلالته فى حكم المسلمين إلى يوم القيامة[٤] ، وربما كانت نقلاً عن الفاطميين. كذلك وجدت ألفاظ استعملت فى ألقابهم ومخاطبتهم ، مثل : « مولانا » ، وهى استعملت للسلطان أيضاً[٥] .

وعمل الخليفة الأساسى هو مبايعة السلطان ، وذلك حتى تصبح سلطات السلطان ونوابه وموظفيه شرعية[٦] . ويكون ذلك لكل من وصل إلى السلطنة ، حتى ولو حدث ذلك عدة مرات ، أو حتى لو كان السلطان فى حجر مرضعة[٧] . فمثلاً : الخليفة المعتضد بالله (م٨٤٥/١٤٤١) ، بايع

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص٥١ س٧ .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) عبد الله بن عبد الظاهرى ، الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، نشر وترجمة Axel Moberg ، ط. Distribuent ، ١٩٠٢ ، ص٣ ، ٥ .

(٤) النعمان بن حيون ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيظى ، ١ ص ٤٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٧٦ .

(٥) ابن عبد الظاهرى ، الألطاف ، ٣ ص ٥ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٥١ س ٧ .

(٦) زبدة ، ص٨٩ .

(٧) ابن إياس ، ٢ ص ١٠ . السلطان أحمد ، ابن المؤيد شيخ ، تسلطن وله من العمر سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام .

ستة سلاطين[١]. ولكن من ناحية أخرى، كان الخليفة ومعه القضاة الأربعة[٢]، يقوم أيضاً بعزل السلطان أو خلعه بناء على تدخل كبار الأمراء المماليك وتولية غيره، وكان هذا يحدث بسبب انعدام المبدأ الوراثى.

فكان يقام احتفال كبير هو تفويض من قبل الخليفة للسلطان فى السلطة على المسلمين[٣]. فيركب السلطان إلى الإيوان — وهى القاعه الفخمة ذات الأعمدة — بشعار السلطنة من آلات خاصة وبنود وأبواق، وقد ظلله لواءان أسودان — من شعائر الخلافة العباسية — منشوران على رأسه؛ ويركب فرساً فى عنقه قماش أسود «مشدة»، وعليه برذعة سوداء. وقد يصحبه أمراء المماليك ورجال الدولة. ويكون جلوس السلطان فى هذا الاحتفال على تخت فى أعلى مكان. فيقبل الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدمون إليه ويقبلون يده على قدر مراتبهم.

فإذا فرغوا؛ حضر الخليفة وجلس مع السلطان على التخت، ليلبسه بيده الخلعة المسماة[٤]: الخلعة الخليفتى، أو السواد الخليفتى، وهى: عمامة سوداء مدورة بعذبة ذهب قدر ذرع — مع أنها كانت مستطيلة أيام الفاطميين[٥] - تسمى التخفيفة أو الناعورة، وهى قد تكون لها قرون طوال، وتكون فى مقام التاج[٦]، وحلة الملك[٧]، التى هى سوداء، عبارة عن جبة — وهى رداء عربى — لها طرف مذهب ومزخرف وأكمام واسعة،

---

(١) ابن إياس، ٢ ص ٢٨ س ١١.

(٢) نفسه، ٢ ص ٢٤.

(٣) ابن حبيب، درة الأسلاك فى دولة الأتراك، مخطوط (B. N.)، برقم ٤٦٨٠، ١، ورقة ٩٨ ب؛ صبح، ٣ ص ٢٨٠ — ٢٨١؛ الخطط، ٣ ص ٣٤٠؛ السلوك، ١/٢ ص ٤٥٢؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ٤٥؛ مفضل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (Pat. — Orient txii, Fasc 3. Paris)، ص ٤٢٤ — ٤٢٥؛ ابن إياس، ١ ص ٩٨، ١٠١؛ المقصد، ورقة ٥٥، ١٢١ ا — ١٢١ ب؛ زبدة، ص ٨٩.

(٤) ابن تغرى بردى، مورد اللطافة، ص ٤٥، ٧٨، ١٠٢؛ ابن إياس، ١ ص ١٠١ س ٢٢.

(٥) صبح، ٣ ص ٤٧٣؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ٦٥ — ٦٧.

(٦) عن ذلك، أنظر. ابن إياس (K. M) ج ٤ ص ٢١٢، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٤؛ Mayer: Mamluk Costume. 1952, p. 16 - 17.

(٧) المقصد، ورقة ١٢١ ا.

من تحتها فرجية أو دراعة — إزار — سوداء اللون أو بنفسجية أو خضراء، من الجوخ أو الحرير. كذلك يلبس السلطان لهذه المناسبة طوق ذهب يكون حول عنقه ، كان يلبسه القواد في عهد الفاطميين — ولعله موروث عن الفراعنة — وسيف مذهب يسمى العربي أو البدوى ، وقيد ذهب يكون في رجلي السلطان للدلالة على أنه من المماليك ؛ إذ أن السلطان لم يكن يأنف من أصله المتواضع .

فيقرأ كبير موظفي ديوان الإنشاء — المختص بالمكاتبات الرسمية — تقليد الخليفة للسلطان على البلاد الإسلامية بما فيها مصر والشام والحجاز واليمن وديار بكر والفرات بالجزيرة ، وما يُضاف إليها ، وما يفتح من بلاد الكفر ، ولا سيما هذه العبارة : «فوضت إليه ذلك» ، وكذا يشهد كبار قضاة المملكة . وقد يخطب الخليفة في هذه المناسبة ؛ فإذا كان قوى الشخصية دعا السلطان إلى أن يكون رحيماً بالرعية .

كذلك قد يقبل الأمراء الأرض للسلطان من جديد، ويحلفون له على المصاحف بأن لايخونوا ولا يغدروا ولا يثبوا عليه . وبعد ذلك يصافح السلطان أمير المؤمنين ، بعد أن يمنحه التشاريف ، ويمنحها لرجال الدولة؛ حتى قد تبلغ أكثر من ألف ومائتى خلعة[١] . وقد يخرج الأمراء ورجال الدولة وعلى رأسهم السلطان في موكب ، حيث يحمل التقليد في كيس من الحرير الأسود يوضع على رأس الوزير[٢]، وتكون القاهرة قد زينت[٣]. وكذا يمد السماط — أى الوليمة[٤] — للأمراء بعد ذلك .

وفوق ذلك ، كان من عمل الخليفة غير القيام بالبيعه للسلطان

(١) السلوك ، ٢ ص ٤٨ .

(٢) نفسه .

(٣) مورد اللطافة ، ص ٩٣ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٤٠ .

تفويض الأمراء التابعين للسلطان في مملكة السلطان بكتابة تقليد لهم بذلك، حتى تكون سلطتهم شرعية، مثل: أمراء اليمن ومكة، أو حتى ملوك الإسلام أصدقاء السلطان[١]، مثل: آل عثمان ومغول القبيلة الذهبية المسلمين. كذلك يكون الخليفة بوقاً للنظام القائم، وذلك بإلقاء الخطب[٢]، ولاسيما خطبة الجمعة، كما أنه يذهب مع السلطان في حروبه لتحميس الجند[٣].

ولكن الخليفة العباسي، في الواقع، مع أنه يفوض السلطة، لم تكن له سلطة تعيين نفسه. وكان لكي يعين لابد أن يبايعه السلطان والقضاة[٤]، الذين يمثلون المذاهب الإسلامية الأربعة. كذلك، لا تكون تولية الخليفة العباسي في مصر دائماً وراثية؛ فقد يتدخل السلطان ليعين ابن عم الخليفة أو أخاً له بدلاً من الابن[٥]، أو من يرغب فيه من أفراد الأسرة العباسية؛ وإن كان غالباً يظهر أن التعيين بناء على عهد سابق من قبل الخليفة السابق، وقعه السلطان، وشهد عليه الشهود[٦]. بل كان السلطان أحياناً — إذا أراد — يأمر القضاة الأربعة بعزل الخليفة[٧] — وقد يستشير الأمراء المماليك أيضاً[٨] — وفي هذه الحالة قد يسجن السلطان الخليفة بالقلعة ويقيده، أو ينفيه في قوص بأقصى الصعيد[٩]. ومع ذلك، فلم تبلغ إهانة

---

(١) ابن إياس، ٢ ص ٢٢٧ س ١٥؛ زبدة، ص ٨٩.

(٢) حسن المحاضرة، ٢ ص ٤٨. انظر خطبة الخليفة الحاكم بأمر الله، أيام بيبرس وخلفه.

(٣) نفسه، ٢ ص ٥٢ س ٣.

(٤) ابن إياس، ١ ص ١٠١ س ١٣، ١٠٢ س ٢٥، ٢ ص ٥٣ س ٢ — ٤، ٦٠ س ١٧ — ١٨.

(٥) نفسه، ٢ ص ٢٨، ٥٢.

(٦) حسن المحاضرة، ٢ ص ٤٩، ٥٩.

(٧) ابن إياس، ٢ ص ٥٢.

(٨) حوادث، ص ٢٣٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، تحقيق نجاتي، ١ ص ٢٩١ — ٢٩٢.

(٩) حسن المحاضرة، ٢ ص ٦٠؛ صبح، ٣ ص ٢٦٥ — ٢٧٩؛ ابن إياس، ١ ص ٣٥٠ — ٣٥١.

سلاطين مصر للخلفاء العباسيين ما بلغته فى عهد البويهيين والسلاجقة فى العراق ، الذين كانوا يسملون أعين الخلفاء ويقتلونهم .

فكان إذا تولى الخليفة تقام له حفلة مبايعة[١] لا تقل فى عظمتها عن حفلة مبايعة السلطان ، يحضرها رجال الدولة وعلى رأسهم السلطان ، وبخاصة القضاة الذين كانوا يقلدونه السلطة ، بل يحضرها جميع طبقات الشعب المصرى حتى القبط واليهود . وحينئذ يفحص نسب الخليفة ، ويقرأ تقليده ، ويقدم له السلطان التشريف[٢] ، أو ما يسمى خلعة الخلفاء[٣] . فقد كان الخليفة يلبس السواد — زى العباسيين — فيلبس عمة لها عذبة أو ذؤابة طولها قدمين ، وعرضها قدم « رفرف »[٤] ، حيث كانت تسمى العمة البغدادية[٥] ، كما قد يضع على رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض[٦] ، فضلاً عن البردة السابقة الذكر ، وعلى جسده بدلة « قباء » أو « فرجية » ضيقة الكم ، عليها غطاء « كاملية »[٧] ضيقة الكم أيضاً ، واسعة من ذيلها .

وقد كان الخليفة فى أول الأمر يمنح ما يحصل من الضريبة المفروضة على سوق الصاغة — مكس — وكان ضئيلاً ، حتى أن الخليفة كان يستولى

---

(١) ابن حبيب ، درة الأسلاك (B. N.) ، ١ ورقة ٥٠ ا ؛ مفضل (P.O.) ، ص ٤٢٥ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٩ .

(٢) ابن إياس ، ٢ ص ٣٣٤ س ١٦ ؛ السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٣ س ١ ، ٢ .

(٣) انظر . ابن الفرات ، تاريخ ، تحقيق زريق ، ٩ ص ٦٩ ؛ وابن تغرى بردى (P) ، ٥ ص ١٣٤ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٢٨٠ س ٥ — ٦ .

(٥) نقلاً عن مخطوط بكوبنهاجن . أنظر . Mayer : Mamluk Costume, Genève, 1952, p. 13. Some Remarks on the dress of the Abbasid Caliphs in Egypt Isl. Cult, XVII, 1943, p. 36 - 38.

(٦) صبح ، ٣ ص ٢٨٠ س ٦ — ٧ ، س ١٢ — ١٣ .

(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٩٤ (آخر الصفحة) .

أيضاً على بعض النذور من مشهد السيدة نفيسة . ولكن منذ عهد برقوق جعل للخليفة إقطاع أرضى ، وراتب مالى محدد قدره خمسمائة دينار ، وراتب عينى عبارة عن قمح وشعير وخبز ولحم ، فضلاً عن الكسوة[١] كذلك كانت له بغلة خاصة[٢] .

*

وصفوة القول : كان السلطان هو كل شىء فى تنظيم دولة مماليك مصر .

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٩٥ س ١٧ ؛ انظر تاريخ سلاطين المماليك ، تحقيق **Zetterstéen** ، ص ٢٠٧ ؛ على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٢٣٢ .

(٢) ابن عبد الظاهرى ، الألطاف ، ٣ ص ٧ .

الفصل الثانى

الوزاره

مركز الوزير المملوكى — معنى لفظة الوزير والصاحب — تولية الوزير — مجلسه — اختياره .

الوزارة فى الإسلام — كما نعرف — نوعان[1] : وزارة تنفيذ أى تكون سلطة الوزير مقيدة ؛ ووزارة تفويض أى يكون الوزير مفوضاً برأيه فى جميع أمور الدولة .

ونجد أن وزارة التفويض قد بلغت غاية قوتها فى آخر عهد الخلفاء الفاطميين فى مصر ؛ فكانوا يسيطرون على هؤلاء الخلفاء سيطرة تامة ؛ حتى أنهم كانوا يتلقبون بالملوك[2] . وقد كان صلاح الدين الأيوبى نفسه[3] ، وزير تفويض للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وتلقب أيضاً بالملك ، وإن غلب عليه اسم السلطان ، وهو الاسم الذى بقى بعد قضائه على هذه الخلافة ، وتأسيسه الدولة الأيوبية . وقد اتخذ صلاح الدين وخلفه من الأيوبيين الوزراء كذلك ، وإن كان هؤلاء للتنفيذ ، ولم يصل منصبهم فى عهدهم إطلاقاً إلى التفويض . كذلك فعل المماليك من بعدهم ؛ إذ أننا لم نعد نسمع أيضاً عن وزير التفويض فى عهدهم .

والواقع أن منصب الوزير ظل فى عهد المماليك فى المرتبة ، التى تعتبر الثانية بعد السلطان ؛ إلا إذا وجدت وظيفة : « النائب »

---

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩ ، ص ١٨ .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٣٠٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٨٦ — ٨٧ .

(٣) صبح ، ١٠ ص ٩١ فما بعدها ، ٣٠٨ ؛ انظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٠ .

أو نائب السلطنة [١] ؛ أو ما يسمى أيضا بالكفيل أو نائب كفيل أو بالكافل أو كافل المملكة (أو الممالك) الشريفة الإسلامية ، أو حتى نائب الحضرة ، ووظيفته نيابة السلطنة أو كفالة السلطنة . فكان الوزير يكون فى المرتبة الثالثة بعد السلطان ، إذ كان النائب يغير على منصب الوزارة ، بل كثيراً ما كان يغير أيضاً على منصب السلطان نفسه ، وأنه غالباً ما يتولى السلطنة . وهذا النائب يوصف بأنه سلطان مختصر ، أو السلطان الثانى ، بيده تعيين الأمراء المماليك فى المناصب ، وتعيين الوظائف الديوانية والدينية ، والتصرف المطلق فى كل أمر ، وتوزيع الإقطاعات . وعندئذ يقتصر عمل الوزير على الشئون المالية . كذلك كان بعض السلاطين يسعون إلى السلطة المطلقة ، فتلغى الوزارة نهائياً ، ويكتفى بكبار الكتاب ، دون تعيين الوزير [٢] .

وقد بقى للفظة الوزير فى عهد المماليك — كما كان الحال قبلاً — معناها

---

(١) الخطط ، ٣ص ٣٦٢ س ٢٢ — ٢٣ . عن هذا الأخير ، انظر . نفسه ، ٣ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ س ٨٤ ؛ صبح ، ٤ص١٦ — ١٧ ، ٥ س ٤٥٣ — ٤ ، ١٠ ص١٤٨ ، ١١ ص ١٣٥ ؛ المقصد ، ورقات ١٢٤ — ١٢٥ ا ؛ زبدة ، ص١١٢ ؛ العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، س ٦٥ — ٦٦ ، ٩٢ — ٩٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩١ ؛ انظر .
؛ Corpus, 1, 208, 211, 213, 215, 223, 225, 226,
Syrie, Introd, p. LV—VII. : Demomb ؛ Ency (art Nâ'ib) t3, p. 895
عن وصايا له ، انظر . صبح ، ١١ ص ١٣٦ فا بعدها .
هناك ما يسمى أيضا : نائب الغيبة ، حيث أن نائب السلطنة يكون موجوداً بوجود السلطان فى مصر ، بينما الثانى يكون موجوداً فى حالة غيبة السلطان ، وكذا قد يحل محل النائب الكافل . صبح ، ٤ ص ١٧ — ١٨ ؛ Corpus, 1, p. 210 sqq .
كذلك يوجد ما يسمى : نواب الممالك ، وهم نواب السلطان فى الشام . الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ س ٥ ؛ انظر . بعده .

(٢) حدث هذا مثلاً فى عهد السلطان الناصر محمد ، الذى استأثر بكل سيطرته على الدولة ؛ فألغى وظيفتى النائب والوزارة أيضا . حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٤ ؛ ١٢٧ . عن إلغاء الوزارة واعتماده على الكتاب ، انظر أيضا . الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ٣ ؛ سلوك ، ٢ ص ١٢٤ س ١١ .

الذى حاول الفقهاء شرحه من ألفاظ عربية بأسانيد قرآنية[1] ، بأنها مأخوذة باشتقاقها على أربعة أوجه : « الوِزر » ، وهو الثقل لحمل الوزير أثقال الدولة عن السلطان ، و « الوَزَر » ، وهو الملجأ أى أن السلطان يرجع إليه فى أمور الناس بتدبيره ومعرفته ، و « الأَزْر » ، وهو الظهر ، لأن السلطان يتقوى به قوة البدن بالظهر ، وحتى « الأوزار » ، وهى الأمتعة ، لأن الوزير يتكفل بما فى خزائن السلطان من مال . وقد بقيت تسمية وزير فى عهد المماليك ؛ إلا إذا كان وزير قلم أى مدنياً ؛ فإنه يسمى حينئذ : «الصاحب»[2]، بمعنى أن الوزير صاحب رأى السلطان ، وتدبير أمره . وهذه التسمية الأخيرة لم تُعرف فى مصر قبل المماليك ، وإن عُرفت فى العصر البويهى فى بغداد ، أو عند مسلمى الأندلس . كذلك كان الوزير يلقب بلقب اشتهر به ، وهو : « الرئيس[3] » ، على أساس أنه رئيس الموظفين فى الدواوين .

وقد كانت الوزارة فى مصر ، منذ أن وجدت إلى عهد المماليك فردية[4] . والواقع أن مصر لم تعرف تعدد الوزراء فى العصور الوسطى ، كما كان الحال فى الأندلس . وكان يُقام لتعيين الوزير حفل كبير يقرأ فيه « التقليد »

(١) صبح ، ٥ ص ٤٤٨ ؛ المقصد ، ورقة ١٢٥ ا ؛ زبدة ، ص ٩٣ — ٩٤ ؛ مثل : [حتى تضع الحرب أوزارها ٤٧ : ٤] ؛ و (كلا لا وزر ٧٥ : ١١] ؛ و [ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ٢٠ : ٨٧] .

(٢) المقصد ، ورقة ١٢٥ ا — ١٢٦ ؛ زبدة ، ص ٩٣ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ ؛ صبح ، ٦ ص ١٧ — ١٨ ؛ Corpus, 1, pp. 403 - 404 et n (6)

(٣) مخطوط (B. N.) ، برقم ٦٧٣٩ ورقة ١٦٦ (٨٥ ب) ؛ صبح ، ١٠ ص ١٤ .

(٤) سمعنا عن « نائب الوزارة » ، الذى لعله بالأولى نائب لأحد كبار كتاب المال فى القصر ، كان يسمى « وزير الصحبة » ؛ حيث أن عبارة « نائب الوزارة » ، وضعت بجوار « وزير الصحبة » . السلوك ، ٢ ص ٢٥٦ س ٧ . كما أننا نسمع عن «وزير الوزراء» ، الذى هو أحد كبار ديوان المال أيضا . ابن إياس ١ ص ٢٩٣ س ٢٣ . كما لعل « وزير الوزراء » ، تسمية أيضا لأحد كتاب المال . حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢٨ س ١٨ ، ص ٢٩٣ س ٢٣ . كذلك لفظ « الوزراء » ، يطلق على رجال ديوان المال نفسه . وليس من السهل تحديد مدلول هذه التسميات والقائمين بها .

للرتبة ، الذى يكتب فى ديوان الإنشاء[١] . ولا نجد فى تقليد وزراء المماليك العبارات الرنانة ، مثلما كان الحال فى أيام الفاطميين ، وإنما بعض النصح والأوامر . وفى هذه المناسبة تُرسل الأخبار إلى جميع أجزاء المملكة الإسلامية بتولية الوزير .

كما تُصرف له خلعة الوزير[٢] ، التى هى عبارة عن ثوبين : « فوقانى » من القطيفة الحرير « الكمخا » البيضاء ، مطرزة بخطوط « رقم » ، ومحلاة بفرو « القندس » ، وشعر « سنجاب » ؛ و « تحتانى » من الحرير « الكمخا » أيضا ، وإن كان أخضر ؛ ولكن غلب على الوزير لبس ما عُرف باسم : « جبة » أو « فرجية » — ومثل هذا الزى بنوعية كان أيضاً لكبار الكتاب وحتى صغارهم ، مما يدل على رياسة الوزير على موظفى الدواوين — ويلبس الوزير أيضا قلادة على عدة طاقات تتدلى على صدره من العنبر يقال لها عنبرية[٣] — عوض الطوق أو العقد الجوهر ، الذى كان للوزير الفاطمى — ربما لرخص القلادة العنبر ، واضعف مركز الوزير فى عهد المماليك عنه فى زمن الفاطميين ؛ وكوفية بالذهب مزركشة بذؤابة مرخاة وهى العذبة ، وإن كانوا قد بدأوا فى هجرها وأصبحت تميز رجال القضاء وحدهم ، فكان الزركش وحده هو الذى يبرز من العمامة المسماة « بقيار »[٤] ، وهى مخططة « رقم » — مثل عمامة الكتاب أيضاً — ويضع طرحة على المنكب[٥] ، وهى عبارة

---

(١) أنظر . نص أحد التقاليد : حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢٤ — ١٢٦ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٧٠ س ١٢ فما بعدها ، ٣٧١ س ١٢ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٣ ؛ القصد ، ورقة ١٢٥ ب . عن كلمة «الكمخا» ، انظر . Suppl,2,p. 487 : Dozy . وعن كلمة « قندس » ، انظر : Ibid, 2, p. 410 . ويقال أيضا : «مقندز» . ومن « سنجاب » ، انظر . Ibid, I, p. 691 .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٣٠٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٩٠ ، ٢ ص ٦٠ .

(٤) عن هذه الكلمة ، انظر : Suppl, 1, p. 105. : Dozy .

(٥) عنها ، انظر . Ibid, 2,p 31 . أما عن الطيلسان ، فهو تحريف للكلمة الفارسية « طالش » أو « طليشان » عنها . انظر . Ibid,2, p. 418 ؛ Vêt, p. 279 : Doyzy

عن رداء منشى أو مشر شريشبه الطيلسان المقور فى العهد الفاطمى — وهو زى[٣] القضاة وحتى الكتاب — ويلبس خفاً أخضر من الحرير . ولم يعد الوزير يقلد بالسيف، كما كان الحال قبلاً أيام الفاطميين ؛ لأنه لم يعد له نفوذ على رجال السيف . كذلك كانت البغلة يستعملها فى تنقلاته ؛ وإن كان أحياناً يركب فرساً نظراً لمقامه ، مع اقتصار الفرس على رجال الجيش[١] .

وكان يصرف للوزير مرتب من خمسين ومائتين ديناراً شهرياً ، وتوابل وكسوة ولحم[٢] . وكان من حقه إذا كان وزير « سيف » أن يضرب الطبل — الطبلخانة — أمام بابه ، وهو تقليد كان لوزراء العراق . وكان للوزير مقام الشرف فى المواكب وحفلات القصر ، لا سيما عند النظر فى المظالم[٣] ، الذى كان السلطان يحرص على القيام به .

أما ما يتعلق بمجلس الوزير ، أو ما عرف « بالمجلس العالى »[٤] ، فإنه كان يعقد فى قاعة خصصت للوزارة ، عرفت بدار الوزارة أو قاعة الصاحب[٥] ، يكون مقرها القلعة — مقر السلطان — ليستشيره فى تصريف الأمور ، ولينفذ إرادته ؛ وهى أيضا بجوار الدواوين ، التى يشرف عليها جميعاً . فكان يشرف على شئون عمل الوزير وعلاقته بالدواوين المختلفة موظف خاص اسمه : « مقدم الدولة » فهو الذى يختص بمتعلقات الوزارة[٦] .

---

(١) العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب ، برقم ١٥٩٤ تاريخ ، ورقة ١٦٩ ا .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ١٦ . بينما كان الوزير فى العهد الفاطمى يتسلم راتباً يبلغ خمسة آلاف دينار ، غير المقررات العينية والكسوات وحتى الاقطاعات ، وغير مرتبات لأولاده وحواشيه ؛ مما يبين بالمقارنة ضياع منصب الوزير فى أيام المماليك . انظر . صبح ، ٣ ص ٥٢٥ .

(٣) المقصد ، ورقة ١٢٦ .

(٤) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢٦ س ١٣ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ س ٥ ، ص ٣٦٦ س ٢٣ .

(٦) صبح ، ٥ س ٤٦٨ .

بقى أن نتكلم عن اختيار الوزير فى العصر المملوكى ، الذى يكون فى أغلب الأحيان مصرياً من المدنيين ، وفى حالات قليلة من أمراء المماليك. وبينما كان فى العهد الفاطمى أهم ما يشترط فى الوزير أن يكون على معرفة بالشئون الديوانية لا سيما المال[١] ، بصرف النظر عن ديانته ، لذلك تولاها فى عهدهم عدد كبير من القبط . ولكن فى عهد المماليك نظراً لقيام دولتهم بالجهاد بشدة ضد الصليبيين والمغول ، نجد أن وزراء مصر كان أغلبهم بالضرورة من المسلمين ؛ ولكن لما كان القبط معروفين ببراعتهم فى الأعمال الديوانية ؛ فإنه كانوا يختارون منهم ؛ وإن اشترط عليهم لتوليهم الوزارة بأن يعتنقوا الإسلام ، سواء منهم من أسر دينه وادعى الإسلام أو جهر بالإسلام ؛ حتى أن الواحد منهم قد يعطى لنفسه اسماً إسلامياً ، ويبقى أصله القبطى ، مثل : بهاء الدين بن حنا ، أو عبد الوهاب بن القسيس ، أو علم الدين يحى المعروف بأبوكم[٢] ؛ ولذا عُرفت الوزارة فى عهد المماليك بوزارة الأقباط[٣] . ولكن قد يختار للوزارة أحياناً أهل الشوكة من رجال الترك[٤] .

ويجب أن نقرر أنه نظراً لاستبداد السلاطين وتغييرهم — بسبب طبيعتهم ، وعدم أخذهم بالمبدأ الوراثى — كانت الوزارة فى مصر فى أيامهم هى الأخرى منصباً غير مستقر . فكان الوزراء يغيرون بسرعة مذهلة ، لا سيما فى عهد المماليك البرجية ، حتى أن ذاكرة المؤرخين لم تعد تعى أسماءهم وأوقات حكمهم . فبعضهم قد يمكث فى الوزارة سنوات ، ولكن أغلبهم قد يمكث أشهراً أو شهراً أو أياماً أو حتى يوماً . وقد ترتب على كثرة تولية الوزراء وصرفهم أن أصبحت الوزارة مهنة ، يعود

(١) ابن إياس ، ٢ ص ٢٢ س ١٤ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٩٩ س ٩ ، ٢٦٨ س ٨ — ٩ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢٨ .

(٣) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢٤ س ٤ ؛ المقدمة لابن خلدون ، ص ١٩٢ س ١ .

(٤) المقدمة لابن خلدون ، ص ١٩٢

إليها من صرف عنها ؛ ليتولاها عدة مرات . كذلك أصبح أغلبهم مطعوناً في كفاءتهم . ولا تحمد طريقتهم ، كما أن النصارى اتخذوا الإسلام وسيلة للوصول إلى الوزارة ، ويُبدى المقريزى ملاحظة أن الوزارة أصبحت في وقته تطلق على موظف يشترى حاجيات السلطان(١).

*

هذا هو نظام منصب الوزير في أيام المماليك ، الساعد الأيمن للسلطان .

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٦٣ .

الفصل الثالث

النظم الديوانية

الأصول — الإدارة المركزية — الإدارة المحلية

كانت وظائف الدولة المملوكية تنقسم إلى وظائف : الأقلام والعلماء
السيوف[1] ، كما هو الحال فى دول الإسلام فى العصور الوسطى . فيجمع
نسم الأول الوظائف الديوانية ، والثانى الدينية ، والثالث الحربية ومع
، قبل هذا العصر لم يكن يوجد حد فاصل بين الوظائف الديوانية والدينية ؛
ن السواد الأعظم من الموظفين ديوانيين ودينيين ، كانوا يمارسون النوعين
ـن تفرقة ؛ إلا أنه فى العهد المملوكى ، فلمس التمييز بينهما ، ربما لزيادة طابع
مصر الإسلامى الدينى ، بتحول معظم أهلها للإسلام . فسنعرض للأنواع
لاثة بالتوالى : ديوانية ، ودينية ، وحربية .

* * *

الأصول : الدواوين — الموظفون — تعيينهم — إختيارهم

والنظم الديوانية فى أيام المماليك هى وارثة للنظم الديوانية ، التى
اورت تطوراً يكاد يكون كاملاً فى عهد الفاطميين[2] ، والسبب فى هذا
، الفاطميين كانوا قد استقلوا بمصر استقلالاً تاماً ، وجعلوها قلب امبراطورية
سلامية واسعة . وقد استمرت هذه النظم فى تطورها فى عهد الأيوبيين
لمماليك ؛ لأن مصر فى العهدين حافظت على استقلالها ، واستمرت قلب
لامبراطورية الإسلامية .

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٦٩ س ١٣ — ١٤ .

(٢) عنها ، انظر بتفصيل كتابنا : نظم الفاطميين ، الفصل الثالث ، ١ ص ٩٤
بعدها .

ولكن التنظيم الديوانى فى عهد المماليك كان أكثر تركيزاً ، لطبيعة السلاطين العسكرية ؛ فكانت توجد الدواوين التى عرفت باسم : « الدواوين السلطانية »[1]. وكلمة « دواوين » ، مفردها « ديوان » ، هى من أصل فارسى[2] ، اتخذتها الإدارة الإسلامية منذ نشأتها لتدل على سجلات الدخل والخرج ، وفيما بعد لتدل على المكان الذى يعمل فيه أرباب الأقلام ، وأخيراً أطلقت على جميع فروع الإدارة

وقد كان عماد الدواوين فى زمن المماليك طبقة الكتّاب[3] ، وذلك كما كان الحال دائماً فى مصر ، منذ عهد الفراعنة ؛ فهؤلاء عماد النظام البيروقراطى . ففى مصر المملوكية ، كانت صناعة القلم مهنة هامة فى الدولة ؛ كما أن حذق الكتابة كان يؤهل إلى أكبر وظائف الدولة ، حتى منصب الوزارة . ولم يكن الكتّاب من الترك — وهم طبقة المماليك — ولكن من المصريين ؛ لأن هؤلاء أعلم بشئون إدارة بلادهم ، ولأن الترك وغيرهم ، كانوا مشغولين بالحرب والرئاسة .

ومع أن معظم الدواوين سابقاً كان يشغلها القبط ، الذين تزايدوا فيها تزايداً هائلاً فى العصر الفاطمى[4] ، وحتى فى عهد الأيوبيين[5] ؛ فإننا نجد أنه فى هذا العصر المملوكى كان قد أسلم عدد كبير من المصريين الذين شغلوا

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ س ٢ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٢ فما بعدها .

(٣) صبح ، ٥ ص ٤٥٢ .

(٤) ابن ميسر ، تاريخ مصر ، تحقيق Massé ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ٢ ؛ يحى بن سعيد ، تاريخ ، أوصلة تاريخ أوتيخا ، (Pat. Or) ، ١٣ ص ٥٠٩ — ٥١٠ ؛ انظر ، ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٥) أنظر . Caben : Quelques aspects de l'administration égyptienne médiévale vus par un de ses fonctionnaires. Bull. Fac. Lettres Strasbourg, 1948, p. 115.

هذه الدواوين. ومع ذلك ؛ فقد بقى فى الدواوين المماليكية عدد كبير من القبط ، حتى أن أحد السلاطين المتعصبين أصدر أمراً بترك استخدام القبط فى دواوين العاصمة وفى الولايات ، وربما قبض عليهم[1] . ومن ناحية أخرى نجد العامة من المسلمين يطالبون السلطان بعزل الكتّاب النصارى لقسوتهم عليهم[2] ؛ ففى إحدى المرات أغلق التجار حوانيتهم ، وتجمع منهم فى أحد الميادين عشرون ألفاً ، وصاحوا على السلطان صيحة واحدة : « لا دين إلا دين الإسلام » . ولكن دولاب العمل فى الدولة المصرية وقتئذ لم يكن يستطيع أن يستغنى عن كفاءة الأقباط ؛ بحيث أن السلطان لم يرض عن ثورة المسلمين ، وحارب العامة ، وصلب جماعة منهم ، وقطع أيدى بعضهم . ومع ذلك ، فالذى يدل على الطابع الإسلامى المتزايد فى عهد المماليك لموظفى الدواوين ؛ هو أنهم لا يذهبون إلى الدواوين فى يوم الجمعة ؛ إلا إذا كانوا من القبط[3] .

هؤلاء الكتاب كانوا يتبعون السلطة التنفيذية ؛ فكان السلطان يعين كبارهم بمراسيم ، ويتصل بهم عن طريق موظف اسمه : « مقدم الخاص »[4] ، أما الصغار فيعينهم الوزير أو كبار الكتّاب[5] . كذلك كان لكبار أرباب الوظائف الديوانية ألقاب شرف يمنحها لهم السلطان ، نميز منها على الخصوص لقب : « المَقَر » — الذى يُمنح أيضاً

(١) مفضل (P. O.) . ٢ ص ٢٣٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب ، ٣١ ورقة ٧ .

(٢) السلوك ، ١/٢ ص ٢٢٥ س ١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٦٨ (فى آخر الصفحة) .

(٤) صبح ، ٥ ص ٤٦٨ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ٧ .

للأمراء ـ حيث يشير ابن إياس وغيره من المؤرخين بهذا اللقب إلى كبار كتّاب الدواوين[١] ؛ كما كانوا يمنحون أيضا لقب : رئيس .

وكانت لهذه الطبقة ملابس خاصة ، تتميز بها عن غيرها من الطبقات ؛ فكان كبارهم يلبسو نوعاً من العمائم الكبيرة «بقيار»، مخططة « مرقوم » ، ولذا سُموا : « أرباب الوظائف من المتعممين » أو « أهل العمامة » [٢] ؛ ربما بسبب تميّزهم عن غيرهم بلبس عمائم ضخمة كما كان الحال فى العصر الفاطمى ؛ حيث كان يُطلق عليهم أيضاً : « أرباب العمائم[٣] » . وقد كان الكتّاب القبط يلبسون العمائم البيضاء ، ولكن فى وقت الاضطهاد يجبرهم السلطان على لبس عمائم ملونة ، مثل العمائم الزرق ، أما اليهود فيتميزون بلبس عمائم صفر[٤] . فقد كان اختيار الألوان المميزة لأهل الذمة تقليداً فى بلاد المسلمين .

وكان كبار الكتّاب ، يلبسون على أجسامهم[٥] ثوباً «فوقانى» ، من القطيفة الحرير ، الكمخا ، البيضاء — مثل الوزير — ، مطرزة بخطوط « رقم » الحرير ، ومحلاة بفرو « القندس » ، وشعر « سنجاب » ، وآخر « تحتانى » أخضر اللون ؛ وإن كان الصغار منهم تكون لهم كمية الفرو أقل ، ولا يوجد شعر ، واللون التحتانى يختلف . ولكن بعد ذلك صار الكتّاب يلبسون « جبة »

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٣ ـ ٤ ؛ صبح ، ٥ ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ؛ ١٠ ص ١٤ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٧٠ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٧٣ س ١٩ ـ ٢٠ ، ٣ ص ٣ س ٢٦ ـ ٢٧ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، مخطوط دار الكتب ، برقم ٢٤٧٦ ، ٢ ورقة ٢٧٧ ب ؛ النجوم (P) ، ٧ ص ٢٠٥ . عن كلمة « بقيار » ، انظر . Dozy : Suppl, I,p. 105 ؛ انظر . قبله .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٣٥٢ س ٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٠٢ ، ٢ ص ٦١ وهامش ٣ .

(٤) السلوك ، ٢/١ ص ٢٢٧ وحاشية ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب ، ٣١ ورقة ٧ ؛ ابن إياس ١ ص ١٤٣ س ١٣ ـ ١٤ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٧٠ . عن كلمة « الكمخا » ، و« مقندس » ، و« سنجاب » ، انظر . قبله .

أو « فرجية »[١] — مثل الوزير أيضاً — ، لها أكمام واسعة، وعليها رسوم « باذنجات » . كذلك لبسوا الطرحة على المنكب ، وهى من زىّ الوزير وغيره ومع أن المسلمين منهم يركبون البغال ؛ فإن القبط يركبون الحمير[٢] .

وكان الكتّاب يستلمون أرزاقاً شهرية من مالية وعينية[٣] ؛ إذ كانت الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى ترعى موظفيها ؛ فكان أعيان الكتّاب يستلمون مبلغاً قدره خمسون ديناراً ، ورواتب جارية من الخبز واللحم والتوابل والزيت والسكر والشمع والعليق للدواب وحتى الكسوة ، غير ما يقدم فى المناسبات والأعياد . وقد بلغت مرتبات موظفى الدولة المملوكية فى السنة حوالى أربعمائة ألف دينار[٤] ؛ مما يدل على عددهم الكبير .

وكان نظام اختيار الكتّاب هو النظام السائد فى العصور الوسطى ؛ ذلك بأن يكونوا من بين الأسر ، التى كان أفرادها يعملون من قبل فى الدواوين . فكان الكتّاب يتوارثون وظائفهم ، الابن عن أبيه ، والأخ عن أخيه ، وابن العم عن ابن العم[٥] . وقد اشترط على موظفى الدواوين وبخاصة الكبار منهم أن يعرفوا التركية ، بجانب معرفتهم الجيدة بالعربية ؛ وذلك ليتفاهموا مع طبقة الحكام وهم المماليك ، الذين كان أغلبهم يتكلم التركية .

☼

(١) عن ذلك . نفسه ، ٣ ص ٢٧١ س ١٢ ؛ العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوط (B·N) برقم ٢٣٢٥ ، ورقة ١٧٧ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٣ ؛ انظر . Syrie, XCIV; Demomb

(٢) صبح ، ٤ ص ٤٣ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ١٢ فما بعدها ؛ صبح ، ٤ ص ٥١ ؛ السلوك ، ٢/١ ص ١٦٥ . كان يوجد صنف من مرتباتهم يسمى اسنيمار ، الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ١١-١٣ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٦٥ س ٤ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٦٤ س ٢١ — ٢٢ .

وليس لدينا للأسف معلومات وافية عن نظام سير العمل فى الدواوين ، أو عن الجهاز الإدارى ، ولكنه يشبه فى مجموعه النظام الذى كان سائداً فى مصر من قبل ؛ ويتلخص فى الإدارة المركزية من **إنشاء ومالية** ، **وإدارة محلية** .

* * *

الإنشاء : الديوان — الوظفون — أعمالهم : المكاتبات — البريد — نظر المظالم .

هو أهم الأعمال الديوانية ، وكان الديوان القائم به منذ عصر الأيوبيين إلى العصر المملوكى يسمى : « ديوان الإنشاء »[1] ، بدلاً من « ديوان الإنشاء والمكاتبات » فى العصر الفاطمى[2] . فكان هذا الديوان يوجد فى القلعة ، وله قاعة خاصة مثل الوزارة وبجوارها ؛ تُعرف باسم : « قاعة الإنشاء »[3] .

وتنظيم هذا الديوان صورة من تنظيم ديوان الإنشاء الفاطمى ، الذى تطور فى عهد الفاطميين تطوراً يكاد يكون تاماً ، بسبب أنهم جعلوا مصر قلب العالم الإسلامى . وقد استمر ديوان الإنشاء فى عهد المماليك فى مستواه العالى ، الذى وصل إليه فى العهد الفاطمى ؛ وذلك لأن مصر استمرت تدير دفة السياسة الإسلامية . بل زاد فى نشاطه عن ذى قبل ؛ بسبب اتصالات المماليك الكثيرة بملوك الفرنجة والمغول ؛ مما لم يحدث على نطاق واسع قبلهم .

ويمتاز هذا الديوان بنظامه البيروقراطى الصرف . فكان رئيسه من

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٦٦ فما بعدها ؛ صبح ، ١ ص ٩٧ فما بعدها ؛ زبدة ، ص ٩٨ فما بعدها ؛ القصد ، ورقة ا فما بعدها ؛ انظر . Bjorkmann :
Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im Islamischen Aegypten. Hambourg. 1928, p. 36 sqq.

(٢) الخطط ، ٢ ص ٢٤٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٠٤ فما بعدها .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٢٣٣ س ٥ ، ٣٦٦ س ٢٤ .

قلم — وهو عادة من المصريين — يتلقب : « بصاحب ديون الإنشاء»
اتب الدست» — كما فى العصر الفاطمى — لكتابته على الدست —
درج — بين يدى السلطان ، لا سيما عند النظر فى المظالم ، الذىهو
عمله . كذلك غلب عليه منذ قلاوون [١]، تسميه : « كاتب السر » ؛
« كاتم السر » ؛ لأنه بطبيعة الحال يكتب أسرار الدولة أو يكتمها .
لك ، كان يسمى : « ناظر أو صاحب ديوان الإنشاء »، أو حتى «ناظر
الإنشاء بالممالك الإسلامية » ، بسبب إشرافه على دواوين الإنشاء
لك الإسلامية ، التى تخضع للمماليك . والواقع أن عمله الهام جعله
رفيع مثل الوزير يسمى « رتبة »[٢]، كما أن له لقباً يتميّز به ، هو :
الأشرف[٣] » . ولأهمية منصبه ، كان يحلف عند توليته يمينا أمام
[٤]. كذلك كان له نائب اسمه : «نائب كاتب السر» ؛ وإن كان منصب
ئب ليس دائماً ، وعمله أن يتصرف فى كل ما يتصرف فيه كاتب السر[٥].
ان تحت يده كتّاب عديدون ، وهم على نوعين : بعضهم يقومون
ران بالكتابة الرئيسية ، ويسمون : « كتّاب الدست أو موقعى
» ؛ لأنهم كانوا يصطحبون السلطان — ومعهم رئيسهم — ويجلسون
السلطان فى دسته أى مرتبته — لاسيما عند النظر فى المظالم[٦]، الذى
من أعمال ديوان الإنشاء — ولدينا تقليد لأحدهم يبّين واجباتهم
[٧] . ولقد أصبح لهم رئيس من أعيانهم ، ينقل إليهم ما يريد كاتب
نائبه[٨] . فنرى منهم من يتخصص فى عمل من أعمال الكتابة[٩] ؛

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٣١ س ٢٣ فا بعدها ؛ صبح ، ١ ص ١٠٤ .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٧ س ١٨ ؛ صبح ، ١ ص ١٠١ س ٥ .
(٣) أنظر « Corpus, I, p 506 – 507 .
(٤) صبح ، ١٣ ص ٣١٠ .
(٥) المقصد ، ورقة ١١٢ ا .
(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ ؛ صبح ، ١ ص ١٣٧ .
(٧) صبح ، ١١ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥ .
(٨) المقصد ، ورقة ١١٦ ا . بلغ عددهم عشرين . انظر . نفسه ، ورقة ١٣٤ ؛
Syrie, LXIX, n (3) : Demomb.
(٩) نفسه ، ورقات ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ ؛ زبدة ، ص ١٠٠ س ٨ .

فكان يلقى إلى الواحد منهم الكلمة الواحدة أو المعنى المفرد فيبنى عليه الكلام الطويل ، كما أن منهم من يعرف بالضرورة اللغات الأجنبية مثل لغة الفرنجة ، ولا سيما التركية[1] ، لأن حكام المماليك ترك . فكان هؤلاء المتخصصون يقومون بالمكاتبات الصادرة للملوك شرقاً وغرباً ، بما فيهم ملوك الكفر ، وتعريب الكتب الأعجمية — وإن وجد التراجمة الذين يعربون[2] — وبمهمات الديوان من التقاليد والتفاويض ، وما ينشأ من الأمور المهمة من البيعات والعقود ومنشورات الإقطاع ، ونحو ذلك .

والبعض الآخر يسمون : كُتّاب الدرج أو موقعى الدرج[3] ، نسبة إلى الدروج جمع الدرج ، وهو الورق المستطيل المتصل ببعضه ، الذى يستعملونه فى الكتابة ، وهم أقل درجة من الأوائل ، ويقومون بالمراجعة والتلخيص ، أو مايعين لهم من صغار الكتابات . وقد كثر عدد كُتّاب الدرج فى عهد المماليك ، حتى بلغ عددهم مائة وثلاثين كاتباً ، مع أن عددهم فى أيام الفاطميين والأيوبيين قليل[4] . ولكثرتهم ، جعل معهم من يشرف عليهم ، ويسمون الُمدرا — لعلهم المديرون — الذين يمرون على بيوتهم ليجمعوا منهم ما يراد لديوان الإنشاء .

وفوق ذلك ، كان يوجد كاتب مفرد عمله أن يسجل مسودات لكل ما يرد إلى الديوان أو يصدر عنه ، فى دفتر مخروم من وسطه بخيط[5] . فكان يبدأ فيه بالكتابة بتاريخ اليوم من الشهر إلى أن ينتهى الشهر ، وتترك ورقة بيضاء حاجزة عنه وعن الشهر الذى يليه إلى آخر السنة ، ثم يتخذ دفتراً غيره فى كل سنة ؛ فكان هذا الدفتر أشبه بالأرشيف .

---

(١) زبدة ، ص ٩٩ .

(٢) المقصد ، ورقة ١٨ ب ، ورقة ١٠٣ .

(٣) نفسه، ورقات ١٠٩ ا — ب؛ ١١٨ ا ؛ صبح ، ١ ص ١٣٨ ؛ زبدة ، ص ١٠٠ .

(٤) نفسه ، ورقة ١٢٠ ؛ نفسه ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٦٨ ص ٢٠ — ٢١ .

(٥) المقصد ، ورقات ١٢٠ ا — ب ؛ انظر . Bjork : Beit, p. 39.

وقد كان عمل هذا الديوان يتلخص فى ثلاثة أمور : المكاتبات ، والبريد، والنظر فى المظالم .

المكاتبات :

إن المكاتبات الخاصة بمصر وما يتبعها وحتى الخارج ، شملت العمل الرئيسى فى الديوان . وقد كان لإنشاء المكاتبات التى تصدر عنه صيغة معينة بالنسبة للجهة المرسل إليها . وهذه المكاتبات نفسها لها أسماء مختلفة ، مثل[١] : مناشير ، وتواقيع ، وتقاليد ، ورسائل ، وكتب ، ومكاتبات ، وملطفات ؛ وإن غلب عليها اسم : المرسوم أو المرسوم السلطانى ، بينما غلب عليها فى عهد الفاطميين اسم : السجل[٢] . وفى هذه المكاتبات يذكر السلطان عادة اسمه وألقابه وألقاب أبيه إذا كان ملكاً مثله[٣] ؛ وإلا اكتفى باسمه وألقابه ؛ وإن كان أحياناً يكتفى بذكر حرف واحد من اسمه ؛ فالسلطان الأشرف خليل كان يذكر حرف الخاء فقط للدلالة على اسمه[٤] . كذلك كانت المكاتبات تخرج من هذا الديوان وعليها أيضاً علامة السلطان ، التى هى عبارة دينية ، مثل : « الله أملى » ، تقوم مقام خط السلطان ، وتعطى المكتوب الصفة الرسمية ، والذى أوجدها هو السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، وقلده فيها السلاطين بعده ؛ حيث كانت تكتب بقلم خاص ، يسمى قلم أو أقلام العلامة[٥] ، أى أنها تكتب بنوع خاص من الخط ؛ وإن لم يمنع هذا أن يكتب السلاطين أحياناً بخط يدهم مايريدون من إضافات بين السطور «حشو» للدلالة على اهتمامهم[٦] . ومثل هذه العلامة فى المكاتبات،

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٦١ س ١٩ — ٢٠ ، ٢٣ ؛ صبح ، ٣ ص ٢٦٢ س ٩ ، ٤٣٩ س ١٤ — ١٥ .

(٢) صبح ، ١٣ ص ١٣٢ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٣

(٤) ابن اياس ، ١ ص ١٢٨ س ٣ .

(٥) المقصد ، ورقة ١٢١ . مثل قلم الطومار . زبدة ، ص ١٠٢ .

(٦) ابن اياس ، ١ ص ١٢٢ .

جرى عليها معظم حكام المسلمين فى العصور الوسطى ، حيث أطلق عليها أيضاً أسم : الطغرى جمعها طغراوات ، ربما نقلاً عن الأيوبيين الذين نقلوها عن السلاجقة ، وإن أهملت هذه الكلمة فى عهد المماليك[١] . وقد كان لكل صنف من هذه المكاتبات صيغة متداولة ، فمثلاً فى المناشير[٢] وهى مكاتبات الإقطاع ، أى الأرض المقطوعة للارتزاق من خيراتها ، يقال : خرج الأمر الشريف أو العالى ، بينما فى تقاليد الموظفين ورواتبهم ، يقال: رسم الأمر الشريف ... وهكذا . كذلك إذا أراد السلطان تكريم شخص كتب إليه : أخوه فلان ، وإذا أراد إظهار التواضع كتب : من عبدالله أو من عبدالله وولّيه[٣] .. وهكذا . هذا بالإضافه إلى ماجرى عليه الكتاب من إفتتاح مكاتباتهم : بالحمد لله ، أو بأما بعد ، حمداً لله . . .

وقد كانت كتابة الألقاب والصفات والنعوت تكون جزءاً هاماً فى إنشاء المكاتبات[٤] . ومن الملاحظ أن الألقاب فى الدولة المملوكية كانت مبتذلة لا يهتم بها ، ولم يبدأ الاهتمام بها إلا منذ عهد السلطان الأشرف خليل[٥] . ومع ذلك فقد بقيت الألقاب وصفاتها لا قيمة لها ، تعطى غالباً

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٤٣ ، ٣٦٧ — ٣٦٨ ؛ صبح ، ١٣ ص ١٦٢ — ١٦٧ ؛
Histoire de l'organisation Judiciaire en pays, : Tyan d'Islam. Paris, 1938 - 1943, 2,p. 132.

(٢) عنها على الخصوص ، صبح ، ١٣ ص ١٦٢ فما بعدها .

(٣) القصد ، ورقة ١٠٤ ا .

(٤) صبح ، ٥ ص ٤٩٣ فما بعدها ، ٦ ص ٥ فما بعدها ، ١٣ ص ٢٨٣ — ٢٩٣ ؛ انظر .
: Demomb ; Corpus, I, 76, 441 - 453 : Van Berchem Syrie, LXXX sqq ؛ حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ؛ أنستاس مارى الكرملى ، ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب ، بحث فى

(٥) ابن عبد الظاهر ، الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ، نشر وتحقيق ، ٣ ص ٣٦ — ٣٨ .

بدون تدبير ؛ وهي مختلطة بين رجال الدولة بما فيهم السلطان . وهي قسمت بوجه عام إلى : « أصول » و « فروع » ؛ حيث الأصل هو اللقب الرئيسي ، بينما الفرع هي توابع وأوصاف[1] . ويبدو أن السلطان كان يحتفظ بأكبر عدد من الألقاب ، مثل : الحضرة ، والمقام ، والمقرّ ، والمجلس . . . الخ ؛ هذا غير ألقابه المعروفة ومن ألقاب أسرة السلطان : « سيدي » لابنه ، وجمعها « الأسياد » ، وأولهم وحده هو الذي كان يُطلق عليه : « الأمير[2] » . أما الزوجة أو الأم أو الأخت ، فتلقب « بخوند »[3] — جمعها خوندات — وهي كلمة تركية . أو « بخاتون »[4] — جمعها خاتونات أو خواتين — وهي كلمة عربية محرفة عن الكلمة المغولية « قادين » ؛ وذلك دون لقب « الملكة » ، الذي كان في عهد الفاطميين[5] . ومن ألقاب أمراء المماليك والموظفين : « المقرّ » للأمراء الكبار ، و « الجناب » لأمراء الطبلخانات — وهم نوع من الأمراء — ، و « المجلس » لأمراء العشرات — نوع آخر من الأمراء — ، و « المقام » للمملوك العادي ، وكذا « الجانب » لولي عهد الخليفة ، و « المقرّ » أو « الجناب » للوزير وكبار الكتّاب ، و « المقرّ » أو « المجلس » للقضاة . كما توجد

---

(١) صبح ، ٥ ص ٤٩٣ ؛ انظر . الباشا ، الألقاب ، ص ١٠٦ .

(٢) زبدة ، ص ١١١ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢٣١ س ١٩ — ٢١ ، ٣١٤ (قبل آخر الصفحة) .

(٣) زبدة ، ص ١٢١ ؛ انظر .
Quat : Sult. Mamel, trad 1ère, p. 64 n. (96) . تستخدم أيضاً للرجال.

(٤) عن كلمة خاتون ، انظر . القصد ، ورقة ٨٦ ؛ الباشا ، الألقاب ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ Ency. (art Khâtùn) t2, p. 987.

فمثلا لقب والدة أحد السلاطين : الجهة ، الشريفة ، العالية ، السيدة ، الوالدة ، الخاتون ، المعظمي ، المحجبة ، الخوند الكبرى ، ذات الحجب المنيعة ، والأستار المسبلة الرفيعة ، سيدة نساء العصر والأوان ، ملكة ذوات الحجاب من أهل الزمان ، سليلة العظماء والأكرمين ، والدة الملوك والسلاطين . القصد ، ورقة ٨٦ .

(٥) مثلاً : السجلات المستنصرية ، تحقيق ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ ، سجلات : ٣٥ و ٤٣ و ٥١ و ٥٢ .

ألقاب أخرى لمختلف الموظفين ، وقد يضاف فيها « الدولة » للمسيحيين ، و « الدين » للمسلمين[1] . هذا فضلاً على صفات ونسب متنوعة تصحب كل لقب ، مثل : العالى ، والسامى ، والشريف ، والأشرف ، والسنية ، والكريم ، والصالح ، والملكى ، والمولوى ، والأجلى ، والقاضوى[2] . كذلك توجد نعوت متعددة فى المخاطبة ، مثل : « جعل الله كلمته العليا » للملوك العرب ، و « دوام البهجة » للملوك الأجانب[3] ، إلى غير ذلك . . .

البريد :

وهذا النظام[4] أصله غير معروف ، بسبب الاختلاف فى معنى كلمة بريد ، التى قد يكون أصلها من اليونانية «Beredos» ، أو من اللاتينية «Veredus» بمعنى خيل ، أو من الفارسية « بريده دم » ، ومعناه مقصوص الذنب كناية عن استخدام الفرس البغال فى نقل رسائلهم وقص أذنابها ، أو حتى من العربية « بَرَدَ » ، وأصبحت كلمة بريد تعنى الدابه ، ثم المسافة المعلومة « وهى أربعة فراسخ[5] » . وقد أخذ الأمويون هذا النظام ، وصبغوه بالصبغة الإسلامية ، ثم تطور على يد العباسيين ، ونقله الفاطميون وزادوا فيه ، كما نسمع بأن نور الدين زنكى كان له نظام بريد متقدم . ولا ريب أن الحروب الهائلة ضد الصليبيين فى عهد الأيوبيين ، وضد المغول فى أوائل عهد المماليك ،

---

(١) صبح ، ٥ ص ٤٨٨ — ٤٨٩ ، ٦ ص ٤٩٠ — ٤٩١ .

(٢) نفسه ، ٦ ص ٢٣ فما بعدها ، انظر . الباشا ، الألقاب ، ص ١٠٠ فما بعدها .

(٣) المقصد ، ورقة ١١٠٤

(٤) صبح ، ١٤ ص ٣٦٦ — ٣٩٧ ؛ الخطط ، ١ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ ، ٣ ص ٣٤٣ ، العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ ، ص ١٨٤ فما بعدها ؛ Sprenger: Die Post - una Reiserouten des Orients. Leipzig, 1864. La poste aux Chevaux dans l'empire des Mamelouks;: Sauvaget; ;Ency. (art Barid) I, p.675; 2 ed. t,I p 1077- 1078.: Paris, 1941. ; (art Baybars) 2ed, tI. 1159.

(٥) المقصد ، ورقة ١١٠١ .

قضت على تقدم هذا النظام وأوقفت تطورة ؛ وإن عرفنا بأنه كان للمغول نظام بريد متقدم . ولكن هذا النظام ما ابث أن ظهر فى مصر فى عهد السلطان بيبرس بشكل لم يُعرف به من قبل ، وحدد لتمام ظهوره على يده فى عام ٦٥٩[1]/١٢٦٠ — ١٢٦١ . فقد جعله بيبرس نظاماً سلطانياً ، وسماه البريد المنصور ، وجعله يتناول أموراً عديدة ؛ كنقل المراسلات الإدارية والديبلوماسية والأوامر الحربية ، وإرسال الأمراء إلى السجن ، وأخبار السرقة وجرائم القتل ، وكل كبيرة وصغيرة . فكان هذا النظام يدخل فى اختصاص رئيس ديوان الإنشاء .

وقد عرف نظام البريد فى عهد المماليك أنواعاً . منها : البريد بواسطة الخيل ، وهو ما عُرف بخيل البريد ، وكان موجوداً فى عهد الفاطميين بين مصر والشام[2] . ولكن فى عهد بيبرس وخلفه نُظم تنظيماً دقيقاً : فقد جُعل لخيل البريد اصطبل خاص عُرف باسم : اصطبل البريد[3] . يشرف عليه سواس — مفردها سائس — برسم خدمة الخيل فيه . وسُواق — مفردها سواق أو سائق — يركبون مع من رسم بركوب خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة سيره ، يشرف عليهم أمير آخور البريد[4] . وهى غير اصطبلات السلطان التى يشرف عليها أمير آخور آخر ، يكون الأول تابعاً له[5] . وهذه الخيل لا يسمح بركوبها إلا فى نقل البريد . وفى حالات نادرة بمرسوم

(١) يقول ابن اياس ، [١ ص ١٠٨] فى سنة ٦٦٩/١٢٧٠ .

(٢) عنه ، انظر . ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق Amedroz ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ٦٠ ، انظر ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١١٠ .

(٣) زبدة ، ص ١٢٥ .

(٤) صبح ، ١ ص ١١٤ — ١١٥ ، ٤ ص ١٨ — ١٩ ، انظر . Suavaget : Op. cit, p 49.
هى كلمة مركبة من لفظين أمير وهى عربية ، وآخور فارسية ، بمعنى أمير العلف . صبح ، ٩١ ص ١٧٠ .

(٥) صبح ، ١١ ص ١٧٢ س ٣ .

سلطانى ؛ وحتى الولاة فى الأقاليم لا يستطيعون ركوبها إلا بإذن السلطان[١] ؛ كما أن الخيل تدمغ بعلامة ربما نقلاً عن نظام مغولى[٢].

أما الذى يحمل البريد، فيسمى بَريدىّ، وله رؤساء يسمون: مقدمى البريدية[٣]. ولا يبدو أن البريدى كان يحمل فقط مكاتبات ، وإنما يكون أيضاً أشبه بالرسول لمن يرسل إليه، بدليل وصف القلقشندى له بأنه يجيد تنميق الكلام[٤]. ويوجد السعاة الذين لهم نقيب ، ربما هم الذين يحملون ما يتعلق بالبريد إلى الجهات المختصة إذا لم يقم بها البريدى . وكان البريدى يحمل علامة خاصة يتميز بها ، عبارة عن لوحة مدورة ، منقوش على أحد وجهيها عبارات دينية ، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان أو نائب المملكة المتوجه منها ، فهى أشبه بالعملة المنقوشة الخاصة بالدولة ، التى عليها عبارة دينية واسم السلطان أيضاً ، ومكان نقشها ؛ مما يبين طابعها الحكومى . فكان البريدى يجعلها فى شرابة من الحرير الأصفر فى عنقه ؛ إذا الأصفر هو لون أعلام السلطان ؛ ليتميز عن لون شعار الخليفة الأسود . ففى إحدى هذه اللوحات ، نجد هذه الصيغة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهرهَ على الدينُ كلّه ولو كره المشركون ، ضرب بالقاهرة المحروسة ، وعلى الوجه الآخر : عِزّ لمولانا السلطان الملك ، سلطان الإسلام والمسلمين[٥] .

ومثل هذا النظام فى حمل لوحات البريد وجُد أيضاً عند المغول ؛ وعُرفت باسم : "بيزة « Faïza »[٦]. فكانت هذه الألواح تحفظ عند رئيس الديوان،

---

(١) السلوك ، ٢/١ ص ١٨١ .

(٢) أنظر . Sauvaget : Op. cit, p. 13 - 14(n. 45).

(٣) المقصد ، ورقة ١٠١ ؛ زبدة ، ص ١١٥ . يقول ابن شاهين مقدم البريدية .

(٤) صبح ، ١ ص ١١٦ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١١٤ ، ١٤ ص ٣٧١ .

(٦) Marco Polo Livre 2, p. 350 sqq ؛ انظر . Sauvaget : Op. cit, p. 49 n. (205).

الذى يدفعها للبريدى ، الذى يتسلم أيضا الخيل من الاصطبل ؛ مما يتّبين ان هذا النظام تحت إشرافه مباشرة . كذلك كان البريدى يحمل سيفاً بالضرورة للدفاع عن نفسه ، إذا حاول العربان الهجوم عليه فى الطريق .

وقد انشئت لخيل البريد طرق بين مصر ودمشق ، امتدت على ما يبدو حتى وصلت إلى جبال طوروس ، بعد خروج الصليبيين من الشام ؛ فضلاً عن وجود الطرق الداخلية فى كل من القطرين . وفى سبيل شق الطرق مُهدت الأرض ، ووضعت الكبارى على الأنهار ؛ لعبور خيل البريد . فكان شق هذه الطرق يساعد أيضاً على سهولة تحركات الجيوش . وعلى طولها وجدت محطات « مراكز » لاستراحة الخيل ، فيها خيول جديدة ، ومن يخدمونها ، وسواقين ، وما يحتاج إليه المسافرون من زاد وعلف ، وغير ذلك . فنسمع عن شد مراكز البريد[1] وواجباته ، وعن الناظر الذى رُبما يرأسه . ولا تزال آثار الطرق والمراكز البريدية فى الشام توجد إلى الآن . ونتيجة لهذا التنظيم ، كان الخبر يصل من قلعة الجبل فى القاهرة إلى دمشق فى أربعة أيام ، أى أن أخبار الشام تصل إلى مصر مرتين أسبوعياً .

ولكن على ما يبدو أهمل هذا المرفق فى الشام ، بسبب غزو تيمور لنك — زعيم المغول — حتى حدد لخرابه تاريخ ٨٠٣/١٤٠٠[2] ، فى أيام السلطان فرج بن برقوق . ومع ذلك ؛ فإن نقل البريد أصبح بالأولى عن طريق الجمال أو النجب أو الهجن ؛ حيث يكون الانتقال من بئر إلى بئر ، وهو نظام عُرف أيضاً من عهد الفاطميين[3] ، ومن يقوم به يسمى هجاناً . وقد كان يوجد بالقاهرة — اصطبل خاص —

---

(١) صبح ، ١ ص ١١٦ ، ٤ ص ١٩١ . عن تقليد شاد مراكز البريد ، انظر . نفسه ، ١٢ ص ٣٠٦ فما بعدها ؛ انظر . Syrie, p. 209. : Demomb

(٢) ابن إياس ، ١ ص ١٠٨ س ١١٤ .

(٣) الخطط ، ١ ص ٣٤٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١١٠ .

بها ، يُعرف بالمناخ — جمعها مناخات —[1] ؛ وبلغت أعدادها فى زمن برقوق خمسة عشرة ألف جمل[2] .

كذلك عرف البريد بحمام الرسائل[3] ، وهو وسيلة للبريد عُرفت عند شعوب الأرض قديماً ووسيطاً ؛ إلا أنه تطور تطوراً هاماً فى عهد المماليك . وكان له محطات تشبه مراكز بريد الخيل ، سميت بروج الحمام ؛ وإن كانت على مسافات أبعد من مراكز بريد الخيل . وكانت قلعة القاهرة هى المركز الرئيسى لشبكة حمام الرسائل ، وتصل خطوطها إلى قُوص فى الصعيد ودِمياط والإسكندرية ، كما قد تتشعب إلى نيابات الشام حتى الفرات . ومع ذلك ؛ فإن الحمام لم يكن يتعدى مراكزه ؛ فإذا أرسل الخبر إلى المركز ، نقل ما بجناحه إلى جناح طائر آخر .

وكان لحمام الرسائل ديوان فيه جرائد تثبت فيها أنسابه ، وقد بلغ عدد الحمام فى وقت ما تسعمائة وألف طائر . وكان يشرف عليه فى كل هذه البلاد رجال متخصصون يسمون : براجين ، ولكل برج رئيس : مقدم ، ومنهم الخدام تحت تصرفهم البغال لحمل مايخص الحمام والبراجين القائمين به من طعام .

وكانت الرسائل التى يحملها هذا الحمام من ورق خفيف يسمى : بطائق أو ورق الطير ، تحمل تحت جناح الحمام لحفظها من المطر ، ثم حملت بعد ذلك فى الذنب . وكان يكتب فى هذه الأوراق أمور مختصرة من لب الكلام من غير حشو ، وتؤرخ بالساعة واليوم ، ولا داعى للسنين . وحرصاً على وصول الرسالة ، كانت الرسالة تكتب من صورتين ترسلان مع حمامتين ، تُطلق إحداهما بعد الأخرى[4] . كذلك كان الحمام يصبغ بلون أزرق كلون السماء حتى

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٢٨٥ س ١٤ ؛ زبدة ، ص ١٢٥ — ١٢٦ ؛ المقصد ، ورقة ١١٠٢ .

(٢) عن عددها ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ س ٢٣ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٤٣ ، ٣٧٥ — ٣٧٧ ؛ صبح ، ١ ص ١١٨ — ١١٩ ، ١٤ ص ٣٩٢ فما بعدها ؛ زبدة ، ص ١١٧ .

(٤) صبح ، ١ ص ١١٨ .

لا يرى ، أو يطلى بالسواد لكى لا يراه العدو إذا أطلق بالليل . كما تُميّز الحمامة بعلامة « داغات[1] » ، فى أرجلها أو على مناقيرها ، أو تعفّر بالروائح . وكانت الرسالة إذا مرت بمركز ما ، كتب الوالى بمرورها إلى أن تصل مختومة .

أما إدارة « قلم مخابرات الدولة » ، فإنها كانت تحت إشراف صاحب ديوان الإنشاء أيضاً ، الذى كان يختار من الأجناد من يثق فيهم ، ويُعلم الصدق واليقظة والذكاء والدربة بالأمور ومعرفة الأسفار ، وهم يتشبهون غالباً بأشكال البلاد التى يرسلون إليها ، وقد أطلق عليهم حاملو الملطفات[2] .

وقد كان يوجد موظف خاص بالقلعة اسمه : الدّوَادار[3] أو الدويدار ، أى حامل الدواة — أشبه بصاحب الرسالة فى العصر الفاطمى — يكون من أمراء المماليك ، عمله تبليغ السطان مايرد من البريد ، أو يحمل أوامره إلى أصحاب الشأن . ولكثرة مهام السلطان ، وجد عدة موظفين بهذا الاسم ، فيسمى الواحد منهم الدودار الثانى والثالث إلى عشرة[4] ؛ وإن كان يرأسهم الدودار الكبير . كما يوجد لهذا الأخير نائب يسمى : حامل المزرة[5] ، سُمى هكذا على اسم « المزرة » ، وهى فوطة من قماش مخرّز ببطانة ، عليها علامة السلطان ، تُوضع فيها الأوراق التى يراد تبليغها من بريد وأوامر .

وكان هنالك رسم معين لعرض البريد على السلطان[6] ، فكان الدودار يدخل على السلطان بالبريدى ، فيقبل البريدى الأرض ، ويأخذ الدودار الكتاب

---

(١) هى كلمة فارسية ، انظر . Suppl, I, 476 : Dozy

(٢) المقصد ، ورقة ١٠٢ ب ؛

(٣) نفسه ، ورقة ١١٨ ؛ صبح ، ٥ ص ٤٦٢ ؛ الخطط ، ٣ ص ١٦١ — ٣٦٢ .
هو مركب من لفظين : أحدهما عربى وهو الدواة ، والثانى فارسى وهو دار ، ومعناه حامل كما تقدم . وظيفته هى « دودارية » . انظر . Suppl, I, p. 469 : Dozy

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ٤٠ ؛ ٤١ ص ١٦ — ١٧ .

(٥) المقصد ، ورقة ١١٩ ا ؛ Sult, I, p. 219 ; Quat

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٤٣ .

يمرره على وجهه ، ويمسحه بوجه البريدى — ربما للتأكد[١] — ثم يناوله للسلطان ليفتحه ، ويجلس كاتب السر يقرأه ، ويخرج كل من كان موجوداً . أما بالنسبة لبريد الحمام ؛ فإن الذى يحمله إلى السلطان هو البرّاج ؛ وإن كان كاتب السر هو الذى يقرأ البطاقة .

النظر فى المظالم :

كان النظر فى المظالم — وسنتكلم عنه بالتفصيل فيما بعد — يكون قسماً كبيراً من أعمال ديوان الإنشاء[٢] . فقد كان رئيس ديوان الإنشاء ومعه كتّاب الدست — وهم الموقعون أيضاً — يحضرون مع السلطان أو من ينوب عنه ، جلسات النظر فى المظالم . فى مكان خاص بالقلعة يسمى : «دار العدل» ؛ ليقرأ عليه القصص — مفردها قصة — وهى المظالم ؛ التى يحملها الدودار إلى المجلس[٣] . وهذه المظالم إذا لم يكن يقرر فيها برأى أثناء وجود السلطان أو من ينوب عنه ؛ فإنها تُحمل بالضرورة إلى ديوان الإنشاء لبحثها ، ومن هناك ترسل إلى الجهات المعينة بقصد التنفيذ ؛ فيقال يوقع بذلك أو يوقع بكذا وكذا ، أو رُسم بكذا ، أو يحتاج الأمر إلى كذا ، أو يتوجه إلى جهة كذا . ويكون هذا التوقيع من قبل رئيس الديوان ، إما بمراجعة السلطان فى جلساته ، أو بغير مراجعة[٤] .

المالية : الدواوين — الموارد العامة — الدخل الخاص — بيت المال — السكة .

لاشك أن الدولة المملوكية ، التى عاصمتها القاهرة قد تعقّد تنظيمها المالى ، بخاصة وأن هذه الدولة اتسعت حدود امبراطوريتها ، وتضخمت شئون ماليتها .

(١) يقول : Sauvaget : [Op. cit, p 45] ، للبركة .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٣٩ ؛ القصد ، ورقة ١٠٦ فما بعدها .
(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٦١ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٦٨ س ١٨ .

وكانت شئون المال من تحصيل وصرف لكثرتها توضع تحت رعاية عدة موظفين،على رأسهم : « ناظر الدولة[١] » ، أو مايسمى أيضاً : « ناظر النظار » أو « ناظر المال » ، أو « صاحب المال » أو « ناظر المملكة » ، ووظيفته تسمى : « نظر الدولة » ، أو « ديوان النظر » . وهو فى وظيفته يشارك الوزير فى التصرف فى الناحية المالية ويخضع له ؛ إلا أنه حينما لايوجد وزير[٢] ، أو يوجد وزير سيف لايعرف فى شئون المال ؛ فإن منصبه يصبح من أهم المناصب ؛ حتى أنه يُطلق عليه مثل الوزير : « الصاحب[٣] » ، وعلى وظيفته « الصحبة الشريفة » .

وكان يليه فى الأهمية موظفان ماليان كبيران ، يسمى أحدهما : « مستوفى الصحبة » ، والآخر : « مستوفى الدولة[٤] » ؛ وإن لم يكن من السهل تمييز عملهما الذى يتلخص فى ضبط كليات المال فى كافة المملكة فى الشام ومصر . وكان يعاونهما عدد من « المستوفين » ، منهم الكبار ، مثل : « مستوفى أصل » ، و « مستوفى مباشرة » ، لكل منهما أعمال مالية تخصه . ومما يدل على أهمية منصب « مستوفى الصحبة » أو « مستوفى الدولة » ، أن الأول يوصف بأنه « قطب » ديوان المال ، ويُطلق عليه « الصاحب » مثل الوزير أو ناظر المال ؛ وأن أحد السلاطين أطلق عليه أيضا : « وزير الوزراء[٥] » ، أما الآخر فإنه يعين بسجل مثل كبار رجال الدولة .

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ ؛ المقصد ، ورقات ١٣٤ ـ ١٣٥ ؛ زبدة ، ص ٩٨ ؛ صبح ، ٤ ص ٢٨ ـ ٢٩ ؛ ٥ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩١ ، ١٩٤ .

(٢) إذا لم يوجد وزير ، اتخذ « ناظر الدولة » ، موظفاً يقوم بعمله فى التحصيل والصرف اسمه « شاد الدواوين » . الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ٢ ـ ٣ .

(٣) ابن إياس ، ١ ص ٢٩٣ س ٢١ . إلى عهد قريب جداً فى مصر ، كانت كلمة « الناظر » ، تعنى الوزير .

(٤) صبح ، ٤ ص ٢٩ ـ ٣٠ . نص تعيينه فى : صبح ، ١١ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ . ليس من السهل إيجاد تفرقة بينه وبين مستوفى الصحبة . أنظر . Demomb : La Syrie, LX VIII - LXIX.

(٥) ابن إياس ، ١ ص ٢٩٣ س ٢٢ ـ ٢٣

كذلك يوجد فى ديوان المال كتاب آخرون مساعدون، مثل[1]: «العامل»، الذى ينظم الحسابات، و «الصيرفى»، الذى يتولى قبض المال وصرفه بمعاونة الصيارفة، و «صاحب الديوان»، الذى يقوم بعمل الأرشيف «ترتيب الدرج».

وكانت موارد الدولة المماليكية نفس الموارد للدول الإسلامية السابقة فى مصر، وأهمها يأتى من الأرض وما يُفرض عليها، وهو ما سمى: «بالخراج[2]»، وهى لفظة عُرفت منذ أيام الإسلام الأولى؛ لتعنى الذى يُستخرج من الأرض لصالح الدولة من مال وعين.

وقد أصبحت أرض مصر نتيجة لحكم الطبقة المماليكية أشبه بملكية خاصة لهذه الطبقة، توزع عليهم على حسب درجاتهم من السلطان إلى أصغر مملوك بقصد استغلالها. وليس ملكيتها التى تكون للدولة. وقد مُسحت مصر فى عهد المماليك مرتين على الأقل[3]، وكتبت قوائم بمساحة البلاد وأسمائها، الأولى فى عهد السلطان لاجين فى عام ٦٩٧ / ١٢٩٧ - ٨؛ والثانية فى عهد السلطان الناصر فى عام ٧١٥ / ١٣١٥ - ١٣١٦؛ حيث عُرفت هذه الأخيرة بالروك الناصرى. وكان مسحها بقصبة تُعرف «بالحاكمية»، — وهى المقياس للأرض، الذى عُرف فى أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله — فتقسم الأرض إلى مربعات أو مثلثات أو مدورات أو مقوسات أو مطبلات، وهذه الأخيرة مفردها مطبلة، وهى ذوات الأضلاع الكثيرة. كذلك قد تقاس بالفدان، وهو مقياس ظهر بكثرة وقت المماليك[4].

---

(١) صبح، ٥ ص ٤٦٦.

(٢) نفسه، ٣ ص ٤٥٢ - ٤٥٤؛ ١٣ ص ٥٤ فما بعدها؛ الخطط، ١ ص ١٦٦؛ انظر.

L'Organisation financière de l'Egypte, sous : Michel les sultans mameluks d'après Qalqachandi. in Bull de l'Inst. d'Eg, tVII, Le Caire, 1926.

(٣) الخطط، ١ ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤) صبح، ٣ ص ٤٤٦ - ٤٤٧؛ ابن مماتى، قوانين الدواوين، تحقيق سوريال عطية، مصر ١٩٤٣، ص ٢٧٩ فما بعدها. هذا الأخير كان يقاس بقصبة أخرى أطول من قصبة الحاكم قليلاً.

وقد كانت الأرض تقسم عموماً إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، منها أربعة للسلطان ، وعشرة للأمراء ، وعشرة للجند ؛ وإن زاد بعض السلاطين حصتهم مثل السلطان لاجين ، الذى جعلها ثلاث عشرة قيراطاً للسلطان . كذلك لم تكن هناك قاعدة ثابتة للتوزيع ؛ إلا بحسب رغبة السلطان .

وقد كان استيلاء المماليك على خراج أرض مصر ، هو ما عبر عنه بالنظام الإقطاعى [١] . وهو ليس نظاماً جديداً نشأ فى عهد المماليك ؛ فقد كان من قبل فى عهد الفاطميين ؛ وإن كان كما لاحظ المقريزى ؛ فإن الإقطاعات — أو ما كان يسمى أيضاً بالأقاطيع [٢] — فى أول عهدهم كانت قليلة ، وزادت فى أواخره فى عهد وزراء التفويض ، وكان أصحابها من الأمراء والأجناد يسمون مقطعين . ولكن زادت الإقطاعات زيادة هائلة منذ عهد الأيوبيين ، الذين نقلوا تقاليدها عن السلاجقة ؛ حيث أن دولتهم نشأت على أنقاضها .

فلقد أصبح الإقطاع منذ وقتهم يعنى الرق للأرض ، حتى صار الفلاح عبداً قناً للناحية . وقد أطلق على الإقطاع فى عهد المماليك أسماء أخرى ، مثل [٣] : « عبرة » ، بمعنى دخل سنوى ؛ أو « خبز » جمعها « أخباز » ، لما فيه من معنى التعيش منه . وقد كان الإقطاع يعطى طول الحياة ولا يورّث ؛ بينما كان فى عهد الفاطميين لا تتعدى مدته ثلاثين سنة . والواقع أن هذا

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٤٨ ، ١٤١ فما بعدها ؛ صبح ، ٣ ص ٤٥٧—٤٥٨ ؛ انظر .
: Ency. (art Iktà') t2, p. 489 - 491
L'Evolution de l'iqtà' du IXe au XIIIe siècle. : Cahen
Contribution à une histoire Comparée des Sociétés médiévales.
Extrait Annales Economies — Sociétés Civilisations. Paris.
Classification of Lands in the Islamic law. : Poliak وأيضاً ؛
in American. J. of Semitic Languages, 1942. ؛ الباز العرينى ،
؛ الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك ، مصر ١٩٥٦ ؛ الإقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن السابع ، حتى القرن الثالث عشر الميلادى . دراسة مقارنة . حوليات كلية الآداب ، المجلد الرابع ، يناير ١٩٥٧ ؛ طرخان ، الإقطاع الإسلامى ، مصر ١٩٥٧ .

(٢) حوادث ، ص ٣٣٥ .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٤٢ س ٨ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ .

الإقطاع الخراجي عُرف عند الفقهاء بإقطاع الاستغلال ؛ فأجازوا إعطاءه لأهل الجيش مقابل ما هو مقرر من أرزاق [1] .

ولا يعني هذا أن أرض مصر كلها أصبحت إقطاعات لهذه الطبقة . ففي أواخر حكم الدولة المماليكية وجدنا مصريين فلاحين يملكون الأراضي، ومنهم أثرياء[2] . وربما يكون السبب في ذلك ظهور نظام المقايضة والتنازل « النزول » ، بأن يبيع المُقطع إقطاعه بالمال . فكانت العامة كما يقول المقريزي[3] — أي المصريون — تشتري هذه الإقطاعات وتتوارثها ؛ بما فيهم المسلمون والأقباط وأرباب الصنائع والحرف والموظفون . ولذلك ، فإن أرض مصر — بملاحظته أيضاً — ليست كلها إقطاعات ، وإنما بعضها ملك لأهلها . وحتى لا تضيع الأراضي من أيدي المماليك ، وجدنا الدولة تنشيء ديواناً سمته : « ديوان البدل[4] » ، أي أنها تدفع بدلا ، أي مبلغاً من المال للمقطع الذي يريد أن يتنازل عن إقطاعه .

ولا نعرف بدقة كيف كان استغلال هذه الإقطاعات . فربما يكون السلطان والأمراء من المماليك ، في أول الأمر ، هم الذين يستغلون الأرض لحسابهم وحساب مماليكهم وأجنادهم، وأن الفلاحين فيها أجراء . ولكن هذا الاستغلال المباشر لم يستمر ؛ وذلك لأن كبار المماليك كانوا مشغولين بالحروب ومشاحناتهم ؛ ولأن الأمراء الذين استغلوها لحساب من يتبعهم ، لم يكونوا يعطون هؤلاء كل استحقاقاتهم . ويحدد هذا التغيير في عهد السلطان لاجين [5] ، فقد أصبحت الدولة تشرف بنفسها على استغلال الأرض لصالح طبقة الجيش كلها بما فيها الأمراء والأجناد . فكان هذا

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، مصر ١٩٠٩ ، ص ١٧١ فما بعدها .

(٢) المقريزي ، إغاثة ، ط ٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) الخطط ، ٣٠ ص ٣٥٦ س ١٢ ، ٤ ص ١٢٦ س ٤ . أنظر : ابن حجر ، الدرر الكامنة ، حيدر آباد ، ط . ١٣٥٠ ، ٤ ص ٣٦١ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٥٦ س ٢ — ٨ ؛

(٥) نفسه ، ١ ص ١٤١ .

الاستغلال [١] — على أســاس تأجير الأرض للفلاحين ، فهؤلاء مستأجرون — هو ما أطلق عليه الخراج ، الذى كانت تأخذه الدولة نقداً وعيناً . ولذلك حددت الدولة فئة مالية ، لكل إقطاع تدفع للأمير ولمماليكه وجنده [٢] . وقد أتاح الاستغلال عن طريق الدولة ، أن الدولة تأخذ جزءاً من الخراج لإقامة الجسور بنوعيها ، الجسور السلطانية التى تعود على عامة الشعب ، والجسور البلدية التى تكون فى النواحى [٣] ، فضلاً عن حفر القنوات [٤] ، وإقامة القناطر ، وغير ذلك من العمائر المفيدة . وقد نقد أحد المؤرخين تدخل الدولة بقوله إن الإقطاع إذا استغله صاحبه ، فإنه يعود عليه بالخير أكثر مما تستغله دواوين الخراج ، التى لا تهتم به [٥]

وقد بقى نظام جباية الأرض كما كان من قبل فى تقاليد مصر الإسلامية ، مع تغيير يتلاءم مع ازدياد طابع الدولة الحربى . فلم نعد نسمع عن الضّمان والمتقبلين بالنسبة للأرض ، أى كبار المؤجرين — كما كان الحال قبلاً — مما يدل على أن الدولة استغلت الأرض من الفلاحين بدون وسيط وعلى العكس سمعنا عن عدد أكبر من الموظفين [٦] ، الذين أطلقتهم الدولة للحصول على الخراج ؛ وذلك على حسب السنة الشمسية [٧] . فنسمع عن « القياسين » أو « الماسح » [٨] ، الذين يقيسون المساحات ، و « الشهود

(١) إغاثة ، ط ٢ ، ص ٤٦ .

(٢) يقول ابن تغرى بردى مثلاً : الإقطاع ، الذى يعمل عشرة آلاف درهم . أنظر . النجوم (P) ، ٦ س ٤٢٨ س ٦ . أنظر . بعده .

(٣) صبح ، ٣ س ٤٤٨ — ٤٤٩ ؛ الخطط ، ٣ ص ١٦٨ فما بعدها ؛ ابن إياس ، ١ ص ١١١ — ١١٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ .

(٤) يوجد موظف اسمه : « شاد القنوات » . زبدة ، ص ١١٥ .

(٥) الخطط ، ١ ص ١٠٤ .

(٦) نفسه ، ١ ص ١٤٢ س ٢١ ، ١٤٣ س ٦ ، ٩ .

(٧) صبح ، ١٣ ص ٥٤ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٩ فما بعدها .

٥ كانت أهم القناطر هى الموجودة بالجيزة ، التى وصفت أنها من أعمال الجبارين . عبد اللطيف البغدادى ، الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة بالقاهرة ١٢٨٦ هـ ، ص ٢٣ . عن غير ذلك ، انظر مثلاً ما أنشأه بيبرس بالديار المصرية وأعمالها . ابن إياس ، ١ ص ١١١ — ١١٢ .

(٨) صبح ، ٥ ص ٤٦٦ .

العدول » — أى الرسميون - الذين يشهدون بصحة القياسات وغير ذلك، وحتى عن قاض اسمه « قاضى العمل » ، ربما يكون حكماً فى ذلك ، و « الكُتّاب » الذين يحررون المساحات المزروعة على أوراق تسمى « أوراق المسجل » ، وبعد نمو الزرع على أوراق مربوطة بإحكام تسمى « القُنداق » ، وتقدر قيمتها على بعضها فى أوراق هامة تسمى « المكافة » [1] ، و « الشاد » ، الذى يشرف على عملية جباية الخراج ، و « الجنود » ، وذلك لأن الجباية تحتاج إلى من عُرف بالحماسة وقوة البطش ، و « الكيالين » ، و « الشيالين » ، و « النواتية » ، الذين يحملون الغلال إلى القاهرة ثم هناك كُشّاف [2] — مفردها كاشف أو كاشف التراب — وكان بالوجه القبلى ثلاثة مقرهم الفيوم والصعيد الأدنى والصعيد الأعلى ، وبالوجه البحرى اثنان مقرهما الشرقية والغربية ، حيث كان يرأسهم جميعاً « كاشف الكشاف [3] » ، فهم يشرفون على أحوال الأراضى والجسور .

بعد ذلك ، توجد موارد أخرى تُعتبر الباب الثانى بعد خراج الأرض ، هى الجباية على الصادر والوارد ، وهو يتكون من عدد من الضرائب ، عُرفت فى ذلك العهد ، بالأسماء التالية : « المَكس » ، « العُشر » ، « الخُمس » ؛ وكانت جميعها تفرض على الإنتاج ، بعكس الخراج ، الذى يفرض على الأرض . وقد تميّزت ضريبة « المكس [4] » ، فى تاريخ مصر الإسلامية ، ولاسيما

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٥٨ . أقرأها « القنداق » ، وليس « الفنداق » ، بمعنى الربطة المحكمة ، وهى تركية أو فارسية . أنظر : Dozy Suppl, 2, p. 410 أما المكافة ، فهى الهامة . عنها ، انظر : Ibid, 2, p. 485.

(٢) زبدة ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ؛ صبح ، ٤ ص ٢٥ ، ٦٥ . عن معنى كلمة الكشف ، بمعنى الاهتمام بالأرض وإنتاجها . أنظر : Dozy Suppl, p; 471. وهو يذكر « ديوان الكشف » .

(٣) ابن إياس ، ٢ ص ٤٢ . توجد وظائف أخرى لأعمال الجباية ، مثل : « المباشر » ، و « المستوفى » ، و « الناظر » ، ولكنها ألغيت . السلوك ، ١/٢ ص ١٠٣ . كذلك وجدت وظيفة « المعين » ، التى كانت تساعد « المباشر » ؛ وربما كان كاتبه . صبح ، ٥ ص ٤٦٦ .

(٤) عن هذا اللفظ ، انظر : Dozy Suppl, 2, p. 606. « مكس » جمعها « مكوس » و « أمكاس » ، ضريبة قديمة ، عرفت من العصر الجاهلى .

فى عصر المماليك ، وهى فى معناها الضيق تُفرض على السلع الواردة والصادرة الموجودة فى الموانىء ، وفى معناها الواسع ، فإنها تدل على ضريبة غير مباشرة ، تفرض على بعض البضائع ، وعلى كل شىء عند وروده إلى المدن . ولم تعد تُعرف إلا بهذا المعنى . وكانت تسمى أيضاً « هلالى[١] » ، لأنها كانت تستأدى على حكم الشهور الهلالية ؛ بعكس الخراج الذى يُجبى على حكم السنة الشمسية أو السنة القبطية . وهذه الضريبة فى عهد المماليك امتدت إلى أمور لم تكن موجودة قبلهم ، وشملت كل شىء إلا الهواء ، الذى أخلى سبيله وحده وبقى حراً . وقد عُرفت عندهم بأسماء أخرى ، منها : « الموجب[٢] » ، و « الحقوق السلطانية » ، و « المعاملات الديوانية » ، « أو رسوم الولاية » ، ؛ مما يدل على أنها كانت تفرض على كل شىء ، وفى كل أنحاء البلاد[٣] فقد كان المكس مقرراً على البيوت ، والحوانيت ، والخانات ، والحمامات ، والأفران ، والطواحين ، والبساتين ، والمراعى ، ومصائد الأسماك ، والمعاصر ، والحجاج ، والمسافرين ، والمراكب ، والصيد ، والأغنام ، والجاموس ، والبقر ، والأفراح ، والفواحش ، وكسح الأوساخ ، وحتى على هدايا الفلاحين . فكان الماكس ومعه المستوفون والكتّاب والجنود يبقون على ساحل مصر القديمة وبولاق لجبايتها ، كما يجبيها عُرفاء الأسواق — أشبه بالمفتشين — من الأسواق ، أو يتكفل بتحصيلها « الضمّان » ، أو حتى « الضامنات » ، مثل ضامنة الأفراح ، أو ضمّان الحشيش[٤] . والواقع أن هذه الضريبة جائرة وغير شرعية ؛ لأنها لم تذكر فى القرآن ؛ لذلك عمد بعض أتقياء سلاطين المماليك إلى إلغائها أو تخفيفها ؛

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٦٦ فما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٤٦ س ٩ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ١٠ س ١٠ . تدخل فيها ضريبة الأملاك ، التى تفرض على كل غرفة « قاعة » ، وعلى كل طبقة . الخطط ، ٤ ص ١٢٦ س ١٥ .

(٣) السلوك ، ١/٢ ص ٣٨٤ س ٦ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٠ س ١١ ، ٢٥ .

(٤) الخطط ، ١ ص ١٧١ — ١٧٢ .

فالسلطان شيخ أبطل مثلاً مكس الفواكه ، ونقش ذلك على رخامة بالجامع ، الذى بناه فى عام ٨٢٣/١٤١٩[١] فقد كانت المكوس تأتى بمبالغ طائلة للدولة تقدر بأكثر من سبعين ألف درهم يومياً[٢] .

كذلك الضرائب على التجارة الواردة على الثغور وهى : الإسكندرية ورشيد ودمياط وتنّيس وعَيْذَاب وأُسْوَان[٣] ؛ كانت تكون قسماً هاماً فى مصادر دخل الدولة . ولاريب أن وقوع مصر فى مفترق الطرق التجارية ؛ جعل حصيلة الدولة من ضريبة التجارة كبيرة . وقد كان أهم ما تتاجر فيه دولة المماليك هى تجارة التوابل مع الهند والشرق ، التى كانت تقوم مقام القهوة والشاى فى عصرنا الحاضر . وقد كانت هناك جماعة تعيش فى مصر — ربما تكون سودانية الأصل — اشتغلت بنقل هذه التجارة من اليمن ، عُرفت بتجارة الكريمى ، ومن يقومون بها يسمون تجار الكارم أو الكارمية أو الأكارم[٤] وقد وجد مُشرف على جباية ضريبة التوابل عمله يسمى : « نظر البهار والكارمى[٥] » .

فقد كانت الدولة تفرض ضريبة « العشر[٦] » ، على بضائع تجار

---

(١) ابن اياس ، ٢ ص ٧ .

(٢) الخطط ، ١ ص ١٧٢ س ١٤ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٧٦ س ١ — ٢ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٤٦١ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ١١ ص ٣٢٠ ؛ المقصد ، ورقة ١٣٥ ب ؛ السلوك ، ١/٣ ص ٨٩٩ وحاشية ؛ انظر . : Hautecoeur et Wiet
Le Mosquées du Caire tI . Paris, p. 86 ; 93
Hist. du Commerce, p. 59. : Heyd ؛
هى كلمة محرفة عن كلمة « كانم » أو « كانمى » ؛ لتعنى إناساً من شعب كانم من بلاد السودان ، تعيش فى مصر . أنظر . Suppl, 2, p. 460. : Dozy . عن كانم ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢١٠ ؛ صبح ، ٥ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٥) صبح ، ٤ ص ٣٢ ؛ انظر . : Wiet
Les Marchands d'épices sous les Sultans Mamlouks. Le Caire. Cah. d'hist. Série VII, Fasc 3, Juin, 1955, p. 88 - 9.

(٦) الخطط ، ١ ص ١٦٧ س ١ ؛ انظر . Die Geog p. 162. : Wust

المسلمين ، وهى التى جباها عمر بن الخطاب فى العهد الإسلامى الأول ، ولذا اعتبرت شرعية . أما بضائع تجار الأجانب ، فيفرض عليها « الخمس[١] » ، وقد يحصل اتفاق بشأنها ، حتى تصل إلى العشر . وحينما تصل مركب إلى ميناء مصرى ؛ فإن خبر وصولها يصل إلى السلطان فى القاهرة ، عن طريق الحمام الزاجل ، الذى يرسله إليه الوالى . وحينما ترسو المركب فى مكانها المخصص — وهو للمسلمين غيره للأجانب فإنه يصعد عليها رجل من قبل السلطان ، يسجل جنسية المركب ، ونوع الحمولة ، ثم يسحب الشراع والدفة ، ولا يردا إلا بعد دفع الضريبة[٢]

الباب الثالث من الموارد هو الجوالى[٣] ، وهو اسم بقى من عهد الفاطميين والأيوبيين يفرض على رءوس غير المسلمين ، حيث أن اسم الجوالى من جالية ، يدل على أن غير المسلمين قد أصبحوا قلة ؛ فقد تحول معظم المصريين إلى الإسلام ، بملاحظة المقريزى . ولانتشار أهل الذمة — ولا سيما القبط — فى كل مكان ؛ فإن ديوان الجوالى أصبح يوجد فى كل أنحاء مصر ، فنسمع عن « ناظر الجوالى » فى دمياط[٤] . وقد كان يعاون ناظر الجوالى فى جباية الضريبة ، ممثل عن النصارى وآخر عن اليهود « حاشر » .

وأخيراً ، كان فى أبواب الدخل موارد أخرى فرعية ، تأتى بمال كثير[٥] .

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٢) أنظر : Pernoud

Les Villes Marchandes aux XIV ème et X V ème Siècles : Préface de René Grousset. Paris, 1948, p. 48.

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٣ .

Ency. (art Dgizya) tI, p. 1083.

(٤) صبح ، ١٠ ص ٤٥٢ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦٠ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٦ — ١٧٨ .

نذكر منها : معادن الزمرد والشب والنطرون ، الأول يستخرج بالقرب من مدينة قوص ، والثانى من الوجه القبلى والواحات ، والثالث من البحيرة ، وكان معظمه يباع للأجانب .

ونذكر : ما كان يتحصل من سك العملة وتغييرها ، ومن دار العيار وما فيها من موازين ومكاييل ؛ فقد كان يتحصل منها مال كثير .

ونذكر : الزكاة ، التى تفرض على المسلمين الأحياء ، وكان لها ناظر يسمى « ناظر الزكاة » . ومع أن هذه الضريبة فى أيام الفاطميين تؤخذ باسم المذهب الشيعى من أتباعه ، فإنها أصبحت فى زمن المماليك مثل الجوالى فى أهميتها ، تجبيها الدولة ، حتى سميت « زكاة الدولة [1] » .

ونذكر : مال من يموت وليس له وارث ، أو له وارث لا يستحق كل ميراثه . وقد نظم هذا المال فى عهد الفاطميين ، وأنشىء له ديوان عرف باسم : « ديوان المواريث الحشرية » [2] ؛ حيث كان يورّث لذوى الأرحام بما فيهم البنت على أساس المذهب الشيعى . ومع أن هذا الديوان بقى فى عهد المماليك ، وعرف بنفس الاسم ، أو باسم « ديوان الحشر » [3] ؛ فإن ما يتحصل منه فى مصر ، أصبح ينتقل إلى موارد الدولة العامة « بيت المال » . وقد كانت تظهر فى كل يوم فى القاهرة ومصر جريدة بأسماء الذين توفوا من المسلمين ، وغيرهم تنتهى ساعة العصر ؛ حتى إذا لم يظهر لهم وريث آل مالهم إلى الدولة عن طريق هذا الديوان . وقد كان يشرف عليه الوزير ، وعدة موظفين

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٧١ س ١٥ فما بعدها .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٦ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٤٦٤ ، ٤ ص ٣٣ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٩ ؛ المقصد ، ورقة ١٣٥ ؛ زبدة ، ص ١٠٨ س ٨ — ٩ ؛ انظر . Tyan :
Org. Jud. en pays d'Islam, ?, p. 326—7.
كلمة حشرية من حشر ، أى من لا وارث له ؛ انظر . Dozy : Suppl, I, p. 290 .
كذلك « الحاشر » ، هو من يعرف أرباب الأسماء الواردة فى الديوان . صبح ، ٣ ص ٤٦٢ .

على رأسهم : ناظر المواريث ، يعاونه : كاتب لكتابة أسماء المتوفين وما يتعلق بهم ، و « شهود » ، و « شاد » و « مشارف » ، لتحصيل الإرث . وكان لهذا الديوان فروع خارج القاهرة ، يشرف عليها مباشرون يحملون ما يتحصل منها من مال .

وأخيراً ضرائب مؤقتة ، تؤخذ من الأهالى مسلمين وأهل ذمة ، كلما قامت حرب ، أو انتصر المماليك ، أو حتى إذا فتحوا حصناً[1] .

ولا بد لنا أن نفصل بالضرورة بين هذه الموارد العامة ، التى تخصص للصرف على الدولة وموظفيها ، وبين الموارد الأخرى ، التى تذهب للخزائن الخاصة .

فنذكر من هذه الموارد : تركة المماليك من الأمراء وغيرهم ؛ التى أنشأت لها الدولة ديواناً ، عُرف باسم : «ديوان المرتجع» ، أو «ديوان المرتجعات[2]» ، الذى كان يشرف على هذه التركة لصالح الورثة ، أو لصالح الدولة . وربما عنت كلمة « مرتجع » أيضا ما يستعاد من كبار المماليك ، حتى ولو كانوا أحياء ، لصالح الدولة .

ولنذكر أيضاً : مال الحبوس ، وقد كثرت هذه فى عهد المماليك . وقد قسمت إدارة الحبوس إلى عدة إدارات ، منها : الأحباس المبرورة ، وهى خاصة بالمساجد والمدارس والبيمارستانات والخوانق — أو الخانقاوات — والزوايا والربط[3] . وكان لكل من هذه المنشئات إدارة خاصة بها ، ولا سيما البيمارستانات — وهى المستشفيات — التى أكثر السلاطين من بنائها[4] . وهذه المنشئات

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٧١ . ألغاها بعض السلاطين .

(٢) صبح ، ٤ ص ٣٣ ؛ المقصد ، ورقة ١٣٥ ا ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢٦٨ س ٨ — ٩ . برأسه : « ناظر المرتجعات » ، ويقدمه : « مستوفى المرتجع » .

(٣) النويرى ، نهاية ، ٣٠ ورقة ١٤ فما بعدها ؛ صبح ، ٣ ص ٣٧٠ ؛ انظر ، Les Mosquée, I, p. 144 ; 259 – 389 . كان لها : « ناظر » ، و « شاد » .

(٤) زبدة ، ص ١١٥ . كان لها : « ناظر » ، و « شاد » .

أوقفت عليها الأموال والضياع والبساتين [١]، ولدينا حجج بعضها [٢]؛ ووضعت أحباسها تحت ملاحظة « ناظر الأحباس » ؛ وإن كانت لأهميتها قد توضع تحت ملاحظة « الدودار » ، وهو موظف كبير فى القصر المماليكى [٣] . ثم الأوقاف الحكيمة وهى خاصة بالحرمين الأعمال الخيرية كالإحسان ، صدقات ، على الفقراء وفداء أسرى المسلمين، ولها أرض موقوفة عليها ؛ وكانت توضع تحت ملاحظه قاضى قضاة الشافعية [٤] . ثم الأوقاف أو الترك الأهلية [٥]، ويشرف عليها أصحابها ، حرصاً على بقائها .

وأخيراً نذكر : موارد السلطان الخاصة ، حيث كان احتفاظه ببلاط باذخ يحتاج إلى أموال طائلة . فيشير المؤرخون بكلام مقتضب إلى : « ديوان الخاص » ، و « خزانة الخاص » [٦] ، والذى يشرف على الديوان اسمه : « ناظر الخاص » [٧] . عمله فيما هو خاص بمال السلطان .

---

(١) ابن اياس ، ١ ص ١١٦ س ١١ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٥٥ س ١١ ؛ نهاية ، ٣٠ ورقة ١٣ . عن الأحكار، انظر. الخطط ، ٣ص١٨٥ فما بعدها .

(٢) أنظر مثلاً حجة وقف السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٢٧/١٤٢٤ ، مخطوطة بدار الكتب ، برقم ٣٣٩٠ اريخ .

(٣) ابن إياس ، ١ص ٢٢٠س٢ . يتبعه : « شاد الأحباس » . زبدة ، ص ١١٥ .

(٤) ابن حجر ، رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ؛ زبدة ، ص ١٠٩ ، ١١٥ ؛ المقصد ، ورقة ١٣٢ ب ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠٠ س ٧ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl (art Wakfs) t4, cf.

يعاونه « شاد الأوقاف » ، و « ناظر الأوقاف » . كانت تفرض أحياناً ضريبة لأهل الحرمين. أنظر . ابن حجر ، نفس المرجع والصفحة .

(٥) السلوك ، ١/٢ ص ٤٣٧ س ١٥ .

(٦) أبو المحاسن (ا) ، ٦ ص ٤٢٢ س ٦ — ٧ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٥٦ .

(٧) حسن المحاضرة ، ٢ص٨٤ ؛ ابن خلدون، المقدمة ، ص١٩٤ . أو « ناظر الخواص الشريفة » . ابن إياس ، ١ ص١٤٣ ، ١٦١ ، ٢٩١ . أو حتى « ناظر الأصل » . صبح ، ١١ ص ٤١٩ . وكان يتبعه « مستوفى الخاص » . المقصد ، ورقة ١٣٥ . و « شاد الخاص » أو حتى « شاد القصر » . نفسه ، ورقة ١٢٩ ؛ زبدة ، ص ١١٥ . كذلك كان « ديوان المفرد » ، هو أيضا مثل « ديوان الخاص » ، يعنى ببعض شئون السلطان المالية ، وكان له ناظر يسمى : « ناظر المفرد الشريف » ، يتبعه « مستوفى » ، و « شاد » . زبدة ، ص ١١٥ ؛ أبو المحاسن ، المنهل ، تحقيق نجاتى ، القاهرة ١٣٧٥/١٩٥٦ ، ١ص١٧٩ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٥٧ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٦٣ .

ولا ريب ، فإن مصادر ثروة السلطان جاءت من الإقطاع الكبير ، الذى كان يستولى عليه فى الإسكندرية على الخصوص ، وفى أماكن متفرقة أخرى [١] . كذلك كان للسلطان عقارات فى جميع أجزاء مملكته فى مصر والشام ، حيث نسمع عن : « عمائر السلطنة » ، و « الأملاك السلطانية » ، و « الأملاك الديوانية » ، التى يشرف على بنائها « ديوان العمائر » [٢] . وكان يدير هذه العقارات ، ويتحصل على ما لها عدة دواوين ، مثل : « ديوان الأملاك » [٣] ، و « ديوان المستأجرات » [٤] . وكان السلطان يحتكر أيضاً استغلال المناجم ، مثل مناجم : الذهب ، والزمرد ، والنطرون [٥] .

ولكننا نعتقد أن غنى السلطان الفاحش أتى على الخصوص من الاشتغال بالتجارة . فيقول ابن شاهين إنه يوجد على ساحل مصر القديمة وحدها ما ينيف على ثمانمائة وألف مركب [٦] . كذلك كانت له قوافل وأماكن للتجارة [٧] ، وله جماعة تعرف بتجار السلطان [٨] . وكان يحتكر تجارة بعض الأصناف ، مثل : الحطب لأهميته فى الوقود [٩] ،

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٥٦ . مثل الجيزة ومنفلوط . الخطط ، ١ ص ١٤٤ . يوجد موظف اسمه : « ناظر الرباع » صبح ؛ ١٢ ص ٣٩٧ . الرباع هى الأملاك .

(٢) زبدة ، ص ٩٧ ، ١٠٩ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٣٥ ص ١٤ . له « ناظر » ، يتبعه « شاد العمائر » (زبدة ، ص ١١٥) ، وأيضاً « المهندسين وأرباب العمائر » . نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٥٧ ؛ المقصد ، ورقة ١٣٧ . يوجد له « ناظر » .

(٤) زبدة ، ص ١٠٩ .

(٥) صبح ، ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦١ ؛ انظر .

Ency. (-art al - Sa'îd) t4, p. 72.

(٦) زبدة ، ص ٢٧ . يوجد موظف خاص ، اسمه : « شاد المراكب » . نفسه ، ص ١١٥ .

(٧) مثلاً ، انظر . Sauvaget :

Carvansérails Syriens du Moyen - âge II. Carvansérails Mamelouks. Reprinted from vol VII, pt I of. ARS. Islamica MCMXI.

(٨) حوادث ، ص ٢٧٠ ، ٣٢٦ .

(٩) نفسه ، ص ٢٤٧ .

ولا سيما التوابل التى كان يبيعها للفرنج[١] ، وحتى سمك البورى والبطارخ[٢] .

والواقع ليس من السهل إيجاد تفرقة بين بيت مال الدولة[٣] ، وخزانة السلطان الخاصة ؛ فقد كان يطلق على بيت المال أيضاً : « الخزانة السلطانية » ، وإن أطلق عليه كذلك : « الخزانة الكبرى » ، كما أن « ناظر الخاص » ، كان يشرف على جميع أموال الدولة[٤] . ولدينا ملاحظة المقريزى عن ذلك فى أنه : « تلاشى المال ، وبيت المال ، وذهب الاسم والمسمى ، ولا يعرف اليوم بيت المال من القلعة ، ولا يدرى ناظر بيت المال من هو » .

وقد كان المبدأ السائد فى التنظيم المالى وقتذاك ، ألا تذهب إيرادات الدولة إلى بيت المال أو حتى لخزانة السلطان الخاصة ، وإنما يخصص كل إيراد لنفقة معينة ؛ وإن كان بيت المال أو حتى الخزانة السلطانية لا يستعمل إلا فى تخزين الفائض والاحتياطى ، أو حفظ ما يخصص للموظفين من أرزاق ؛ أو حتى التحدث فى المبيعات والمشتريات ، ولذا سمى أيضاً : وكالة بيت المال[٥] ، لما فى معنى الوكالة من المتاجرة . وحسب هذا المبدأ كان الخراج من الأرض ، يذهب مباشرة عن طريق الإقطاع إلى المماليك كما بيّنّا ، وضريبة الصادر والوارد بما فيها من مكوس وضرائب أخرى ، تخصص لتكون إقطاعات ومرتبات للمماليك والموظفين ، أو لرسوم الولايات والموظفين[٦] .

---

(١) زبدة ، ص ١٠٨ ؛ المقريزى ، سلوك ، مخطوط دار الكتب ، برقم ٣٣٣٧ ، ٤ ورقة ٥٩٢ ؛ صبح ، ٨ ص ٦٧ـ٧٧ .

(٢) زبدة ، ص ١٠٨ س ٢ . لدينا توقيع خاص بنظر ثغر الاسكندرية ، يحض فيه السلطان ناظره على تنمية المتاجر . صبح ، ١١ ص ٤٢١ .

(٣) عنه ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٢٦٤ — ٣٦٥ . له ناظر وشهود وصيارفة وكاتب .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٦٩ .

(٥) صبح ، ٤ ص ٣٦ ؛ مؤلف مجهول ، تحقيق Zetterstéen ، ص ٢٠٧ س ١٦ .

(٦) السلوك ، ٢/١ ص ١٥١ س ٣ ، ١٤ — ١٥ ؛ الخطط ، ١ ص ١٤٣ س ١ — ٢ .

ومع أنه فى عصر الفاطميين كان تقديم الميزانية كتابة لإحصاء قدر الارتفاع والنفقات من المبادىء المالية فى الدولة[١] ؛ إلا أنه فى عصر المماليك لانسمع عن تقديم ميزانية كتابة ؛ مما يدل على أن سياسة حكام مصر المماليك ، كان همهم الاستيلاء على خيراتها لأنفسهم ، قبل كل شىء . ومع ذلك ، فقد حدثنا المقريزى عن أوراق تشتمل على « مصروف الدولة »[٢]، يشمل الرواتب وغيرها .

وأخيراً ، يجب أن نتكلم عن النظام النقدى ، إذ العلاقة وطيدة بينه وبين التنظيم المالى فى الدولة الإسلامية . فقد كان لمصر نظام نقدى إسلامى خاص بها منذ عهد الطولونيين ؛ يحمل أسماء ولاتها[٣]. ولما جاء الفاطميون ، وكان مذهبهم شيعياً ، سكوا عملة تحمل عقيدتهم الشيعية ، وأسماء خلفائهم[٤]. ولما جاء الأيوبيون ، ومن بعدهم المماليك ، وكان مذهبهم السنة ، عملوا على سك عملة ذات طابع سنى ، تحمل أسماء سلاطينهم . فالعملة فى الإسلام تعنى السيادة للدولة وحاكمها .

وقد كانت العملة فى عهد المماليك كالعملة فى كل دولة إسلامية ، تُعرف باسم : « السكّة » ، وهى كلمة على حسب قول ابن خلدون[٥]: تدل على خاتم

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٣٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٢٥ .

(٢) بحثنا عن المصدر الذى ذكره على إبراهيم عن أن خراج مصر فى عهد الظاهر بلغ اثنى عشر مليون دينار ، ولكننا وجدناه مغلوطاً ، [المماليك البحرية ، ص ٣٢٦ هامش (١١)] ، ثم هو يقول إنه لا يوجد سوى ذلك من إشارة لميزانية الدولة . الخطط ، ٤ ص ١٢٤ س ٢٣ .

(٣) لنذكر على سبيل المثال الدنانير ، التى ظهرت باسم أحمد بن طولون ، وعرفت بالأحمدى . الخطط ، ١ ص ٦٦ س ١٨ .

(٤) ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، تحقيق Vonderheyden ، ص ٤٣ ، ترجمة ، ص ٦٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٢٥ وما بعدها .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٦ .

الحديد ، الذى تطبع عليه العملة ، أو تضرب عليه بالمطرقة . ولذلك ، فإن لفظة السكة أطلقت على العملة ، وعلى الدار التى تصنع فيها العملة ؛ فسميت : « دار السكة » أو « دار الضرب » .

وقد كان يوجد فى مصر فى عهد المماليك ديوان الضرب[1] ، الذى يشرف على عدد كبير من الموظفين يسمون : معلمى دار الضرب[2] ، يرأسهم : ناظر دار الضرب[3] ، الذى لم يعد يُختار عادة من بين القضاة ، كما كان الحال سابقاً ، وإنما يعين لها موظف خاص ، حتى من بين يهود أسلموا[4] . وقد تعددت دور الضرب فى عهد المماليك — كما كان الحال فى أيام الفاطميين — فى القاهرة والإسكندرية وقُوص[5] ، وفى الشام فى أربعة أماكن ، وهى حَلب وحَماة ودمشق وطَرابُلس[6] .

وقد كان سك العملة فى عهد المماليك يقوم على أساس النظام السابق قبلهم ، محوره الدينار من الذهب والدرهم من الفضة . إلا أنه منذ مجىء الأيوبيين والمماليك قلت العملة الذهبية والفضية ، وظهرت الفلوس[7] ، وهى عملة نحاسية

---

(١) المقصد ، ورقة ١٣٢ ب .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٣ .

(٣) زبدة ، ص ١١٥ .

(٤) الخطط ، ١ ص ١٧٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٩ .

(٥) الخطط ، ١ ص ١٧٧ . عن عملة الإسكندرية ، انظر .

Lavoix t3, p. 274 (700);

(٦) انظر Lavoix t3,p.280 (710)281;(712)(713); 335 (833); 397. (946).

(٧) المقريزى ، إغاثة ، ط ٢ ، ص ٤٧ فما بعدها ، ٧١ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٧ ؛ انظر : Ehrenkrautz :

The Crisis of dînâr in the Egypt of Saladin

Some, : Mayer ; J. A. O. S. 70 / 3, pp. 178 - 194

poblems of Mamlûk Coinage. London, 1936, p. 410.

L'evolution monétaire de l'Egypte Médievale R.Soc, : De Bouard:

Econ. Polit, etc. Le Caire, 1939. pp. 427 - 459.

أصل كلمة « فلوس » جمع « فلس » ، يونانى أو لاتينى انظر ، أنستاس مارى الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧

أو برنزية ، أومن نحاس مخلوط ، حيث كان المماليك يجلبون النحاس من بلاد الفرنجه ؛ مع أنه فى عصر الفاطميين كانت الفلوس لا تسك ، وأُعتبرت غيرقانونية[١]. وقد سميت الفلوس أيضا القراطيس[٢] ، لأنها سُكت ملفوفة على شكل الأصبع ، بينما يكون الدينار والدرهم مدور الشكل كذلك انتشرت تسمية الفلوس فى مصر ، بينما انتشرت تسمية القراطيس فى الشام . وقطّعت العملة فى مصر منذ عهد الأيوبيين[٣] ، فبقيت مقطوعة أيضاً فى عهد المماليك[٤] .

هذه العملة المماليكية ، تحمل غالباً عبارات دينية سنية ، أغلبها تبدأ بالبسملة ، ولا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق[٥] . وكان ينقش عليها اسم السلطان فى دائرة ، وأحياناً أسم الوصى . ولما كان تغيرّ السلاطين مستمراً ؛ فإن عملتهم لا تُلغى ، وإنما تُصرف[٦] . وكان يذكر اسم الخلفاء فى العملة فى أول عهد المماليك وهم فى بغداد[٧] ، وذلك إلى عهد

---

(١) أنظر . المرجع الأخير ، ص ٥٤ و ٦٠ .

(٢) السلوك ، ٢/١ ص ٥٠٢ س ١٢ فما بعدها ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2.p. 331

(٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، تحقيق de Goeje ، ط. Brill ، ١٨٨٧ ، ص ٢٠٤ ؛ انظر . Sauvaire : Matériaux pour servir à l'hist, de la numis et de la métrol. musul, p. 49.

؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٢٧ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ١٨٩ س ٦ ـ ٧ .

(٥) صبح ، ٣ ص ٤٦٦ . العبارة التى أوردها القلقشندى : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره الكافرون . أنظر .
Lavoix, p. 277 (704).

(٦) ابن إياس ، ٢ ص ٤١ س ١ .

(٧) أنظر . Lavoix. p. 274 (700) ; 275 (701) ; 278 (706) ; 281 (712) ; (713) ; 282 (7#5). ؛ Mayer : A Hoard of Mamiuk coins, vol III, No. 4, Rep. from the Quarterly of Dep. of Ant. in Palestin p. 168 - 9.
ذكر اسم الخليفة المستعصم بالله فى عهد أيبك ، ولم يذكر اسم خليفة فى عهد قطز ؛ لأن المغول كانوا قد قتلوا الخليفة ، ثم ذكر اسم الخليفة المستنصر بالله ، الذى أقامه بيبرس فى مصر . كذلك لم تضرب عملة باسم الخلفاء بعد ذلك إلا فى أول حكم الجراكسة باسم المستعين بالله أبو الفضل عباس ، لأنه تولى السلطنة ، ثم ألغيت بعد ذلك . أنظر .
Lavoix, t3, p. 46 (98).

بيبرس ، الذى سك العملة باسم الخليفة وباسمه ، ولكنه ألغى اسم الخليفة ، فصارت تسك من وقتئذ بدون ذكر الخليفة ، وإنما ذكرت البسملة والشهادة السابقة . وكان يؤرخ للسنة التى ضربت فيها العملة ومكان الضرب وكانت بعض العملة المماليكية تتميّز بعلامة خاصة مربعة الشكل ـ مثلما كان عند الفاطميين ـ وهو ما عُرف فى عهد المماليك « بُقْجَة » ، لتدل على جودتها[١] . وأخيراً كان السلطان قد يضع على العملة رنكه أى علامة خاصة به[٢] .

وقد كانت أشهر فئات العملة عند المماليك هى الدينار الجيشى[٣] ، بسبب أن المماليك طبقة حربية . كذلك سمعنا عن الدرهم الأسود ، وإن كنا لا نعرف سبب التسمية ـ والدرهم المصرى ، والدرهم الكبير ، والدرهم الصغير[٤] . ولدينا أسماء عملات بأسماء السلاطين ، مثل : الناصرية[٥] .

---

(١) السلوك ، ٢ ص ٢٠٦ ؛ النويرى مخطوط بدار الكتب ، ٣١ ورقة ٢ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٢٨ . يقول المقريزى : « ننودى أن الفلس ، الذى عليه « بقجة » من ضرب دار الضرب يؤخذ » . بينما فى عهد الفاطميين ، كان ينقش على العملة عبارة : « عال » ، أو « عال غاية » . انظر . Lavoix,p. 154, 162, 166, 169. وربما سميت هكذا « بقجة » ، لأنها تشبه الوعاء الذى توضع فيه الأشياء ، وهى كلمة فارسية . ومع ذلك ، لم يظهر هذا اللفظ « بقجة » على العملة ، التى بين أيدينا ، خاصة بعصر المماليك .

(٢) المقريزى ، رسالة النقود الإسلامية ، طبع (قسطنطينة) ١٢٨٢ ، ص ١٥ ؛ انظر . Artin Pacha : Etude du blason en Orient. London, 1902 p 67.

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ (آخر سطر) ، صبح ، ٣ ص ٤٤٢ ؛ انظر . Mayer : Some problems, p. 439 sqq.

(٤) الخطط ، ٢ ص ١٨٩ س ٥ ؛ ١ ص ١٧٠ س ٢٥ ؛ ابن حجر ، أنباء الغمر بأنباء العمر ، مخطوط دار الكتب ، ٢ ورقة ١١٨ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٣٤ س ٢٦ هى دراهم . أنظر ، نفسه ، ٢ ص ١٨٩ . يذكر الدرهم الناصرى ، كما أنها دنانير . صبح ، ٣ ص ٤٤١ .

وقد كانت مقادير العملة تُصرف بالضرورة على أساس الدينار والدرهم الرسمي ؛ الذي يحدد مقداره السلطان . وقد كانت هناك علاقة محدودة بينهما ؛ فالدينار يساوى ٢٠ أو ٢٥ أو ٢٨ أو ٣٠ درهماً[١] ؛ ولكن لكثرة التذبذب وصل إلى ٣٠٠ أو ٣٥٠ أو ٣١٧٠ درهماً[٢] . أما الفلوس ، فلم تكن بالعد ، ولكن توزن[٣] . كذلك كثر فى العملة الزغل[٤] ، أو البهرج أو غير الخالص — أى التزييف — فنسمع عن الفلوس الزغل مثلاً . وحتى السلطان كان يلجأ هو الآخر إلى تزييف العملة ، مثلما فعل جقمق ، ولكنه عزل[٥] . وقد كان ظهور التزييف فى العملة يسبب غضب الشعب ، الذى يسب القضاة والسلطان وأرباب الدولة[٦] .

وقد كان عمل الصيارفة مبادلة مقادير العملة أو سحب العملة الرديئة « العتق » من التعامل ، ووضع عملة جيدة « جديدة » بدلاً منها[٧] ويظهر أنه وجد فى أيام المماليك نظام مصرفى دقيق ، فنسمع بوجود كلمة « حوالة »[٨] ، تصرف من قبل السلطان ، وتقبض فى يوم معين . كذلك حاول السلاطين إصلاح العملة بإعادة سكها أو بإطلاق الذهب فى السوق ؛ حيث كانوا يجلبونه من بلاد تَكْرُور ، التى على ما يبدو كان فيها ذهب كثير[٩] .

٭

(١) صبح ، ٣ ص ٤٤٢ ؛ إغاثة ، ص ٧١

(٢) حوادث ، ص ٢٠٨ ، ٢٢٥ .

(٣) السلوك ، ٢/١ ص ٢٠٦ س ١١ ، ١٣ ، ٢٥٣ س ٦ ؛ إغاثة ، ص ٧٠ .

(٤) السلوك ، ٢/١ ص ٢٠٥ ؛ النويرى ، نهاية ، مخطوط دار الكتب ، ٣١ ورقة ٢ ؛ حوادث ، ص ٢٩٥ س ٧ ، ٩ .

(٥) ابن إياس ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٦) حوادث ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٧) السلوك ، ٢/١ ص ١٧ س ١٥ — ١٦ ، ٢٥٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب ، ٣١ ورقة ٢ .

(٨) السلوك ، ٢/١ ص ١٠٤ س ٤ .

(٩) نفسه ، ٢/١ ص ٢٥٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٦٥ . هى بلاد من السودان فى أقصى جنوب المغرب . انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٣٩٩ .

الإدارة المحلية : التقسيم الإدارى والجغرافى ــ نظام الولايات ــ حكم الامبراطورية .

لدينا من العصر المملوكى تعابير اصطلاحية إدارية بقيت كما هى منذ عهد الفاطميين ، مثل : عمل ــ أى مديرية ــ ، وناحية ــ أى مركز ــ ، وقرية . ولكن التقسيم الإدارى ازداد تركيزاً عن ذى قبل ، بسبب طبيعة المماليك العسكرية . فبعد أن كان عدد الأعمال فى عهد الفاطميين واحداً وعشرين عملاً[1] ، تناقص إلى ثمانية عشر عملاً . فهى على حسب قول القلقشندى[2] . تشمل فى الوجه البحرى : الضواحى أو ما يجاور القاهرة ، والقليوبيّة ، والشرقية ، والدقهلية والمرتاحية ، والبحيرة ، والمنوفيّة ، والغربيّة ، والمزاحمتين أو مايجاور الإسكندرية ، وفى الوجه القبلى : الجيزيّة ، والإطفيحيّة ، والبهنساويّة ، والفيوميّة ، والأشمونية والطحاوية ، والمنفلوطيّة ، والأسيوطيّة ، والإخميمية ، والقوصيّة ، ويضيف ابن شاهين أيضاً : الواحات[3] .

كذلك بقيت التعابير الجغرافية لمصر كما هى[4] : الوجه البحرى أو أسفل الأرض ، والوجه القبلى أو أعلى الأرض فيضم الأول : بطن الريف فى الوسط ، والحوف الشرقى شرقى الدلتا ، والحوف الغربى غربى الدلتا . والثانى ويعبر عنه أيضاً بالصعيد ، ينقسم إلى قسمين : الأعلى وهو من أسوان إلى إخميم ، والأدنى الذى يمتد إلى الفسطاط .

ومع أن البلاد مقسمة إلى أعمال ، فإنه لا يبدو أنه كان يعين فيها كلها حكام ، كما أن بعضها كانت تنقسم إلى عدة أقسام سياسية . فيذكر القلقشندى أنه

(١) أبو صالح ، الكنائس ، تحقيق Evetts (١٧ ــ ١٩) ص ١٠ ــ ١١ ، ترجمة ١٧ ــ ١٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٣١ .

(٢) صبح ، ٣ ص ٣٩٦ فما بعدها ، انظر أيضاً : ابن الجيعان ، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، نشر Moritz ، القاهرة ، ١٣١٦/١٨٩٨ ، انظر .

(٣) زبدة ، ص ٣٣ س ٧ . لا يعتبرها القلقشندى من الأعمال . ص ٣ ــ ٥ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٣٨٠ وما بعدها .

كانت هناك أربع عشرة ولاية فى الوجهين البحرى والقبلى ، ومن يشرف عليها يسمى : الوالى[1]. وفوق ذلك كان للمدن المجاورة للأعمال ولاة آخرون، مثل : القاهرة والفسطاط ودمياط وأسوان وعيذاب[2]، ولا سيما الإسكندرية التى أصبحت لأهميتها يعرف واليها باسم : النائب[3] . كذلك كان يشرف على كل ولاة الوجه البحرى أو القبلى من يسمى : بالنائب[4] .

هؤلاء الولاة يخضعون للسلطة الزمنية للسلطان ، وجميعهم من المماليك ، ولا سيما من الأمراء[5] ، ويعين الواحد منهم بمرسوم . فيمنح كل واحد عند التولية خلعة وفرساً ، وإن كان والى الإسكندرية يأخذ فرسين ، ربما تمييزاً . وكان عملهم الأساسى القيام بأعمال الشرطة وحفظ النظام[6] .

وبجانب الولاة فى الأعمال أو فى المدن يوجد نواب للقضاة يتبعون قاضى القاضى فى القاهرة[7] ، وذلك على اختلاف مذاهبهم ؛ ولعل هؤلاء هم الذين يسمون أيضا : قضاة العمل أو قضاة الريف[8] . كذلك وجدنا محتسب القاهرة — وهو للإشراف على أصحاب الحرف والتجار والأحوال الاجتماعية — يسيطر على الوجه البحرى ، ومحتسب مصر يسيطر على الوجه القبلى ؛ مما يبين

---

(١) صبح ، ٤ ص ٢٦ — ٢٨ . كما يسمون : ولاة الأعمال أو أرباب الأعمال . الخطط ، ٤ ص ١٢٥ س ١٤ ، ١٢٦ س ٥ . كذلك سمعنا عن « نائب » دمياط . السخاوى ، التبر ، ص ٢١٠ . فهل معنى هذا وجود نيابات أخرى فى مصر ؟

(٢) أنظر . نفسه ؛ الجزرى ، جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك — لعله تكملة لمرآة الزمان لسبط بن الجوزى — مخطوط ٦٧٣٩ [B N] ، ورقة ٧٦ (١٤٠) ؛ المقصد ، ورقة ١٢٦ ب ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٦ س ١ — ٢ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٠٨ ، ٤ س ٢٤ . إقرأ صورة تقليد نائب ثغر الإسكندرية . نفسه ، ١١ ص ٤٠٥ — ٤٠٧ .

(٤) صبح ، ٤ ص ٢٤ — ٢٥ ، ٦٤ — ٦٥ . الواقع ليس من السهل البحث عن حقيقة هذه الاصطلاحات . فيقول القلقشندى إنه يوجد منصب « والى الولاة » وهو الكاشف ، الذى يتوافق عمله مع عمل النائب . نفسه ، ٤ ص ٦٥ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٦٩ س ٢٠ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٣٤٣ س ٢٠ — ٢٢ . إسمع عن سجن ثغر الإسكندرية . النجوم (P) ، ٦ ص ٣٢٥ .

(٧) زبدة ، ص ١٣٠ س ١٢ .

(٨) صبح ، ٥ ص ٤٦٦ ؛ حوادث ، ص ٤٧٠ س ٤ ؛ انظر بعده .

أنه لكل منهما نواب فيهما[١] . كما وجد موظفون آخرون ، مثل : الناظر الذي يشرف على شئون المال[٢] ، والكشّاف أو كشّاف التراب الذين يهتمون بالجسور وأنواع الجباية[٣] . وناظر البريد للبريد ، وناظر الضرب[٤] — لاسيما في المدن — العملة ، كما يوجد خفراء[٥] .

أما الامبراطورية المملوكية ، فكانت تنقسم إلى جملة أقاليم ، كل منها يسمى مملكة ، ولذلك كانت تسمى في مجموعها بالممالك الإسلامية . ولعل هذا راجع إلى أن صلاح الدين كان قسم أملاكه بين أبنائه ، الذين كانوا يتسمون بالملوك ، فبقى هذا النظام معمولاً به أيضاً في عهد المماليك .

وفي الواقع أنه من كل الممالك الإسلامية لم يكن تخضع مباشرة لسلاطين المماليك غير الشام ، وبعض مدن متفرقة . ولقد قُسّمت الشام منذ عهد الإسلام الأول إلى أجناد ، كما كانت من قبل منذ العهد البيزنطي ، فكانت قد قسّمت إلى ما يُعرف باسم : « Themaë » ، كما أنها قسّمت إلى ممالك في عهد الأيوبيين ، وبقيت هكذا في عهد المماليك ، وإن عُرفت أيضاً بالنيابات ، وهي ست نيابات[٦] : دمشق ، وحلب ، وحماة ، وأطرابلس ، وصفد ، وكَرَك ؛ وأهمها حَلَب ، ثم أصبحت دمشق ، وإن تغير ذلك أحياناً . وقد يُضاف لهذا التقسيم غزة وحمص والقدس وملطية[٧] .

---

(١) أنظره بعده .

(٢) صبح ، ١١ ص ٤١٩ — ٤٢٣ ؛ المقصد ، ورقات ١٣٥ — ١٣٦ . مثل ناظر الإسكندرية ، انظر ، قبله .

(٣) ابن اياس ، ٣ ص ١٦ ؛ انظر . قبله .

(٤) المقصد ، ورقة ١٤١ ب — ١٤٢ ا .

(٥) زبدة ، ص ١٣٠ س ١٣ .

(٦) المقصد ، ورقة ٨٦ ب فما بعدها ؛ زبدة ، ص ٤١ — ٤٥ ، ١٣١ — ١٣٥ ؛ صبح ، ٤ ص ٧٢ فما بعدها ؛ انظر .

Corpus, I, pp. 213 - 214. : Van Berchem

(٧) حوادث . ص ١ — ٣ .

فكان الذين يعينون فى هذه النيابات أو الممالك يعرفون بنواب السلطنة — جمع نائب السلطنة — وهم يكونون من كبار الأمراء ، حيث كان يخاطب كل واحد منهم بملك الأمراء أو كافل المملكة[١] . وبجانب هؤلاء الكبار ، وجد نواب أقل درجة يعينون فى القلاع — وهى عديدة — يسمى الواحد منهم نائب القلعة[٢] . فكانوا أشبه بجواسيس للسلطان على النائب الأصلى ، حتى لايستقل بنيابته ؛ فهم يحلفون يمين الطاعة للسلطان عند تعيينهم[٣] .

وكان للشام أجمعه رئيس يسمى : نائب الشام[٤] ، يوجد فى دمشق أو حلب ، وهو يشرف على جميع النيابات ، بما فيها من الموظفين والأموال. ومثل السلطان فى مصر له وزير وحاجب حجاب[٥] ، وناظر النظار المال ، حيث يتبعه فى بقية النيابات من يسمى ناظر المملكة[٦] ، وصاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السر ، وإن كان للنيابات الأخرى دواوين إنشاء بأسماء أخرى ، مثل : ديوان المكاتبات فى طرابلس ، وكاتب درج فى غزة[٧] ، وأيضاً له قضاة القضاة فى دمشق ، الذين يمثلون المذاهب الأربعة ، حيث يولى قاضى القضاة الشافعى القضاة فى كل بلاد الشام على أساس المذاهب

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ س ٥ ؛ صبح ، ٥ ص ٤٥٥ ؛ انظر . : Sauvaget :
Décrets Mamelouks de Syrie, 2,ème article,
nos 20, p. 5; 28, p. 14. ; 29, p. 15.

(٢) صبح ، ٤ ص ١٨٤ — ١٨٥ ، ١٣ ص ٩٩ فما بعدها ؛ انظر . Sauvaget :
Op. cit, 3, ème article, n 40, p 15.

(٣) العمرى ، التعريف ، ص ١٤٨ — ١٤٩ ؛ صبح ، ١٣ ص ٣٠٨ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ س ٧ ؛ انظر . Sauvaget :
Op. cit, 2ème article, n 31, p. 17; 3ème article n 5, p. 37.
انظر تقليد أحدهم . صبح ، ١٢ ص ٨ — ١٢ .

(٥) صبح ، ١٢ ص ٢٤ — ٢٥ ؛ انظر Sauvaget :
Op. Cit, 2ème, n 31, p. 17.

(٦) صبح ، ٥ ص ٤٦٥ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ١٨٩ ، ١٢ ص ٨٩ ؛ المقصد، ورقة ١٤٦ ؛ زبدة ، ص ١٣١ ؛
انظر . Demomb : Syrie, 152 (2).

الأربعة – وذلك لتميز هذا المذهب فى الدولة المملوكية[١] – وحتى قاضيين للعسكر يمثلان مذهبي الشافعى والحنفى ، ومفتيين لهذين المذهبين فى كل نيابة[٢] ، ومحتسبين فى كل النيابات[٣] ، وولاة المدينة[٤] ، الذين يشبهون الشرطة فى مصر ، وغير هؤلاء من الموظفين على مختلف مراتبهم . وكان لكبار المماليك منهم ، إقطاعات فى مصر ، وإقطاعات فى نياباتهم[٥] .

أما بقية أقاليم الإمبراطورية فى الجزيرة العربية فى الحجاز أو فى اليمن أو فى برقه وطرابلس ، فإنها كانت مستقلة عن الإدارة المصرية ، ولا نعرف شيئاً هاماً عن تنظيمها الإدارى ، وإن سمعنا عن نيابة جُـدة أو بندر جُـدّة[٦] ، ونيابات مكة والمدينة ، مما يدل على إشراف مباشر عليها ، ربما بسبب التجارة ، أو أهميتها الدينية[٧] .

* * *

هذا هو التنظيم الديوانى فى مصر ، يبين سير دولاب العمل الإدارى فى عهد المماليك .

---

(١) صبح ، ٤ ص ١٩٢ .

(٢) نفسه ؛ انظر . Sauvaget : Op. cit. 2ème, no 30, p. 16. فقط عن قاضى العسكر الشافعى والحنفى .

(٣) صبح ، ٤ ص ١٩٣ ، ٢٣٨ ؛ انظر . Ibid, 3ème, n 5, p. 37

(٤) صبح ، ٤ ص ١٨٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ؛ انظر . Tyan : Op. Cit 2, p. 377.

(٥) النجوم (P) ، ٦ ص ٢٤٣ س ٦ و ١٣ ؛ صبح ، ٤ ص ١٨٤ ؛ انظر . Demomb : Syrie, p. CVII.

(٦) السلوك ، ٢ ص ٤٣٦ ؛ السخاوى ، الضوء ، القاهرة ١٣٥٣ ، ١ ص ١٨٤ ، عن جدة ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٦٧ – ٦٨ .

(٧) المقصد ، ورقة ٩٦ ب فما بعدها ؛ السخاوى التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ ، ص ٦ .

الفصل الرابع

النظم الدينيـــة

القانون — القضاء — النظر فى المظالم — الحسبة — الشرطة

يطلق على مناصب رجال الدين فى الدولة : الوظائف الدينية . وقد اتبع المماليك نفس التنظيم الدينى السابق الموجود فى مصر وفى الدول الإسلامية ، وهو : القضاء ، والنظر فى المظالم ، والحسبة ، والشرطة .

* * *

القانون : الشريعة — السياسة الشرعية .

ونحن نعرف أن الأيوبيين قد عملوا على إحلال الشريعة السنية مكان الشيعية ، التى كانت أساس الحكم فى الدولة الفاطمية ومنذ ذاك والشريعة السنية قائمة أيضاً فى دولة المماليك . فكان التشريع السنى له أهميته ليس فقط من حيث استنباط الأحكام ؛ وإنما يؤيد أيضاً سلطة الدولة ، التى أصبح طابعها سنياً. وفى الواقع ، أنه لا انفصال بين القانون والعقيدة فى نظم الدولة الإسلامية ؛ فالشريعة جزء من الدين .

ومن غير جدال ، لم يكن هناك اختلاف بين الشريعتين ، السنية والشيعية ؛ فالشرع فى كلاهما شجرة لها أصول وفروع ؛ فالأصول القرآن والحديث ، والفروع هو تطبيق الأصول وتفسيرها ، وهو ما عُرف أيضاً بالفقه . وقد جعل الشيعة هذه الأخيرة فقط من حق الإمام [١] ، بينما السنة جعلت الفقه

---

(١) علىّ بن محمد ، تاج العقائد ومعدن الفوائد ، ترجمة Ivanow ، بعنوان : A Creed of the Fatimids. Bombay, 1936, p. 37 ؛ انظر . المحمصانى ، فلسفة التشريع فى الإسلام ، بيروت ١٣٦٥ هـ ، ص ٦١ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ١ ص ١٣٨ .

مطلقاً بين علماء المسلمين ، مما كان داعياً لظهور منصب مفتى المسلمين ، الذى أصبح يفيد الدولة فى استنباط أحكام الإسلام فكان فى عهد المماليك يوجد المفتى لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة[١] .

وفى عهد المماليك على الخصوص ، ظهر — على حسب قول المقريزى[٢] — ما يُعرف بالسياسة الشرعية ، لتكون أساس القانون أيضاً ، وذلك دون الاتجاه إلى أحكام الشرع . فهذه السياسة الشرعية لم تُعرف فى مصر أو حتى فى العالم الإسلامى من قبل ، إذ هى ليست نظاماً قضائياً إسلامياً ، وإن نُسبت إلى الشرع ، فلتأخذ صبغة إسلامية . وإنما هى فى الأصل نظام مغولى ، مأخوذ عن قوانين جنكيز خان ، أصله ليس فى كلمة سياسة — التى لها اشتقاق عربى — ولكن فى كلمة « ياسة » أو « يزق » المغولية ، وإن حُرّفت إلى سياسة لكى تقرّب إلى أذهان المسلمين . ولذا أُعتبرت السياسة الشرعية من ظلم الطبقة العسكرية المملوكية ، بحيث يقول عنها المقريزى : إنها عبارة شيطانية ‌قُصد بها أن تندمج مع الشرع بحسب السياسة . ومع أن السياسة الشرعية كانت فى أول الأمر تتعلق بشئون الطبقة العسكرية وحدها ، بالفصل فى أمورهم ، وفيما يقوم من مشاكل بينهم ، ولكن فى النهاية أصبحت تتدخل فى أمور الشرع وأحكامه وتلغيها ، وتأخذ مكانها .

حقاً إننا نعرف أن الترك والمغول من جنس واحد ، وأن الدولة المغولية الكبرى عاصرت دولة المماليك فى مصر ، ولكننا لا نتصور بأن المماليك المسلمين أتوا بالقوانين المغولية الوثنية ليطبقوها فى مصر . فاستخدام

---

(١) صبح ، ٤ ص ٣٦ ، ٤٥ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٤٠ [يذكر المقريزى مفتى الشافعية فقط ، مما يبين وجود أكثر من مفتى] . انظر أيضاً عن المفتيين . الخطط ، ٤ ص ٥٩ س ٣ ، ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ٢٣ ؛ Ency. (art Fatwâ) t2, p. 98.

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٥٧ — ٣٥٨ ؛ انظر ، Tyan :
Histoire de L'organisation Judiciaire en pays d'Islam. Paris. 1943. 2, p. 161 sqq.

السياسة فى القضاء الإسلامى ، كان أمراً معروفاً فى تقاليد الفقهاء المسلمين ، بمعنى الإجراءات التى تتبع لإصلاح أمر ؛ حتى أن الماوردى يذكر السياسة ويجعلها مقابلة للتدبير [1] . ويبدو أن استخدام المماليك — وهم طبقة غريبة على أهل الشرق — لبعض أعراف لهم ، جعل الأمر يختلط على المقريزى ، وظنها قوانين جديدة ، حلت محل الشرع الإسلامى . ومن ناحية أخرى ، قد يكون المماليك بالغوا بحق فى استخدام السياسة ؛ بحكم أنها غير مقيدة بأحكام الشرع ؛ وعلى أساس أنهم طبقة عسكرية متعسفة . ومع ذلك ؛ فنحن لم نسمع بأن القضاة المسئولين عن تطبيق الشرع استخدموا هذه السياسة الشرعية ، وإنما الذين استخدموها هم المماليك وحدهم . وليس لدينا أحكام بهذه السياسة الشرعية ، حتى نقول إنها قوانين جديدة ، أخذت مكان الشرع الإسلامى .

٭

القضاء : قضاة القضاة — توليتهم — اختصاصاتهم — مساعدوهم — جلوسهم للقضايا — اختيارهم .

منذ أن أصبحت مصر مركزاً للخلافة الفاطمية ، أصبح يوجد فيها منصب قاضى القضاة [2] . ويكون مقره فى القاهرة ، بعد أن كان القضاء تابعاً لقاضى القضاة فى بغداد ؛ أى أن مصر على يد الفاطميين استقلت قضائياً . فكان قاضى القضاة فى عهـــد الفاطميين يكون بالضرورة إسماعيلياً ، واستمر ذلك طول عهد الدولة الفاطمية ؛ إلا حينما حدث فى عهد الوزير أحمد بن الأفضل ، الذى كان يحقد على هذه الدولة ، فولى قاضياً

---

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانيـة ، مصر ١٩٠٩ ، ص ٦٥ س ١ ، ٦٦ س ٢٤ — ٢٥ .

(٢) ظهر هذا اللقب فى عهد العزيز ، ثانى خلفاء الفاطميين فى مصر . أنظر الكندى ، الولاة والقضاة ، تحقيق Guest ، ط . London ، ١٩١٢ ، ص ٥٨٩ — ٥٩٠ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٤١ فما بعدها

شافعياً وآخر مالكياً وثالثاً إسماعيلياً ورابعاً إمامياً[١]. ولكن لما تولى صلاح الدين وزارة العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وقامت الأيوبية من سلالته، وحتى في أوائل المماليكية، استمر العمل بقاضي قضاة واحد، كان بالضرورة من الشافعية. وحتى لما عين قاضٍ آخر معه، جُعل لقب قاضي القضاة لواحد، فقط هو الذي يشرف على القاهرة والوجه البحري، أما من يُشرف على مصر والوجه القبلي، فيسمى فقط: بالقاضي[٢].

ومنذ سلطنة بيبرس إلى سقوط دولة المماليك[٣]، عين أربعة قاضي قضاة، استقل كل واحد منهم عن الآخر، يسمون الحكام الأربعة، كل منهم يحكم بمذهب، هم: الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي. فلعل بيبرس لم ير أن يجعل الشافعي يسيطر وحده على القضاء في مصر، وقيل إن ذلك من المصلحة العامة. ومع ذلك، بقى لقاضي قضاة الشافعية الأولوية، بأن أضيفت له مهام زائدة؛ وذلك راجع طبعاً لأن أهل مصر كان معظمهم شافعية. ومن الطريف أن المذهب الحنفي كان يليه في المرتبة، والسبب في هذا أن المماليك وهم ترك، كان أغلبهم على مذهبه[٤]، الذي — بملاحظة المؤرخين — لم يكن له في مصر قبل المماليك كثير من الأتباع[٥]. ويليه المالكي، الذي كان أول مذاهب السنة التي انتشرت بين المصريين[٦]؛

---

(١) حسن المحاضرة، ٢ س ٩٩٠.

(٢) نفسه، ٢ ص ٩٧ س ٥، ٨؛ ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، مخطوط بدار الكتب، برقم ٢١١٥، ورقات ١٧٦ — ١٨٧.

(٣) صبح، ٤ ص ٣٥ — ٣٦، ١١ س ١٧٤ فما بعدها؛ الخطط، ٤ ص ١٦١؛ زبدة، ص ٩٢؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ٩٩ — ١٠٠. يحدد السيوطي لهذا التغيير عام ٦٦٥/١٢٦٦ — ١٢٦٧، بينما القلقشندي يحدده لعام ٦٦٣/١٢٦٤ — ٥؛ ونرجح تاريخ القلقشندي؛ لاشتغاله في الدواوين.

(٤) معجم البلدان، ٥ ص ٢١٢ س ١٨.

(٥) الخطط، ٤ ص ١٦١ س ٢٠. يقول اشتهر في آخر الأيوبية؛ وذلك طبعاً لوجود المماليك.

(٦) الخطط، ٤ ص ١٤٥. عن مالك، انظر. وفيات، القاهرة ١٢٩٩ هـ، ٢ ص ٢٠٠ فما بعدها.

إلا أن مذهب الشافعى طغى عليه ؛ فالشافعى جاء بنفسه إلى مصر ودفن بها (ت ٢٠٤/٨١٩)، وخص بعلمه أهل مصر[١]. وأخيراً المذهب الحنبلى ، الذى لم تكن له أرض فى مصر ، وإنما كان نفوذه فى العراق ، حيث قضى عليه فيها بسقوط الخلافة العباسية فى بغداد على يد المغول ، فانتقل إلى مصر[٢].

أما عن تعيين قاضى القضاة ، فى عهد الفاطميين كان يعين بالضرورة من قبل الخليفة ، ثم أصبح يعين من قبل وزير التفويض فى آخر حكمهم ، الذى سيطر على القضاء وتسمى بكافل قضاة المسلمين[٣] ، أما من يقوم من قبله فيسمى فقط بالقاضى . ولما جاء الأيوبيون ، ومن بعدهم المماليك، كان الذى يقوم بتعيين قاضى القضاة السلطان . وحتى لما أقيم نظام الخلافة العباسية فى مصر ؛ فإن الخلفاء لايتدخلون فى تعيين قضاة القضاة[٤] . وربما يكون تمسك السلطان بذلك ، راجعاً إلى استخدام قضاة القضاة فى تقليده السلطة مع الخليفة ، وتقليدهم الخليفة أيضاً ؛ فهم أداة فى يده .

وكانت تولية قاضى القضاة فى عهد المماليك تصحب برسوم فخمة[٥] ؛

---

(١) حسن المحاضرة ، ١ ص١٢١ فما بعدها ؛ الخطط ، ٤ ص ١٤٥ . منه ، انظر ، وفيات ، ٢ ص ٢١٤ فما بعدها .

(٢) الخطط ، ٤ ص ١٦١ س ٢٠ – ٢١ . أنظر المقالة القيمة :

Le hanbalisme sous le Califat de Bagdad. R. E. I, : Laoust . 1959. 67 - 128.

Le hanbalisme sous les Mamlouks Bahrides. R. E. I., ; 1959, 1 - 72.

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٨٦ – ٧ ، ١٠ ص ٤٢٩ س ١٤ – ١٥ ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٤٦ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٤٢ – ٣ .

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ٢٨ .

(٥) مثلاً : السلوك ، ١/٣ ص ٧٧١ ؛ ابن حجر ، تحقيق ، ٢ ص ٤٠١ .

وضعت أسسها فى عهد الفاطميين . فلابد أن تعلن توليته على الملأ ؛ فبعد تقليده القضاء ، يشق الشوارع من القلعة فى موكب حافل ، وقد لبس خلعة القضاء ، محاطاً ببطانة من الفقهاء والشهود .

وكان لابد أن يكون لبسه السواد الذى يرمز إلى شعار المذهب السنى ؛ إلا فى الصيف فيلبس لباساً أبيض[1] ، وكان لابد أن يكون من الصوف وليس من الحرير ، دلالة التقوى . فيلبس على رأسه عمامة كبيرة للغاية « شاشية أو شاش » ، يترك فيها طرف طويل « ذؤابة أو عذبة » ، أصبحت من زىّ القضاة وحدهم[2] ويلبس على بدنه ، فوق ثيابه ، لباساً واسعاً « فرجية » — أصبحت تعرف بفرجية العلماء ، وتسمى أيضاً دلقاً — متسعة الأكمام ، مفتوحة فوق كتفيه ، وسابلة على قدميه ، وأحياناً مزودة بالأزرار[3] . كذلك يلبس الطرحه[4] — جمعها طراحات ، وهى تشبه الطيلسان المقور الصلب — عبارة عن قماش يســتر العمامة ، ويتدلى على الظهر حتى الكعبين ، وهو زىّ مشترك مع زى أرباب الوظائف الديوانية

---

(١) عن ذلك بتفصيل ، انظر . صبح ، ٤ ص ٤١ — ٤٢ ؛ وأيضاً : Mayer : Mamluk Costume, p. 49; 51 - 2.

عن لبس الصوف ، انظر . حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠١ س ١٥ — ١٦ .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٣٠٥ س ٢٢ . عن كبر العمامة ، يقول ابن بطوطة ، إنها كبيرة ، حتى كادت تملأ المحراب انظر . تحفة النظار ، القاهرة ١٩٣٨ ، ١ ص ١٠ .

(٣) عن « فرجية » ، انظر . Dozy : Dict. des Noms des Vêt, 327 - 334

عن « دلق » ، (انظر . Ibid,183-185) ؛ انظر أيضاً : Dozy : Suppl, 1, p. 458; 2, p. 248.

(٤) الخطط ، ٢ ص ٣٥ س ٢٠ ٢١ . عن طيلسان ، انظر . Dozy : Vêt, 279 ؛ وأيضاً : Reuber Levy : Notes on Costume from Arabic Sources J. R. A. S. Avril, 1935, p. 334, n5 . أما عن لفظة المقور ، فانظر . Dozy : Suppl, 2, p. 418.

أيضاً ، انظر . Tyan : Org. Jud, I, p. 305 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٩٠ ، وقبله .

أرباب العمائم » ، مع أن الطيلسان فى زمن الفاطميين ، كان من زىّ القضاة.
أما فى رجليه ، فيلبس الخفاف من الأديم . وهو لا يركب إلا البغال ، التى
لها سروج نفيسة غير محلاة بشىء من الفضة ، موضوعة على كسوة من الصوف
« الجوخ » ، تغطى كل جسم البغلة حتى ذيلها « زُنّارى أو كنبوش[1] » ،
أما اللجام فهو ثقيل بمعادنه .

وقد امتدت سلطة قاضى القضاة واتسعت اتساعاً لم يحدث من قبل ؛
وإن اقتصرت على مصر وحدها ، ولم تمتد على القضاء فى أجزاء الامبراطورية،
كما كان الحال فى أيام الفاطميين[2] ؛ فقد كان يعين قضاة للمذاهب
الأربعة فى الشام[3] . كذلك وجدنا غير قضاة القضاة هؤلاء قضاة للعسكر
فى مصر يمثلون المذاهب : الحنفى والشافعى والمالكى فيما عدا الحنبلى[4] ،
وقضاة للعسكر فى الشام يمثلون: المالكى والحنبلى ؛ مع أن قضاء العسكر لم يكن
منفصلاً فى أيام الفاطميين عن وظيفة قاضى القضاة[5] ؛ فكان قضاء العسكر
يشمل شئون العسكر ومن يتصل بهم ولا ريب ، فإن دولة المماليك دولة
عسكرية ؛ فكان شهود قضاء عسكرها من الأجناد ، الذين تُقبل شهادتهم[6] .
ولكن اتساع سلطة قاضى القضاة جاء من ناحية أن بعضها لا يشمل
أموراً قضائية صرفة ، بل يتضمن أموراً ليس لها علاقة بالقضاء ، ولكنها

---

(١) صبح ، ٤ ص ٤٢ ؛ انظر . Demomb : Syrie, XCIV
من هذه الكلمات ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 606; 2, p. 492
يقال أيضا كنفوش .
(٢) الولاة ، ص ٥٩٩ — ٦٠٠ ؛ انظر ، ماجد « نظم الفاطميين » ١ ص ١٤٤ .
(٣) صبح ، ٤ ص ١٩٢ ؛ زبدة ، ص ١٣١ ؛ انظر . قبله . هؤلاء وجدوا بعد
تعيين القضاة الأربعة فى مصر ، كما أنهم لم يوجدوا دفعة واحدة مثلما حدث فى مصر ، ولكن
بالتدريج ؛ وإن كان أقدمهم الشافعى .
(٤) المقصد ، ورقة ١٣٠ ؛ صبح ، ٤ ص ٣٦ ، ١٩٢ ؛ انظر . Sauvaget :
Décrets, 2ème article, no 30,p.16.
(٥) الولاة ، ص ٥٨٦ س ١٧ ، ٥٩٠ .
(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٣٥ س ١٠ — ١٤ .

ضُمت إليه على حسب العرف والاصطلاح ، حتى أن أحد قضاة القضاة تولى خمس عشرة أو سبع عشرة وظيفة[١]. فمنها على الخصوص[٢]: الخطابة فى الجامع الأعظم بالقلعة ، والإشراف على الأوقاف ، وتعليم العلوم الشرعية ، وإدارة المدرسة وأوقافها : « نظر المدرسة » ، والنظر فى بيت المال ، ونظر الجيش الذى يُشرف على إقطاعات المماليك ، ونظر الجوالى ، ونظر الخاص ، ونظر الخزانة — وهى للخلع أو التشاريف — ونظر البيوت فى قصر السلطان ، ونظر دار الضيافة ؛ إلى غير ذلك

كذلك قد يشمل اختصاص قاضى القضاة اختصاص بعض الموظفين الكبار الديوانيين ، مثل : كتابة السر[٣] ، ونظر الدولة[٤] ، أو حتى منصب الوزير[٥] . يُضاف إلى هذا أنه كان لقضاة القضاة دور سياسى ؛ فكان السلطان يستشيرهم فى كل مهام السياسة العليا ؛ إذ كانوا الصلة بين السلطان والشعب ؛ فهم يسمون: أهل الحل والعقد[٦]. وقد جعلهم السلطان بالضرورة أساساً لبيعة الخليفة وأداة لعزله ، كما كانوا يبايعون السلطان نفسه .

كذلك كان للقضاة اختصاصات يذكرها لهم المؤرخون فى كل العصور ، وهى : النظر فى أموال المحجور عليهم ، ووصايا المسلمين ، ولاسيما أموال

---

(١) زبدة ، ص ٤٩ ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠٠ س ٢٠ ؛ النويرى ، نهاية ، ٢٩ ورقة ٢٩٩ ؛ السلوك ، ١/٣ ص ٧٧٣ س ٩ ؛ انظر . Tyan : Org. Jud, 2, p. 12 - 13.

(٢) عن بعضها ، انظر . الخطط ، ٣ ص ١٤٧ ، ٣٦٩ ، ٤ ص ٨٧ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ؛ صبح ، ١٢ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٦٢ س ٨ ، ٢ ص ٢٩ س ٣ — ٤ ، ٤٢ س ١٣ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠٠ س ٧ ، ٨ ، ٢٢ ، ٢٣ . أنظر . تقليد أحدهم : صبح ، ١١ ص ١٩٨ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٦٦ — ٧ ؛ النجوم (P) ، ٦ ص ١٦٦ س ١٠ — ١١ ، ٣٢٥ س ١٢ — ١٣ ، ٤٢٠ س ١١ — ١٢ .

(٤) الخطط ، ٤ ص ١٢٥ س ٢ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٤٦ س ٢٤ ؛ ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ، ٢ ص ٣٢٧ .

(٦) الخطط ، ٤ ص ١٢٥ س ١٧ .

اليتامى والغائبين[١] ،حيث أفرد لها المماليك مكاناً خاصاً فى القاهرة ، عُرف باسم : « مودع الحكم[٢] »، يُشرف عليه رجال مختصون من قبل القاضى، يُسمون : « الأمناء » أو « أمناء الحكم »

وقد كان لكل قاضى قضاة أعوان ينوبون عنه فى مصر والقاهرة ، يسمون : النواب من الحكام[٣] . فكان لكل منهم أن يستنيب من يشاء، ولكن بأمر السلطان[٤] وقد حاول أحد السلاطين أن يحدد عدد النواب بثلاثة لكل قاضى قضاة ؛ إلا أنه لكثرة اختصاصاتهم ، لم يتقيدوا بهذا العدد ، حتى بلغ نوابهم مائة وستة وثمانين بالقاهرة وحدها ، بل إن هذا العدد تضاعف[٥] . وقد كان أغلب النواب فى عهد الأيوبيين وفى أول حكم المماليك من الشافعية ، وأقلهم من المذاهب الأخرى ؛حيث كان قاضى القضاة الشافعى ، هو الذى يستنيبهم جميعاً[٦] فلما عُين القضاة الأربعة ، أصبح لكل قاضى قضاة أن يستنيب نوابه من مذهبه ومع ذلك،وجدنا قاضى قضاة الشافعية له وحده الحق[٧] ، فى تعيين النواب له فى الأعمال ؛ حيث يذكر المؤرخون اسم :

---

(١) المقدمة لابن خلدون ، ص ١٧٥ ؛ التعريف ، ص ١١٦ — ١٢٣ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠٠ س ٨ ؛ انظر . Tyan : Org. Jud. 2, p. 28 sqq .

(٢) الخطط ، ٣ ص ١٤٩ س ١٨ — ١٩ . كان يوجد فى فندق مسرور . نفسه ، ٣ ص ٣٣٥ س ٣ — ٤ .

(٣) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٩٩ س ١ ؛ صبح ، ٤ ص ٣٦ ؛ زبدة ، ص ٩٢ ؛ النويرى ، نهاية ، (دار الكتب) ٣٠ ورقة ١ ؛ ابن حبيب ، درة الأسلاك (B.N.) ، برقم ٤٦٨٠ ، ١ ورقة ٥٦ .

(٤) ابن قاضى شهبة ، الذيل على تاريخ الإسلام للذهبي ، مخطوط (B.N.) ، برقم ١٥٩٨ ، ١ ورقة ٢٢ ب .

(٥) النجوم (P) ، ٦ ص ٣٥٧ س ١١ — ١٣ . حدد عددهم فى أيام المؤيد شيخ على أساس للشافعى عشرة ، والحنفى خمسة ، والمالكى أربعة . نفسه ، ٦ ص ٣٥٨ .

(٦) ابن إياس ، ١ ص ١٠٣ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٩٩ س ٢٢ — ٢٣ .

(٧) صبح ، ٤ ص ٣٦ ؛ ابن بطوطة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ط ٢ ، ١ ص ٢٤ .

«قضاة العمل» لمن يعملون فى الأعمال(١)، و«قضاة الريف» لمن يعملون فى الريف. وهؤلاء لا يتركون وشأنهم؛ وإنما قاضى القضاة يستقصى أخبارهم(٢)، ويرسل لهم الكتب المشتملة على النصح فى سير العدالة(٣). ومع ذلك، فيبدو أن تعيين بعض القضاة فى المدن الكبرى مثل الإسكندرية يكون من قبل السلطان، الذى قلد بنفسه قاضيين. أحدهما شافعى والآخر مالكى(٤)

وبالإضافة إلى النواب، كان قاضى القضاة يختار جماعة من الشهود، الذين يعملون مع القاضى، يُطلق عليهم الشهود العدول جمع شاهد عدل؛ وذلك كما كان الحال فى جميع الدول الإسلامية. فيرى ابن خلدون أن الشهادة من الوظائف الدينية الهامة، وذلك للصلة الوثيقة بين الحكم والبينة؛ فهذه الأخيرة، هى الدليل الوحيد للحكم(٥). فكان الشهود العدول، الذين يستخدمهم قضاة القضاة أو حتى نوابهم يكونون بطانتهم.

ولدينا أعداد للشهود العدول، فهم ثلاثون شاهد عدل لأحد قضاة القضاة(٦)؛ كما وجدنا أن الشهود العدول فى مدينة قوص بأقصى الصعيد، قد بلغ عددهم أربعين عدلاً(٧)؛ مما يبيّن أن قضاة الأعمال والريف أيضاً كانوا يحيطون أنفسهم بأعداد كبيرة منهم؛ إذ نسمع عن شهود المراكز(٨).

وقد جرت العادة أن يكون اختيار هؤلاء الشهود العدول

---

(١) صبح، ٤ ص ٣٦.
(٢) حوادث، ص ٤٧ س ٤.
(٣) النويرى، نهاية الأرب، مخطوط دار الكتب، ٢٩ ورقة ٣١١ (أ)؛ السلوك، ٣/١ ص ٩٤٨ وحاشية.
(٤) صبح، ١١ ص ٤٠٨ — ٤١٤.
(٥) المقدمة لابن خلدون، ص ١٧٧ — ١٧٨.
(٦) حوادث، ص ٤٦ س ١٥.
(٧) حسن المحاضرة، ٢ ص ٥٣ س ٦.
(٨) ابن حجر، رفع الإصر، تحقيق حامد، القاهرة ١٩٦١، ٢ ص ٢٠٨ س ١٣.

عن طريق القضاة ، وهو ما عُرف : « بالتعديل » ، من الذين عُرفوا بالأمانة ، وعلى معرفة بالفقه[١] . ولذلك كان للقاضى أن يتصفح أحوالهم دائماً رعاية لشرط العدالة ولم يكن القاضى المعين حديثاً ، مُضطراً إلى الإبقاء على الشهود العدول ، الذين عينهم سلفه[٢] . بل كان له الحق فى إبطال عدالة من يريد[٣] .

وقد كان الشهود العدول يوجدون أينما وجد القضاة ، وهم يكونون طائفة مهنية متميّزة ، حتى أنهم فى زمن ابن خلدون كانت لهم دكاكين ومصاطب ، يختصون بالجلوس عليها ؛ حيث يأتى إليهم أصحاب المعاملات للإشهاد[٤] .

والواقع أن الفصل فى المنازعات هو العمل الأساسى للقاضى والشهود. وقد استمر جلوس القاضى فى الجامع ، الذى لم يكن مكاناً للصلاة فحسب ، وإنما كان أيضاً مكاناً للفصل فى أمور الناس . كما كان للقاضى الحق فى أن يعقد جلساته فى البيت . كذلك قد تكون جلساته فى موضع واسع فى وسط البلد يعرفه الناس[٥] . فكان مكان جلوسه يُطلق عليه : « قاعة الحكم » ، أو « مجلس الحكم[٦] » .

وقد كان مجلس القضاة واحداً طوال عهد الفاطميين والأيوبيين ، وفى أوائل عهد المماليك . ولكن بمجىء بيبرس تعدد مجلس الحكم لوجود أربعة قضاة القضاة ، نتيجة الاختلاف فى المذهب . وقد كان تعدد مجلس الحكم يسبب

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٧ ، ٤٧٥ ؛ انظر أيضاً : ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ، ٢ ص ٣٢٨ .

(٢) ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ، ٢ ص ٣٧٧ .

(٣) الخطط ، ٤ ص ٦٠ س ٢٠ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٨ .

(٥) ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ، ٢ ص ٣٣٢ ، ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٢٠٨ .

(٦) ابن الأخوة ، ص ٢٠٧ .

حيرة المتقاضين ؛ حتى أن كل خصم يعمل على إنفاذ خصومه أمام القاضى الذى يختاره . وهذا ما وجدنا الفاطميين يعملون على تلافيه(١) ، حينما جاءوا مصر ، فلم يتسرعوا فى إلغاء القضاء السنى ، وأقاموا بجانبه القضاء الشيعى . ولكن لما تبيّنوا أن ذلك يُثير الاختلاف بين الخصوم ألغوا القضاء السنى، وأبقوا قاضياً شيعياً واحداً لقبوه بقاضى القضاة وقد كان الخصوم يحضرون بمفردهم أو معهم الوكلاء ، وهم أشبه بالمحامين ؛ حيث يصفهم ابن الأخوة بأنهم لا خير فيهم ، لأنهم يأخذون من الخصمين(٢) .

وكان مجلس الحكم يتكون من القاضى والشهود العدول ، وحاجب القاضى على الباب(٣) ، وكاتب الحكم الذى يسجل الأحكام(٤) ، وشخص يسمى : الجَنْلواز — جمعها جلاوزة أو جلاوين — يشرف على النظام فى مجلس القاضى ، ويحمل فى يده سوطاً(٥) ، وشخصية هامة هى الترجمان(٦) ، لعله بسبب وجود المماليك الترك ، أو وجود الأجانب بسبب اتساع التجارة .

وليس لدينا معلومات واضحة عن الإجراءات القضائية ، وإن كان قاضى القضاة ينظر فى قضايا متنوعة بدون تفرقة ، أى كان هناك نظام توحيد القضاء : فينظر فى القضايا الجنائية ، وقضايا السرقات ، وقضايا شرب الخمر ، والزنا ، والمواريث ، والوصايا ، والمناكحات ، والطلاق ، وقضايا الأحوال الشخصية .

---

(١) الولاة ، ص٥٨٤ و٥٨٧ ؛ ابن ميسر ، ص٤٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٥٠ .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ٢١٤ س ٦ ؛ ابن الأخوة ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٣) السبكى (م ٧٧١/١٣٧٠) ، معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق Myhrman ، ط. London ، ١٩٠٨ ، ص ٨٦ ؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٥٦ .

(٤) ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ، ٢ ص ٣٠١ .

(٥) عنه ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 207.

(٦) أوردها [illegible] ، تاريخ القضاء فى الإسلام ، القاهرة ١٣٥٢ / ١٩٣٤ ، ص١٣٩ ؛ على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٥٧ .

وبطبيعة الحال كان الحكم فى القضايا يسير وفق الشريعة السنية ، وكان للقاضى حق التصرف فى القانون وفق اجتهاده . ولكن قد يلجأ أحياناً إلى المفتى ؛ حيث يوجد « مفتى » لكل مذهب من المذاهب الأربعة . وفى زمن المماليك وحتى قبلهم ، ظهر علم يسمى : علم الفتاوى[١] ، يؤلف فيه القضاة وغيرهم[٢] ، وله كتب خاصة . ومع ذلك ، فلم يكن القاضى يتقيد بقول المفتين[٣] . والواقع أن حكم القضاة لم يكن كما هو فى وقتنا بقصد تقصى الحق ، وإنما كان أشبه بالتحكيم بين المتخاصمين ؛ فالقاضى لا يحكم إلا فيما يرفع إليه .

وقد كانت الأحكام والشهادة تسجل فى كتب خاصة ، تسمى : « السجلات »[٤] ، وهى عبارة عن الأرشيف القضائى . وكان إنشاء هذه السجلات يقتضى صيغة خاصة ، مأخوذة من الفقه وطرق الإنشاء ، حتى أنها عُرفت فى زمن المماليك بعلم : الشروط والسجلات[٥] . ولا مشاحة فى أن العادة قد جرت أيضاً فى كتابتها على أن يذكر القاضى اسمه ولقبه ومذهبه .

أما عن تنفيذ الأحكام التى يُصدرها القاضى ؛ فإنه كان يُعهد بها إلى والى الشرطة[٦] ، وهو أداة التنفيذ فى الدولة المماليكية . وقد كان للقضاة سجون

---

(١) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ط . استنبول ، ٢ ص ١٦٤ فما بعدها .

(٢) ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ، ٢ ص ٣٣٥ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠٨ س ١٠ .

(٣) الخطط ، ٤ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٧ .

(٥) نفسه ، ص ١٧٧ — ٧٨ ؛ ابن حجر ، رفع الإصر ، ٢ ص ٣٢٢ ، ٣٤٢ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ٢ ص ٥٨ . الشروط هى إثبات الأحكام والمعاملات . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 746

(٦) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٩٨ — ١٩٩ .

خاصة بهم ، يسجن فيها من يحكم القضاة عليهم ، فنسمع عن سجن القضاة ، أو سجن الحكم[١] .

مما سبق تتبيّن أهمية القضاء فى نظم الدولة المماليكية ؛ لذلك كانوا يختارون له أئمة الرجال المعروفين بعلمهم الواسع فى الشرع ؛ حيث كان معظمهم بالإضافة إلى اشتغالهم بالقضاء يعملون فى التدريس فى المدارس[٢] . كذلك كانوا يختارون من بين أئمة الدين ، وحتى من بين رجال الصوفية ، الذين كانوا طائفة كبرى فى أيام المماليك ولهم احترام خاص ؛ فكان كبير الصوفية له لقب : شيخ الشيوخ[٣] .

وكان القضاء يكفل فى أسر معينة ، شأن كل المناصب فى الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى . ولعل أهم أسرة تولته فى عهد المماليك هى أسرة بنى جماعة[٤] ، وهى من أصل عربى من كنانة ، تولته من ١٢٩١/٦٩٠ إلى ٧٨٥/١٣٨٣ ، أى ثلاثة أجيال ، ليس فى مصر فقط ، بل فى الشام أيضاً . ومع تغير السلاطين المستمر ، فإنهم كانوا هم يبقون .

كذلك كانوا يختارون قضاتهم لمصر من أى موطن إسلامى ؛ ماداموا عارفين بالفقه ، ومعروفين بالتدين . ولعل أشهر من عُين من الغرباء عن مصر فى قضاء المالكية فيها ، هو عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور[٥] ؛

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٤٣ س ٢٧ ؛ النويرى ، نهاية ، ٢٩ ورقة ١ .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) الخطط ، ٤ ص ٢٧٣ .

(٤) أنظر . السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٥ ص ٤٦ — ٤٧ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠١ — ٢ ؛ انظر . Salibi :

The Banû Jamâ'a Dynasty of Shâfi'ite Jurists. Stvdia Islamica, IX, Paris, 1958, p. 97sqq

(٥) ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ٢ ص ٣٤٥ . عن سيرته ، انظر . نفسه ، ٢ ص ٣٤٣ — ٣٤٨ .

وذلك على الرغم من أنه كان متعصباً ضد كل شيء فى مصر ، ويحب المخالفة فى كل شيء ، وأنه يزدرى الناس فيها ؛ حتى أنه لم يلبس زىّ قضاة مصر ، وإنما لبس زيّه فى المغرب .

ولكى يحتفظ القضاء بالعدالة ، كان القضاة يتسلمون مرتبات ثابتة ، تسمى : « معلوم[١] » — جمعها معاليم — قدرها أكثر من خمسين ديناراً شهرياً ؛ خلاف الخبز واللحم والزيت والشعير والكسوة . وكان مرتبهم يزداد بسبب إشرافهم على مناصب أخرى[٢] . فبالنسبة للتدريس ؛ فإن ما كان القضاة . يجنونه منه ، يؤخذ عادة من الأوقاف الجارية على المدارس[٣] ؛ لأن تدريس الدين عند المسلمين لم يكن يحق المدرس فيه أن يأخذ عنه مرتباً .

وكان للقضاة مثل غيرهم من موظفى الدولة المماليكية ألقاب رنانة ، حتى بلغت لأحدهم أكثر من تسعة عشر لقباً[٤] . وقد غلب عليهم تسميات : القضائى أو القاضوى ؛ وشاركهم فيها الموظفون الدينيون الآخرون[٥] .

وكان للقضاة بحكم منصبهم العالى ، ودورهم فى تعيين السلاطين والخلفاء مكانة سامية فى الدولة ، حتى أن أحد السلاطين كان يقبّل يد قاضى قضاته[٦] . كذلك كان السلطان يحميهم من الأمراء المماليك — وهم الذين عُرفوا

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ١٨ ؛ ٤ ص ١١٠ س ١٧ . مرتبات القضاة ، وذوى الأقلام ، وغيرهم كانت تصرف من سجلات خاصة ، تسمى : الاستيمار ، وهى كلمة تبدو فارسية ، ومنها : الاستيمارة الحالية . الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ س ١١ .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٦٤ ، ٤ ص ٢٢٢ س ١٩ ، ٢٢٣ س ٧ ، انظر . Org. Jud. 2, p. 94. : Tyan

(٤) فمثلاً لقب قاضى القضاة شهاب الدين فى دمشق ، أيام السلطان الأشرف خليل : القاضى ، الأجل ، الكبير ، الإمام ، العالم ، الفاضل ، الأثير ، الأكمل ، الأوحد ، الرئيس ، الزاهد ، شهاب الدين ، جمال الإسلام ، فخر الأنام ، شرف العلماء ، جلال الرؤساء ، فخر الأكابر ، شمس الشريعة ، صفوة الملوك والسلاطين . أنظر . الجزرى ، جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك ، مخطوط بباريس (B.N.) ، برقم ٦٧٣٩ ، ورقات ١١٠ — ١١٣ .

(٥) صبح ، ٥ ص ٤٥١ .

(٦) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠١ س ١٧ .

بقوة شكيمتهم ـ ويقف أمامهم ، وينكر عليهم معارضتهم أو عدم قبولهم أحكام القضاة[١] .

ومع كل هذا التكريم ؛ فيجب أن نشير إلى أن قدسية القضاء كثيراً ماضاعت فى دولة المماليك ، بسبب النزاع الدائم على الحكم فيما بينهم ، وتكالبهم على مصالحهم . ولذلك وجدنا كثيراً من القضاة الصالحين يعزلون أنفسهم[٢]. ومن ناحية أخرى ، وجدنا قضاة آخرين ، يرتكبون جرائم خلقية ، ويقبلون الرشوة[٣] . كما وجدنا المصريين يئنون من فساد بعض القضاة ، ويرسلون قصائد الشعر إلى السلطان ، ينتقدون فيها القضاة ، ويبينون عدم صلاحيتهم[٤] . فلعل كل ذلك يفسر تغيير القضاة الدائم ، حتى أن بعضهم لايمكث فى منصبه أكثر من أيام أو شهور .

٥

النظر فى المظالم : تحديد معنى كلمة « مظالم » — من ينظر فيه — جلوس المظالم .

هى نوع آخر من القضاء ، يرمى إلى منع الظلم[٥] . ولفظة : « مظالم » ، مفردها « مظلمة » أو « ظُلامة » من « ظَلَمَ » ؛ بمعنى إنتهاك حق شخص . وتُعتبر عند فقهاء المسلمين بمعنى الظلم ، الذى يأتى من التعدى أو الفساد فى الدولة ، الذى يعجز القضاة العاديون عن النظر فيه ، فيرفع أمره رأساً

(١) النجوم (P) ، ٦ ص ٤٢٧ س ١١ .
(٢) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠١ ؛ السلوك ، ١/٣ ص ٨٤٨ ـ ٩ .
(٣) ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق حامد ، ٢ ص ٣٢٨ ، ٣٣١ .
(٤) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠٣ .
(٥) عموماً ، انظر الخطط ، ٣ ص ٣٢٦ وما بعدها ؛ الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٦٤ فما بعدها : Amedroz :
The Mazalim, Jurisdiction in the Ahkam Sultaniyya, J. R. A. S, July, 1911. Tyan : Org. Jud, 2, p. 141 sqq.

إلى صاحب السلطة العليا ؛ فهو أشبه بقضاء الاستئناف الحالى ، وإن اتخذ اسم : « النظر فى المظالم » .

ولذا فحكم المظالم ليس بحسب الشرع كما فى القضاء العادى ، وإنما بالأولى إجراءات تتبع لإصلاح أمر ، حتى ولو لم تكن على حكم الشرع . وفى الأحكام السلطانية توافق لفظة « مظالم » كلمة « سياسة » ؛ ويقول الماوردى إن الذى ينظر فى المظالم يتبع السياسة والتدبير[1] . وقد بلغت السياسة فى قضاء المظالم أوجها فى عهد المماليك ، بحكم أنهم طبقة عسكرية متعسفة ، وهى ما اصطلح على تسميته فى وقتهم : « بالسياسة الشرعية » لربطها إلى حكم الشرع ، وجعلها نافذة الحكم كالشرع .

وهذا النوع من القضاء أخذه المسلمون فى الأصل عن الساسانيين ، وإن كان أول من مارسه رسمياً فى الإسلام هم الأمويون . كذلك يروى المقريزى ، أن حكام مصر الإسلامية منذ ابن طولون ، دأبوا على القيام به . وقد تحقق المماليك من الأهمية الكبرى لقضاء المظالم ، فمارسوه بنشاط لم يُعرف قبلاً . فهو وسيلة المحافظة على سمعتهم كطبقة حاكمة عادلة ، يتقربون بها إلى الشعب ، ووسيلة لتطهير دولتهم من الفساد بين موظفيهم .

وكان الذى يقوم به بالضرورة هو السلطان ، كما كان الحال بالنسبة لحكام مصر المسلمين من قبل . ومع أن هذا المنصب فى الإسلام يكون من سلطة الخلفاء ، يقومون به أو ينتدبون فيه ؛ فإن السلطان المماليكى استمر يشرف عليه بنفسه[2] ، حتى لما أقيمت الخلافة العباسية فى مصر . ولكن لإنشغال السلطان بأمور الدولة ، كان أحياناً يستنيب عنه فيه نائب السلطنة أو النائب الكافل (٣) ، وهو الذى عرف بالسلطان المختصر ، أو يعهد

---

(١) الماوردى ، الأحكام ، ص ٦٥ س ١ ، ٦٦ س ٢٤ — ٢٥ ؛ انظر قبله .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٦ س ٥ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤٩ . عنه ، انظر . قبله .

به إلى حاجب الحجاب[١] ، وهو رجل سيف كبير ، يلي نائب السلطنة في المرتبة ، ومنصبه بجوار عرش السلطان « تحت الملك » ، وكلاهما من موظفي السلطان ؛ مما يدل على تمسك السلطان بالإشراف على المظالم . كذلك قد يعهد السلطان بهذا المنصب إلى الوزير[٢] أو غيره ؛ فهذا المنصب من الناحية الفنية – كما يظهر في كتب الفقهاء – يقوم به رجل عظيم الرهبة ، عالي اليد ، له سطوة الحماة[٣] ؛ إذ ترتكز على هذا المنصب هيبة الدولة . ومن الملاحظ ، أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا على معرفة بالشرع كرجال القضاء ؛ وإنما بالأولى يحكمون بالسياسة والتدبير .

ولما كان هذا المنصب يتبع السلطة العليا مباشرة ؛ فإن نظر المظالم يُعقد بالضرورة في العاصمة بالقلعة مقر السلطان ، ولا يعقد في المسجد أو في الدور ، أو حتى في الأعمال أو الريف ، كما يعقد القضاء العادي . وقد أنشأ بيبرس لهذا القضاء – لأول مرة في مصر – في عام ٦٦١/١٢٦٣[٤] ، مكاناً خاصاً في القلعة . عُرف ، : « بدار العدل » ؛ وذلك مثل دار العدل التي كانت في دمشق زمن نور الدين . حتى أصبحت دار العدل تعني مكان نظر المظالم . لذلك لما بنى الناصر محمد بن قلاوون في ٧٢٢/١٣٢٢[٥] ، قاعة جديدة للمظالم عُرفت : « بالإيوان الكبير » ، سميت أيضاً « بدار العدل » ، ولتمييزها عن الدار التي بناها بيبرس ، سميت : « دار العـــدل القديمة » ، حيث

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٥٦ – ٣٥٧ ؛ القدمة ، ص ١٩١ ؛ زبدة ، ص ١١٤ – ١١٥ ؛
Corpus, I, p. 567 ؛ انظر . Ency. (art Hâdjib) t2, 319
خرجت عن منطوقها الذي عرف من قبل* ، بمعنى الذي يحجب السلطان عن الرعية ؛ كما أننا نسمع عن منصب البواب . ابن إياس ، ٢ ص ٤٠ س ٢٦ .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ١٢٣ س ٨ – ٩ .

(٣) الماوردي ، الأحكام ، ص ٦٤ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٣٨ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٣٨ . يذكر أيضاً أن الذي بناها هو قلاوون ، أبوه . نفسه ، ٣ ص ٣٣٣ س ١٧ .

ما لبث أن هدمها الناصر . كذلك أنشأ برقوق (٧٨٤/١٣٨٢ – ٨٠١/١٣٩٨) ، قاعة جديدة للمظالم عُرفت باسم : « الاصطبل السلطانى »[1] . وكان نظر المظالم ينظر فى أماكن أخرى ، مثل : « قاعة الدكة »[2] فى داخل القصر ، ودار النيابة ، التى بُنيت لنائب السلطنة فى أيام قلاوون سنة ٦٨٧/١٠٩٤ ، حيث كان فيها « شُبّاك »[3] ، يجلس فيه النائب للتظلمين ، وفى الميدان[4] ، الذى تحت القلعة ، وحتى فى أثناء موكب السلطان[5] .

وقد جرى حكام الإسلام عند النظر فى المظالم ، أن يحددوا لها أوقاتاً معينة[6] ، لا تتعدى يومين فى الأسبوع ، وهى غالباً صبح الإثنين والخميس ؛ وإن غيّرها برقوق بعد ذلك ، وجعلها الأحد والأربعاء ، وغيّرها ثانية إلى الثلاثاء والسبت ، وأضاف الجمعة بعد الظهر[7] ؛ وهى تعقد فى كل أسبوع طول السنة ، ماعدا شهر رمضان[8] .

وكان للمظالم جلوس واحد ، وذلك على عكس القضاء العادى ، الذى كان له عدة جلوسات ، على حسب المذاهب الأربعة . فكان السلطان هو الذى يرأس المجلس[9] ؛ بحيث أصبح وجوده فيه ، يُعتبر من رسوم الدولة[10] . فيحاط حضوره بمظاهر الأبهة والقوة ، فيمثل فيه جميع عناصر الدولة

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٣٦ .
(٢) النجوم (P) ، ٧ ص ٧٤٥ .
(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ – ٣٤٩ ؛ صبح ، ٣ ص ٣٧٤ .
(٤) ابن إياس ، ١ ص ٢٩٢ .
(٥) صبح ، ٥ ص ٤٥٠ .
(٦) الماوردى ، الأحكام ، ص ٦٦ .
(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٣٨ .
(٨) نفسه ، ٣ ص ٣٣٩ س ٨ ، ٣٤٠ س ١ .
(٩) نفسه ، ٣ ص ٣٣٩ – ٣٤٠ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٤ – ٤٥ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٣ ، ابن بطوطة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١ ص ٢٥ .
(١٠) الخطط ، ٣ ص ٣٣٦ س ٣١ .

وموظفيها الكبار ، الذين يقل عددهم أو يزيد على حسب الحاجة. فمن رجال الديوان ، مثلاً : الوزير ، وكاتم السر ، والوكيل عن بيت المال ، وناظر الجيش ، وناظر الخاص . ومن الدينيين : القضاة الأربعة ، وقضاة العسكر[١] ، ومحتسب القاهرة . ومن رجال السيف : الأمراء وهم قواد الجيش ، وكبار رجال البلاط ، وعلى رأسهم نائب السلطنة ، وحتى أمراء المشورة ، المخصصين لاستشارة السلطان .

وقد كان يشترك فيه موظفون متخصصون لهذا القضاء ، مثل : جماعة من الموقعين المعروفين بكتاب الدست ، وذلك لكتابتهم على الدست ، وهو الدرج ؛ فلعلهم كانوا ينتقلون من ديوان الإنشاء إلى هذا المجلس ، أو على الأقل يكون بعضهم قد تخصص لهذا القضاء[٢] ، ومفتو دار العدل ، الذين تؤخذ آراؤهم الشرعية ، حيث وجد لكل مذهب مفتيه[٣] ، والحجّاب الذين ينظمون دخول المتظلمين ، وحتى « الدودار » ومعاونوه « الدوادارية »[٤] ، وهم الذين يجمعون الشكاوى ، وهذا يدل على طابع نظر المظالم الخاص ، وهو طابع السلطة العليا ، الممثلة فى السلطان أو من ينوب عنه وبالضرورة حرس السلطان .

وقد كان جلوس أعضاء المجلس على حسب طبقاتهم بترتيب معين دقيق ؛ وإن اختلف من مجلس إلى آخر . فكان جلوس السلطان وحواليه الموظفون فى حلقة دائرة فى الغالب . فيجلس السلطان فى وسط المجلس على كرسى ، وليس على العرش « تخت الملك » ، إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجليه ، أو حتى يجلس على الأرض . كذلك يجلس القضاة الأربعة عن يمينه على

---

(١) صبح ، ٤ ص ٣٦ . يذكر جلوسهم فى دار العدل .

(٢) نسمع عن موقع دار العدل ، فلعله منهم . الخطط ، ٣ ص ٣٣٥ س ٢٠ .

(٣) صبح ، ٤ ص ٣٦ و ٤٥ . كذلك نسمع عن « نائب دار العدل » القديمة ، وأنه كان له أن ينظر فى أمور المتظلمين . الخطط ، ٣ ص ٣٣٥ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٣٩ س ٢١ ، ٣٦١ س ١٧ .

حسب ترتيبهم : الشافعى ، والحنفى ، والمالكى ، والحنبلى ؛ وإن جلس أحياناً الشافعى على يمينه والمالكى عن يساره . كذلك قد يجلس كبار الأمراء، أو بعض كبار الموظفين الديوانيين الكبار بما فيهم الوزير عن يسار السلطان. أما الأمراء أو الموظفون الأقل درجة ؛ فيكونون وقوفاً .

وإذا كان نظر المظالم لا يرأسه السلطان ؛ فإنه فى الغالب يرأسه نائب السلطان ، حيث يكتفى السلطان بمجلس نائبه[١] ؛ فلا يجلس هو . وحينئذ ، يكون مجلسه بدار النيابة فى الشبّاك ، الذى يُسمى أيضاً : شباك دار النيابة ، لأنه ربما يطل على المتظلمين . وقد كان مجلسه يحضره أرباب الوظائف وغيرهم ، كما يكون الحال فى مجلس السلطان .

ولما ألغيت وظيفة النائب أحياناً ، كان حاجب الحجاب - وهو موظف كبير فى البلاط يلى النائب - يقوم بنظر المظالم نيابة عن السلطان . وقد كان عمله فى المواكب فى أول الأمر ، فيمسك بعصا ويسير أمام الموكب ، وينظر فى المظالم[٢] . كذلك قد يعقد مجلسه بحضور الأمراء وناظر الجيش وكاتب الجيش ، ويكون نظره فى مخاصمات المماليك ومشاكلهم ، التى بينهم وبين الديوان[٣] . ولكن بعد ذلك ، أصبح مجلس نظر حاجب الحجاب ينظر فى كل جليل وحقير ، بل يغير أحياناً على أعمال القاضى العادية ، كما استخدم السياسة الشرعية - أى الاجراءات التى تتبع لإصلاح أمر - على أوسع نطاق فى مجلسه ، وأصبح نظره مجال الرشوة ؛ حتى عُرفت وظيفته برذالة الحاجب وسفالته[٤] . كذلك تعدد مجلس نظره كما يذكر المقريزى[٥] ، إذ أن حاجب الحجاب كان يتبعه عدة حجاب ، قد يصلون

---

(١) نفسه ، ٣ ، ص ٣٤٩ س ١٢ - ١٣ .

(٢) صبح ، ٥ ص ٤٥٠ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٣٩ س ٢٥ ، ٣٥٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٥٧ س ٧ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٥٧ س ٣ .

إلى عشرة[١]، لعل أحدهم هو الثانى فى المرتبة، إذ توجد الحجوبية الأولى والثانية[٢]، ويُوجد أمير حاجب ثان أو حاجب الميسرة . وقد أصبح مجلس الحاجب يتكون من نقيب يجمع المتخاصمين، كما أن بين يديه موقعين من موقعى الدست[٣] . وقد وجدنا بعض السلاطين الأتقياء يقصرون عمل الحاجب على الجيش ؛ إلا أن ذلك لم يستمر .

وكان أغلب المتظلمين لمجلس المظالم من عامة المصريين فى المدن، من المساكين[٤]، ومن الفلاحين، الذين قد يأتون من النواحى البعيدة، خارج القاهرة ومصر . وكانت شكواهم ضد الاشتطاط فى جمع الضرائب من غير وجه حق، أو اغتصاب الأموال بالقوة، أو قسوة الجباة . كذلك كانت شكواهم ضد عسف الولاة والموظفين أو حتى ضد كفاءتهم[٥] — على الأخص القبط — الذين كانوا يبالغون فى التحكم فى المسلمين . كما أن معظم الشكاوى أتت من فوضى أمراء المماليك وأجنادهم، واستطالتهم على حقوق الأهلين، حيث كثرت المظالم من هذه الطبقة العسكرية[٦] . وقد وجدنا الشكوى أيضاً من الأسعار والتسعير[٧]، كما وجدنا بعض التجار العجم يتظلمون لهذا المجلس نتيجة لاستبداد التجار المصريين[٨] . وكان مجلس المظالم رحيماً بالأحرى برعايا الدولة من أهل الذمة، عطوفاً عليهم، وعلى الأخص عند التصريح ببناء الكنائس . ولكن لما كثرت الشكاوى،

(١) المقصد، ورقة ١٢٦ (١) .

(٢) ابن إياس، ٢ ص ٤١ س ١٤ .

(٣) الخطط، ٣ ص ٣٥٧ س ٧، ٣٦٠ س ١٢ .

(٤) حسن المحاضرة، ٢ ص ٨٣ س ٩ .

(٥) الخطط، ٣ ص ٣٣٤ .

(٦) السلوك، ٢ ص ١٠٣ .

(٧) الخطط، ٣ ص ٣٣٣ .

(٨) نفسه، ٣ ص ٣٦٠ .

وحتى لأتفه الأسباب ؛ فإن السلطان أمر ألا ترفع إليه الشكاوى ، إلا بعد أن تقدم للجهات المسئولة ؛ فإذا لم ينصفوا تقدموا إليه[١] .

وكانت الشكاوى تسمى بأسماء متعددة : ظُلامات ، أو رُقع ، أو قِصص أو دَعوى ، أو خُصومة[٢] ، أو مُخاصمة ، أو تقاضٍ . فكان « الدودار » وأعوانه « الدودارية » ، يقومون بجمع الشكاوى ، ويقوم كاتم السر أو موقعو الدست بقراءتها واحدة واحدة . أمام هذا الجمع الحاشد من كبار الموظفين . وعندئذ يراجع كل صاحب اختصاص من الحاضرين فى هذا المجلس هذه الشكاوى ، سواء أكان من كبار أصحاب الوظائف الديوانية ، أم الدينية ، أم أرباب السيوف . وتكون المراجعة بحسب الشرع ، حيث يوجد القضاة والمفتون ، أو بحسب السياسة الشرعية ، التى تعدت الشرع ؛ لتدس أنفها فى كل شىء .

وكان على الرغم من وجود السلطان أو من ينوب عنه ، وهذه الهيئات الحاكمة ، فإنه لم يكن بالضرورة يُفصل فى هذه الشكاوى كلها ، بل إن بعضها يحال إلى ديوان الإنشاء لفحص ما لم يتم فحصه ، ثم تصدّر إلى كبار الموظفين والأعمال بالتنفيذ . وحينئذ لا بد أن تمر — وهى فى ديوان الإنشاء — على الموظفين المعروفين باسم : موقعى الدست ؛ ليوقعوا عليها باسم السلطان[٣] . وقد يطلع السلطان على الشكاوى مرة أخرى . ويكتب عليها بخطه توجيهات معينة ، حتى أننا وجدنا السلطان خليل يكتب بين سطورها . كذلك كان السلطان أو نوابه إذا اتخذوا فيها قراراً أثناء إنعقاد المجلس ، وُقع عليها بين

---

(١) ابن إياس ، ٢ ص ١٢٩ . هو السلطان قايتباى ، وذلك فى عام ١٤٧١/٨٧٦ .

(٢) مثلاً عن : دعوى وخصومة ، انظر . صبح ، ٥ ص ٤٥٠ س١١ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢٦٨ س ١٠ . وانظر أيضاً : صبح ، ١ ص ١٣٨ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤٢ — ٣ .

يديه [١] ، حيث يشترك الموقعون كما ذكرنا . فقد كانت هذه الشكاوى تكون جزءاً كبيراً من عمل ديوان الإنشاء .

ومع تعقيد هذه الإجراءات أحياناً ، فلم يكن يتخذ فيها دائماً قرار حاسم . ومن ناحية أخرى ، كان لقرار مجلس المظالم أن ينسخ الأحكام التي صدرت من قبل ، حتى من القضاة [٢] ، ويوجد بدلها أحكاماً جديدة . وقد كان كل ما يصدر من حكم في هذه الشكاوى ، يسمى : « الحكم » [٣] .

*

الحسبة : تحديد للمعنى — تعدد الحسبة — اختصاصات المحتسب — تطبيق العقوبات .

وهي خدمة أصلها ديني [٤] ، من باب الأمر بالمعروف عندما يكون مهملاً ، والنهي عن المنكر عندما يكون علناً . وهذا الأصل له سند في نصوص القرآن ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ٣ : ١٠٤ ﴾ .

هذا المبدأ الديني المثالي ما لبث أن تطور في البيئة الإسلامية ، وتعدى إلى واجبات عملية تتفق ومصالح المسلمين ، وبخاصة مصالح سكان المدن ، الذين أغلبهم من أرباب الحرف والتجارة . فلم تعد الحسبة مراقبة للأخلاق فقط ، وإنما مراقبة للغش في الصناعة والمعاملة ، وأصبح هذا الأخير الموضوع الأساسي للحسبة ؛ ولذلك كانت كلمة الحسبة تعني : « مراقبة الأسواق » . وفي رأي علماء المسلمين ، تعتبر الحسبة أشبه بخدمة إجتماعية ، لأنها تتفق ومظاهر الحياة الداخلية للمدينة ، فلمس فيها بذور النظام البلدي الحالي .

---

(١) السلوك ، ٢/١ ص ١٠٣ س ٨ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٥٧ س ٧ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٢ س ٢٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٧٨ . مثلاً أيضاً . ابن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة ، ط . Cambridge ، ١٩٣٧ ، ص ٧ .

وكانت الحسبة فى مدن الإسلام وظيفة جليلة كالقضاء ، ومن يقوم بها يُعرف : بالمحتسب أو ناظر الحسبة[١] . وقد كانت هذه الوظيفة تابعة للخلافة ؛ ولكن منذ أن انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة فى أيام المماليك ، وسيطر السلطان على الخلافة ؛ فإن السلطان كان هو الذى يولى الخطط الدينية ، بما فيها الحسبة[٢] ، كما فى القضاء .

ومع أن الحسبة قبل المماليك كانت تُكفل لموظف واحد ، له حق استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر ، وجميع أعمال البلاد ، والامبراطورية[٣] — كنواب القضاء — إلا أنه فى عهد المماليك نسمع عن ثلاث وظائف للحسبة[٤] : فى مصر ، والقاهرة ، والإسكندرية ، فضلاً عن وجود محتسبين فى كل نيابات الشام[٥] . فجعل محتسب القاهرة يشرف على نوابه فى الوجه البحرى خلا الإسكندرية ، ومحتسب مصر يشرف على نوابه فى الوجه القبلى ، ومحتسب الإسكندرية على مدينته وما حولها ؛ وإن كان لمحتسب القاهرة السيطرة على المحتسبين الآخرين ؛ فهو — كما ذكرنا — له وحده حق حضور مجلس المظالم مع السلطان[٦] . فقد كان التوسع فى تعدد المحتسبين ونوابهم ، متمشياً مع التوسع فى تعيين القضاة الأربعة ونوابهم ، مما يجعلنا نعتقد أن هذا التقسيم فى الحسبة مستحدث فى عهد المماليك .

ويروى ابن خلدون وغيره[٧] ، تفاصيل وافية عن الدور الأخلاقى

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٤ س ٧ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٨ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٦٣ .

(٤) المقصد ، ورقة ١٣٢ ا ؛ صبح ، ٤ ص ٣٧ ؛ ١١ ص ٢٠٩ ، ٤١٤ — ٤١٦ ؛ زبدة ، ص ١١٥ .

(٥) صبح ، ٤ ص ١٩٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ١٢ ص ٨٩ ؛ انظر . قبله .

(٦) صبح ، ٤ ص ٣٧ ؛ انظر ، قبله .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٨ ؛ ابن الأخوة ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

للمحتسب فى عهد المماليك ، الذى هو بالأولى إعطاء مثل أعلى دينى للأخلاق فى المجتمع ، بقصد المصالح العامة فى المدينة ، مثل : المنع من التزاحم فى الطرقات والمضايقة للغير ، وإلزام الحمالين ألا يحملوا بهائمهم مالا تطيق ؛ وأن يشدوا فى أعناق دوابهم أجراس ليتحذر الضرير والصبيان ؛ وأصحاب السفن ألا يحمّلوها أكثر من الحمولة العاديه ، وأمر أصحاب المبانى المتداعية بهدمها وإزالة أطلالها ، ومايتوقع من ضررها على المارة «السابلة» ، وتحذير معلمى المكاتب من ضرب الأولاد ضرباً مبرحاً ، والإشراف على نظافة الماء وسقاية المارة ، أوحتى منع المصريين من كثرة الكلام ؛ لأن المصريين اشتهروا بالسخرية من المماليك وسلاطينهم[1] .

ويظهر أن دور المحتسب الأخلاقى الإجتماعى إزداد فى عهد المماليك، نظراً لإنحدار الأخلاق فى عهدهم . فالمماليك — وهم قوم مخاطرون فى معظمهم — لم يكونوا يترددون فى التمتع بالحياة ؛ فلا ريب أن قصص ألف ليلة وليلة ، قد تبلورت فى عهدهم وأخذت شكلها النهائى[2] . فمعظم السلاطين يشربون الخمر ، حتى أن أحدهم وهو فرج بن برقوق، جعل شربها من شعائر المملكة ، وذلك منذ عام ٧٩١/١٣٨٩ ؛ فكان الأمراء يجتمعون فى الميدان الذى تحت القلعة يشربون ويسكرون بحضور السلطان[3] . كذلك أحد أمراء المماليك واسمه تمربغا ، ابتكر نوعاً من الخمور نُسب إليه وعُرف بالتمربغارى[4] . كما كان السلاطين يجمعون أرباب الملاهى والمغانى ، ويأخذونهم معهم عند الخروج للصيد أو فى قصورهم ، ولكل سلطان جوقة منهم ، حتى بلغ عددها فى وقت ما خمسين جوقة[5] ؛ بل إن أحد السلاطين ، واسمه

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٤ (فى آخر الصفحة) .

(٢) لها عدة طبعات أولها فى باريس عام ١٧٠٤ م . عن هذه القصص ، انظر .
Ency. (art Alf Laila wa Laila) tI, p. 255 sqq.

(٣) ابن إياس ، ١ ص ٢٦٩ .

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، مخطوط دار الكتب ، ١ ورقة ٣٨١ .

(٥) الخطط ، ٤ ص ١٢٤ ؛ السلوك ، مخطوط دار الكتب ، ٤ ورقات ٤٦—٤٧ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

المؤيد شيخ، كان يغنى ويعزف الموسيقى . وكان بعض السلاطين أيضاً ، يتعاطى المخدرات والمسطلات[١] . ويقول المقريزى إنه فشا فى أهل الدولة محبة الذكران واللواطى[٢] .

ولتمتع السلاطين بالحياة ، تركوا المصريين يتمتعون بالحياة أيضاً . فتركوا لهم حرية شرب الخمر وصنعه ، وكثرت الحانات . فظهرت فى مصر أنواع متعددة من الخمور ، أشهرها : القِـمزّ أو القراقز[٣]، وهو لبن الفرس المحمض، والبُـوزة أو البوظة[٤]، وهى مصنوعة من الدقيق أو التمر أو غير ذلك ، والمزر[٥] ، وهو نبيذ القمح أو الشعير . وقد كان القـمز بسبب ارتفاع ثمنه ، ولأنه كان معروفاً للمماليك فى موطنهم الأصلى ، يقتصر شربه على طبقتهم ، بينما العامة اشتهرت بشرب المـزر[٦]. كذلك تعاطى المصريون الحشيش ، الذى كان يوجد بدمياط والقاهرة وغيرهما ؛ حتى أن أحد القضاة أفتى بتحليل تعاطى الحشيش[٧] ؛ فكان له بياعون « ضمّان » يدفعون للدولة رسوماً عنه[٨] . كما زاد عدد الغوانى ، الذين يُسمون أيضاً بنات الخطا[٩] — وهن أيضاً الخـاطى والخواطى والخطاة — حيث كان لهن لباس خاص يعرفن به ، وهو لبس الملاآت والطرح ، وفى أرجلهن

---

(١) ابن إياس ، ٢ ص ٨ — ٩ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ١٦٩ س ٤ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٠٤ .

(٣) ابن إياس ، ١ ص ٢٦٩ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 405.

(٤) نفسه ، ١ ص ٣٠٩ — ٣١٠ . عن هذه الكلمة ، انظر .. Ibid, I, p. 127

(٥) عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 587.

(٦) عبد اللطيف البغدادى ، الإفادة والاعتبار ، القاهرة ١٢٨٦ هـ ، ص ٤٣ .

(٧) عماد الدين ، شذرات ، مصر ١٣٥١ هـ ، ٧ ص ٤٠ .

(٨) ابن حجر ، رفع الإصر ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٢١١٥ ، ورقة ١٢٨ ب .

(٩) ابن إياس ، ١ ص ١٠٤ — ١٠٥ ، ٢ ص ٤١ س ٢٥ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 381 . خاطية ومخطية أيضاً .

سراويل من أديم أحمر[١] ، ولهن مكان خاص هو أرض الطبالة[٢] التى سميت هكذا بسبب أن أحد الخلفاء الفاطميين — وهو المستنصر بالله الفاطمى — كان منح أرضاً إلى امرأة تضرب الطبل ، غنته فى مناسبة إعلان خلافته فى العراق ؛ فعرفت الأرض من وقتئذ بأرض الطبالة . فكانت الدولة تفرض عليهن ضريبة ، يشرف على جبايتها ضمان الغوانى . ويبدو أن هؤلاء كانوا رجالاً ونساء ، فنسمع عن امرأة ضامنة ، عندها أسماء النساء البغايا ، اللاتى تدفع عنهن المال[٣] . وقد بلغ الانحلال فى المجتمع المصرى حداً أنه كان يحصل من نساء الأكابر وبناتهن أن يذهبن للبغاء ، ولا أحد يستطيع أن يمنعهن ، ما دمن يدفعن القدر المعين للضامنة .

كذلك فى عصر المماليك ظهرت دار الخيالة الساذجة ، أو ما كان يسمى وقتئذ بشخوص خيال الظل ، أو ظل الخيال ، أو طيف الخيال ، أو مسرح الدمى[٤] . ومنشأ هذه اللعبة غير واضح ، فربما يكون أصلها هندياً ، وإن كان أول من نشرها هم الفاطميون ، ومن بعدهم انتشرت انتشاراً كبيراً فى مصر على يد المماليك . وقد كان أساسها التمثيليات أو تقليد الناس ؛ فهى إذن أساس المسرح الشرقى . وفى سبيل ذلك استوعب من أجلها الأدب الفصيح والعامى ، وظهر لها مؤلفون مشهورون من النثريين والشعراء[٥] . فكانت تقص

---

(١) الخطط ، ٣ ص ١٥٦ س ٦ — ٧ .

(٢) ابن حجر ، رفع الإصر ، تحقيق ، ٢ ص ٢٩٩ . من ذلك انظر . النجوم ، ط . دار الكتب ، ٥ ص ١٢ ؛ ماجد ، المستنصر بالله الفاطمى ، ١٩٦١ ، ص ٩٢ . عنها ، انظر أيضاً . الخطط ، ٣ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٤٤ ، ١٧١ — ١٧٢ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٤) ابن إياس ، ١ ص ١٠٥ ؛ ابن دانيال ، خيال الظل ، حققه حماده ، القاهرة ؛ انظر . أحمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ، القاهرة ، ص ١٧ فما بعدها ؛ رشدى صالح ، مسرح خيال الظل فى العالم الإسلامى ، المجلة ، عدد ٣٣ ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٢٥ فما بعدها .

(٥) باول كاله (Kahle) ، منارة الإسكندرية فى خيال الظل المصرى ، وهى مجموعة من الأزجال والقصص كانت تمثل فى خيال الظل فى عصر المماليك ، قام بنشرها مع مقدمة ، ط . Stuttgart ، ١٩٣٠ .

الشخوص اللازمة للتمثيليات من جلود البقر أو الجاموس أو الحمير الميت ، ويعالجونها حتى تصبح شفافة ، ويصبغونها بالألوان ، ويتركون فتحات في مفاصلها . وكان العرض يتم في المساء ، حيث يجلس الجمهور أمام الستار ، وقد أطفئت الأنوار ، وعندما يبدأ اللعب تضاء الأنوار الداخلية خلف الشخوص والستار . وقد يعمد من يقومون بها إلى إنشاد المدائح التمهيدية ، وفي النهاية يُعاد التسبيح وطلب الغفران ؛ ولعلهم كانوا يفعلون ذلك ليتحاشوا نزمت رجال الدين . وقد أصبح خيال الظل في مصر أداة للسرور والبهجة ، ومقاومة السلطان الجائر . ولذلك كثيراً ما قاومه سلاطين المماليك وأحرقوه .

وكذلك كثر أصحاب الملاهي المعروفة في مصر زمن المماليك ، بشكل لم يُعرف من قبل ، مثل : المناقرين بالديوك ، والمناطحين بالكباش ، وصياح السمان ، والمصارعين ، والملاكمين ، والمشابكين ، والقرادة الذين يلعبون بالقرود ، والدبابة الذين يلعبون بالدببة... الخ.[١]

ولكن بعض السلاطين الأتقياء كانوا يكلفون المحتسب بالحد من هذا المجون صيانة للأخلاق المهددة . فمثلاً : بيبرس في ٦٦٥/١٢٦٦[٢] ، أصدر المراسيم بمنع الحشيش والسكر والبغاء واللواط ، والناصر حسن في ٧٥١/١٣٥٠[٣] ، منع النساء من لبس القمصان التي خرجت في كبر أكمامها عن الحد ، وبرسباي في ٨٤١/١٤٣٧[٤] ، منع النساء من الخروج — كما فعل الحاكم بأمر الله الفاطمي — واستمر هذا الأمر إلى أن توفي ؛ فكانت من تريد الخروج لابد أن تحصل على ورقة من المحتسب ، تجعلها في رأسها ، حتى تمشي في السوق ، وجقمق في ٨٥٥/١٤٥١[٥] ، أقر حرق شخوص خيال

---

(١) السلوك ، ٢/٣ ص ٦٤٢ ؛ انظر . عاشور ، العصر المماليكي ، ص ٣٨٨ .
(٢) ابن إياس ، ١ ص ١٠٤ — ١٠٥ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧٠ — ١٧١ .
(٣) ابن إياس ، ١ ص ١٩٣ .
(٤) نفسه ، ٢ ص ٢١ — ٢٢ .
(٥) نفسه ، ٢ ص ٣٣ .

الظل. ومن ناحية أخرى ، فإن الحسبة المثالية كانت تمنع كثيراً من الملاهي العنيفة ، مثل : مناقرة الديوك ، ومناطحة الكباش ، وصياح السمان[١] . وفي الحقيقة أن طبيعة المماليك الخاطرة لم تستطع أن تمنع من إنحدار الأخلاق في عهدهم .

كذلك تشدد المحتسب في عهد المماليك في التضييق على أهل الذمة ، كما كان الحال دائماً في كل دول الإسلام ، لإظهار ما في الإسلام من عزة . فقد كان عمر بن الخطاب وضع لأهل الذمة شروطاً ، تنظم تصرفاتهم في المجتمع الإسلامي ، عُرفت بالشروط العمرية[٢] . ولم يكن أغلب حكام الإسلام يلجأون إلى هذه الشروط ، إلا في حالات الاضطهاد والحروب . كذلك بعض خلفاء الإسلام — مثل الحاكم بأمر الله الفاطمي[٣] — زادوا في هذه الشروط . فكان محتسب المماليك يجبر أهل الذمة على لبس « الغيار » ، وهي علامات مميزة ، وذلك بلبس الرجال عمائم ملونة ، ولبس النساء حزام « الزنار » . فكان اليهود يلبسون عمائم صفر ، والمسيحيون عمائم زرق[٤] ومع أن هذا الغيار لم يكن يفرض في كل وقت على أهل الذمة ؛ إلا أنه كثيراً ما نفذ في عهد المماليك ، بسبب أن المماليك كانوا في حروب شديدة مع أمم النصارى والمغول ، ولأنهم حديثو إسلام ، فهم متحمسون له . والواقع أن اليهود على الخصوص[٥] ، سواء في دار الإسلام أو في البلاد

---

(١) ابن الأخوة ، ص ٢٤٢ ؛ السلوك ، ١/٢ ص ٤٠٦ س ٣ .

(٢) نفسه ، ص ٤٠ فما بعدها ؛ نفسه ، ١/٣ ص ٩١٠ س ١٣ ؛ الخطط ، ٤ ص ٤٠٤ س ١٢ ، ١٦ .

(٣) عنه بتفصيل ، انظر : ماجد ، الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه ، ص ٩٥ .

(٤) أنظر . بعض المراسيم التي صدرت في ذلك . الخطط ، ٤ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ ؛ السلوك ، ١/٣ ص ٩١٠ س ٩ ، ص ٢٢٧ . الغيار هو الملبوس ، الذي يميز أهل الذمة عن المسلمين . السلوك ، ١/١ ص ١٣٥ . عن الزنار ، هي كلمة استعملها العامة بمعنى حزام . أنظر . Dozy : Suppl, I, p. 606.

(٥) أنظر . Mayer : The Status of the Jews under the, Mamluks (in Magnes Anniversary Book, 1938, pp. XXVII — XXVIII.

المسيحية[١]، كانوا يتميزون ببعض العلامات فى لبسهم . وفى العصر الحديث ، وجدنا تمييز اليهود فى ألمانيا ، بلبس علامة خاصة .

وهناك ناحية اقتصادية من نشاط المحتسب ، هى الإشراف على التجارة والصناعة فى المدن ، وذلك بمراقبة التجار وأصحاب الحرف والصناعات ، لمنع الغش . فكانت هذه المراقبة الحكومية — بقصد الصالح العام — تكون الناحية المادية من عمل المحتسب ، المختلطة أيضاً بمبادىء الحسبة المثالية ؛ وهى تعتبر أهم ما فى عمل محتسب المماليك[٢]، بحيث أن كلمة محتسب أصبحت تعنى مراقب الأسواق ، والحسبة هى مراقبة الأسواق

فجميع ما كتبه المؤلفون عن وظيفة المحتسب فى عهد المماليك، تشير إلى أهمية دوره فى الناحية الإقتصادية . ولدينا عنه مصادر معاصرة هامة ، هى على الخصوص ، كتاب ابن تيمية (ت ١٣٢٨/٧٢٨) : الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية[٣] ، وكتاب ابن الأخوة (ت ١٣٢٩/٧٢٩) : معالم القربة فى أحكام الحسبة[٤] ، وكتاب ابن بسام (٨ هـ/١٤ م) : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة[٥] . وهذه الكتب وغيرها — فى الواقع — تسير على منهاج واحد ؛ بقصد أن يتعرف المحتسب على دقائق كل حرفة وتجارة ، ليكشف بسهولة عن الغش ، الذى يرتكب ضد حياة الناس المعيشية . وهذا الدور الاقتصادى فى عمل محتسب المماليك ، لا يختلف عن مثيله فى مصر الإسلامية من قبل .

---

(١) أنظر . De Sacy : Chrestomathie arabe ou extraits de, divers écrivains arabes, tant en prose qu'en vers. Paris, 1806, 2. p. 95.

(٢) صبح ، ١١ ص ٢٠٩ .

(٣) ط . القاهرة ١٣١٨ هـ .

(٤) نشر وترجمة Reuben Levi ، ط . Cambridge ، ١٩٣٧ .

(٥) مخطوط بدار الكتب ، فهرس الخزانة التيمورية ، برقم ٢٥ اجتماع . وانظر . مقالة بياركيك ، نخبة من كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام (مجلة المشرق ، العدد الثامن ، آب ، سنة ١٩٠٨ م ؛ السنة الحادية عشرة ، المجلد الحادى عشر .

فقد كان أهم ما يميز عصر المماليك هو انتعاش مدن مصر ؛ بشكل لم يعرف من قبل . فالقاهرة والفسطاط اتسعتا اتساعاً كبيراً نتيجة لإنشاء حيّ القلعة ، وخصوصاً أن صلاح الدين كان قد أدمج المدينتين معاً ، فأحاطهما بسور واحد[1] . فنمت المدينتان معاً ، وأصبحتا مركزين اقتصاديين لامبراطورية واسعة الأرجاء ، يشهد بذلك كتب الرحالين والجغرافيين[2] .

ومن المحقق أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر — وهما من أكبر المدن التجارية والصناعية — مدن أخرى فى طول البلاد وعرضها ، تُعتبر مراكز اقتصادية نشيطة . فنذكر الإسكندريّة العظمى ودمياط ، وقد أصبحتا أكبر موانى البحر الأبيض[3] ، وعَيْذَاب ، أعظم موانىء ساحل البحر الأحمر ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع[4] ، وقُوص قرب أسوان ، التى كانت أعظم مدن الصعيد ، بسبب ورود تجار أفريقيا إليها[5] ، فقد كانت أفريقيا الإسلامية على الخصوص على علاقة قوية بدولة المماليك ، وكثيراً ما أتى إلى مصر ملوك أفريقيا وتجارها ، مثل : مملكة

---

(١) الخطط ، ٢ ص ٢٠٨ س ١٤ ؛ انظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٠٣ .

(٢) زبدة ، ص ٢٧ فما بعدها ؛ لينبول ، سيرة ، القاهرة ، ترجمة ، ط٢ ، ص ٢١٨ فما بعدها ؛ Ency. (art le Caire) tI, p. 839.
Misr in the Fifteenth Century.J.R.A.S.,1903,: Guest et Richmond p. 791 suiv.
Le Caire au Moyen Age. Cahiers d'hist ég, : René Khoury; série, V, Fasc 5,6 Déc, 1953, p. 303 - 307.
Le Caire vu par les voyageurs du Moyen Age, : Dopp; Bull de la Soc. R. de Geog. d'Eg. t XXIII.
Fasc 3 - 4, 1950, pp. 117 - 150; t XXXIV, pp. 115 - 165.

(٣) ابن جبير ، رحلة ، تحقيق حسين نصار ، ص ٧ فما بعدها .

(٤) الخطط ، ١ ص ٢٢٧ .

(٥) زبدة ، ص ٣٣ س ١٢ .

التكرور أو مالى[١] ، وسلطنة برنو أو كانم[٢] . أما أمم السودان ، فقبل فتحها على يد المماليك ، ارتبطت بحكام مصر بمعاهدة ترجع إلى أيام الفتح العربى الأول ، اسمها « البقط » ، التى بمقتضاها أن يسمح بتنقل التجار[٣] .

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى مصر ، هو وجود كلمات كثيرة تدل على رواج التجارة والصناعة ، مثل : دكاكين ، وحوانيت ، ومخازن ، وقياسر ، وخانات ، ووكالات ، وأسواق ، وفنادق ، وهى كلمات غير محددة المعانى . ولا تزال بعض هذه المبانى باقية بأسمائها ، وتزينها النقوش العربية ، والرسوم الهندسية ، والقوالب الخشبية . وحتى نشاطها التجارى مستمراً إلى وقتنا الحاضر . مثل : خان الخليلى : وهو سوق ظهر من أيام المماليك[٤] . فمثلا : « القيسارية »[٥] ، أو « القيصارية » — لعلها محرفة من اللاتينى « Caesarea » ، حيث كان الرومان يقيمونها فى المدن كمستودع لبضائعهم — كثرت بمصر ، حتى أن المقريزى يذكر أسماء قياسر كثيرة . و « الخانات »[٦] ، وُصفت بأنها عدة صالات ، عليها قباب ، ولها أروقة ، وفيها مكان للماء و « الوكالات » ، وهى ظهرت مبانيها لأول مرة فى عهد الفاطميين[٧] ، لتعنى أماكن للتجار الشرقيين . كثرت فى أيام المماليك ، وإحداها كانت تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة للنوم فوق المخازن[٨] . و « الأسواق »[٩] ، مجموعة من حوانيت ،

---

(١) صبح ، ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٩٣ فما بعدها ؛ انظر . حسن محمود ، الإسلام فى افريقية القاهرة ١٩٥٨ ، ١ ص ٢٩١ .

(٢) صبح ، ٨ ص ١١٦ — ١١٨ وهى نص مبادلة بين سلطانها والسلطان برقوق .

(٣) الخطط ، ١ ص ٣٢٢ فما بعدها .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٥٢ — ٣ . نسبة الى الأمير جهاركس الخليلى (١٣٨٩/٧٩١م) . أحد أمراء برقوق .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٤٠ فما بعدها ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 432. ؛ Ency. (art Kaisàriya) t2, p. 700 - 701.

(٦) الخطط ، ٣ ص ١٤٩ ؛ انظر . Sauvaget : Garvansérails syriens du, Moyen âge II, Carvansérails Mamelouks. Reprinted from vol VII, pt I, of ARS. Islamica. 1940, p. 10.

(٧) الخطط ، ٢ ص ٣٢٢ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٧١ .

(٨) نفسه ، ٣ ص ١٥١ — ١٥٣ .

(٩) نفسه ، ٣ ص ١٥٣ فما بعدها

قد احتوى إحداها على اثنى عشر ألف حانوت . و « الفنادق »[١] ، كلمة أصلها يونانى ، دخلت العربية ، كما دخلت الطليانية باسم : « Fondachi » ، لتعنى بناء واسعاً من عدة طوابق ، تتكون من غرف مختلفة ومخازن . ولها فناء داخلى يحتوى على البضائع والدواب ، وبها كنيسة وحمام ومخبز ومقبرة ، وتحاط بسور وحديقة . فكان يسكنها غالباً التجار الأجانب ، يرأسهم القناصلة - مفردها قنصل - وهم كبار الفرنج من كل طائفة[٢] فكانت توجد فنادق متعددة فى كل أنحاء المدن المصرية من الإسكندرية إلى أسوان ، أشبه بقنصليات الأجانب فى مصر ، فنسمع عن فنادق : البندقية وجنوة ، وبيش (بيزة) ومارسيليا ، وأربونة (ناربون) ، وقطالونية (كتالونيا) ، وأقريطش (كريت) ، ونابل (نابلى) ، وبلرم (بالرمو) . فكانت إذا غابت الشمس ، قفلت هذه الفنادق أبوابها ، إذ أن الأجنبى يمنع من السير فى الشوارع ليلاً ، أو التجول فى أثناء صلاة المسلمين

وهذا الازدهار الاقتصادى يرجع سببه إلى النشاط التجارى والصناعى على الخصوص . فقد كانت مصر تنقل إلى أوربا تجارة الشرق وبخاصة التوابل[٣] ، التى هى بالنسبة لأهل العصور الوسطى مثل الشاى والقهوة فى عصرنا . فتأخذ أوربا الجنزبيل والقرفة والفلفل والشاى والبهار والشب والعود والسكر والعاج والمنسوجات إلى غير ذلك ، أما مصر فتستورد الفواكه واللوز والجوز والخشب والمعادن والفرو والرقيق وطيور الصيد . فالدينار سائل متبادلة بين سلاطين المماليك وحكام البندقية فى إيطاليا - خاصة بتبادل التجارة بينهما[٤] .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٤٩ فما بعدها ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط دار الكتب ، ٣١ ورقة ٤ ؛ Dozy : Suppl, 2, p. 284 ؛
Pernoud : Op. cit, p. 46sqq.

(٢) أنظر . زبدة ، ص ٤١ ؛ Ency. (art Consul) tI, p. 898.

(٣) أنظر . Pernoud : Op. Cit, p. 47, 48,66

(٤) عن ذلك ، انظر . Reinaud :
Traités de commerce entre la republique de Venise et les derniers Sultans Mameloucs d'Egypte J. A. 2ème, Serie, t4, Paris, 1829 ؛ توفيق اسكندر ، نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ، مجلة الجمعية التاريخية ، سنة ١٩٥٧ .

وقد ترتب على انتعاش التجارة مع الشرق الأقصى ، أن ظهرت طبقة من التجار فى مصر تخصصت لها كما ذكرنا ، عُرفوا بتجار الكارم أو الكاريمى أو الأكارم أو الكارمية . جمع كارمى ، وكان الموظف الذى يشرف على جباية ضرائب هذه التجارة يسمى : ناظر تجار الكاريمى[1] . ولكن بعد ذلك ، وجدنا أن سلاطين المماليك أنفسهم احتكروا تجارة التوابل وغيرها من المتاجر لبيعها للفرنجة[2] ؛ حتى أصبح لهم مشرفون متخصصون عليها فى موانىء مصر والامبراطورية ، لاسيما فى عَدن ، ثم جُده[3] .

ولذلك ، كثرت العملة الأجنبية فى — مصر ، مثل : عملة البندقية : « Ducat » ، « دوكات » ، نسبة إلى « Doge » ، « دوك » — وهو الدوق — وعملة بلاد أفرنجة عموماً ، بما فيها إفرنسية وإيطاليا والأراضى الواطئة المسماه : « Florin » . « الإفرنتية » ، جمع « إفرنتى » . وقد عُرفت العملة الأجنبية باسم : « مشخصة » ؛ بسبب صور القديسين . وملوك الفرنجة المنقوشة على و[illegible] المماليك ، كانت المعاملة فى مصر جائزة أحياناً بهذه العملة الأ[illegible]

كذلك تميزت صناعات كثيرة فى وقت المماليك بازدهار[illegible] فنذكر منها : تطعيم المعادن والجوهر ، أو ما كان يُطلق عليه[illegible] او التكفيت[5] ؛ وذلك بتنزيل الذهب والفضة والمعادن[illegible]

---

(١) صبح ، ٤ ص ٣٢ ؛ انظر أيضاً . نفسه ، ٣ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٥ ص ٣٨٠ [illegible]
[illegible] ...ands d'épices sous les Mamlouks. Le Caire, 1955
[illegible] ...ie, VII, Fasc 3, Juin, 1955, p. 85ssq.
[illegible] du Commerce, 2, p. 59. : Heyd
؛ السلوك ١/٣ ص ٨٩٩ حاشية (٢) .

(٢) المقريزى ، السلوك ، مخطوط دار الكتب برقم ٣٣٣٧ ، ٤ ورقة [illegible]

(٣) نفسه ؛ الخطط ، ١ ص ٣٢٧ س ٢٤ — ٢٥ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٤٤١ — ٢ ؛ Bloch : [illegible] de l'or au,
[illegible] Ann. d'Hist. Econ. et Sociale, IV, 1933,
الدوكات بالطليانية "ducato" ، والفلورين "florino"

(٥) الخطط ، ٣ ص ١٧٠ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy [illegible]
لعلها محرفة عن كام ، وهى البلد الأفريقى ؛ مما قد يعنى أن أصلهم منها [illegible]
Suppl, 2, p. 460 ؛ انظر . قبله .

الذين يعملون فى ذلك يسمون الكفتيين أو الأزميين ، ووجد لهم سوق خاص . ويبدو أن القاهرة كان لها أسلوب خاص فى صنع النحاس ، الذى صنعوا منه تحفاً مختلفة ، بحيث أن أى بيت فيها لا يخلو من قطع نحاس ممتازة الصنع ، كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأوانى والموائد . وكذا صناعة السروج[1] ، التى كان لها فى مصر سوق اسمه سوق اللجميين ، فكانت تعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق ، فضلاً عن تطعيمها بالذهب والفضة . وكذا صناعة السجاد ، التى بلغت غاية الرقى ؛ فكان أمراء المماليك يجمعون منها تحفاً ونماذج متعددة[2] . وكذا صناعة الزجاج ، التى ظهرت عليها الكتابة والرسوم لأول مرة فى عهد الفاطميين ؛ فكانت تموه بالمينا ، وهى مادة كالزجاج . ولدينا فى متحف الآثار العربية مصابيح ومشكاوات زجاجية مزخرفة ، على بعضها أسماء صناعها مصورة بأنواع النبات والطيور .

هذا النظام الاقتصادى كان يخضع لنظام دقيق يتحكم فى وسائل التجارة والانتاج ، وأُعتبر من مظاهر حياة المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى . فقد كانت كل طائفة من التجار أو من أصحاب الحرف تتجمع فى مكان واحد تتسمى به ، ولها حارتها وسوقها[3] ، الذى كان فى الغالب حول المسجد . فكانت هذه الأماكن أو الأسواق مراكز النشاط الإقتصادى فى البلاد . ففى مصر أو الفسطاط كانت الطوائف تتجمع على الأخص حول جامع عمرو ؛ وفى القاهرة أو فى حىّ القلعة أو فى حىّ القرافة حول الجوامع العديدة ، التى أقامها المماليك . فنسمع عن أصناف متعددة من التجار وأرباب الصناعات ؛ حيث يذكرهم المؤرخون الذين تكلموا عن الحسبة بالتفصيل فى أبواب عديدة تزيد على المائة أحياناً[4] ، وهى شبيهة بما فى المدن الإسلامية الأخرى فى العصور

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٥٩ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٧ — ١١٨ . جمع منها مائة وثمانين زوج بسط ، منها ما طوله من أربعين ذراعاً إلى ثلاثين ذراعاً .

(٣) مثلاً : ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، أنظر .

(٤) أنظر . ابن بسام ، وابن الأخوة .

الوسطى ، أو فى المدن الحالية فى الشرق [١].

وقد أدى هذا التخصص إلى نشأة نظام النقابات ، الذى يُعتبر التنظيم الشعبى الوحيد فى بلاد الإسلام فى العصور الوسطى . وكان نتيجة ذلك ، إيجاد تدرج مهنى فى الجماعة الواحدة من شيخ أو رئيس ومعلم ومتعلم وصانع وصبيان ، كما وجدت تقاليد معينة لكل صناعة وتجارة . وقد كان للتجار وأرباب الصناعات مكانة كبيرة فى المجتمع المصرى فى زمن المماليك ، لاسيما مياسيرهم -- بياض العامة -- حتى أن هؤلاء يأتون فى رأى المقريزى بعد أهل الدولة المماليك فى المجتمع [٢] ، وكانت لهم ألقاب ، فيقال للواحد منهم : « المجلس الصدر » [٣] ، أى العالى . أو السامى .

وقد كان عمل الحسبة فى الناحية الاقتصادية هو التفتيش عن أرباب الحرب والمعايش ، والإشراف على دار العيار ، التى تباع فيها الصنج والموازين والأكيال ، وتراقب وتصحح [٤] . فكان المحتسب يستعين فى ذلك بالخبراء ، الذين يختارون من بين أرباب الصناعات والتجارة ، وهم الذين سموا : العرفاء أو عرفاء الأسواق [٥] ، جمع عريف ، أو النواب ، جمع نائب [٦] .

---

(١) مثلاً ابن الأخوة ، أنظر ؛ المقصد ، ورقات ١٣٧ فما بعدها ؛ Clerget :
Le Caire. Etude, de géographie urbaine et d'histoire économique. Le Caire, 1939, Vol 2 ef.
Ency. (art Cinf.) t4 , p. 455 - 6.

(٢) إغاثة الأمة ، ط ٢ ، ص ٧٢ .

(٣) صبح ، ٥ ص ٤٩٧ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٤٩١ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٨ .

(٥) السلوك ، ٢/١ ص ٥١ ، ص ٤ ؛ وكتب الحسبة ، أنظر . .

(٦) أنظر . قبله .

وقد كانت حكومة المماليك تلجأ أحياناً فى معالجة المعايش بالتسعير الجبرى[١] الذى نهت عنه الحسبة المثالية، وذلك لأن الإسلام ضد التسعير بناء على أحاديث نبوية[٢]، فأحل البيع بما فيه من مساومة. ولكننا وجدنا أنه خوفاً من أن يضار الناس فى معايشهم بسبب التحكم فى الأسعار؛ فإن الحسبة المثالية استجازت التسعير أحياناً[٣]. والواقع أنه لم يكن هناك حاجة دائمة للتسعير؛ فقد كان التنافس المستمر لأصحاب الصنف الواحد أو الحرفة الواحدة، يؤدى إلى خفض الأسعار وتثبيتها. وعلى العكس لم تستطع الحسبة المثالية منع الاحتكار[٤]؛ بسبب أن السلاطين أنفسهم كانوا يحتكرون بعض المتاجر.

وتبين النصوص أن القائم بالحسبة فى أيام المماليك له سلطة تنفيذية كسلطة قاضى القضاة، وإن كانت العقوبات التى يفرضها لا تبلغ عقوبات الحدود، وتختلف بحسب الذنب، وهو ما أطلق عليه التعزير، مفرد تعزيرات[٥]. فكان المحتسب يعقد محاكماته فى الجامع، او فى مكان معروف اسمه: الدكة[٦] أو دكة المحتسب، أو حتى فى دار العدل كما كان يفعل محتسب القاهرة[٧]. فكان يستعين فى تنفيذ الأحكام بالأعوان[٨]، أو بوالى الشرطة، الذى يقوم فى نفس الوقت بتنفيذ العقوبات التى يفرضها القاضى؛ فكانت الحسبة تضاف لوالى الشرطة[٩] أحياناً. فمن هذه العقوبات: الردع بإزالة الأمر المخالف، مثل: كسر أوانى الشرب أو بذهاب المال. وقد كان المحتسب

---

(١) ابن إياس، ٣ ص ٥ س ٢٣.
(٢) ابن تيمية، ص ٢٩.
(٣) نفسه، ص ١٥ فما بعدها. فصل طويل عن التسعير.
(٤) نفسه؛ ابن تيمية، ص ١٤.
(٥) ابن الأخوة، ص ١٨٤ فما بعدها.
(٦) نفسه، ص ١٨٤؛ الخطط، ٣ ص ١٧١ س ١٠.
(٧) أنظر قبله.
(٨) المقريزى، إغاثة الأمة، ط ٢، ص ١٩ س ٤.
(٩) صبح، ١١ ص ٢١٠.

المماليكى ، إذا وجد غشاً فى بضاعة ، أرسل هذه البضاعة إلى الحبوس — أى السجون — ليأكلها المحبوسون(١)، ويتخذ الضرب كوسيلة للتعزير ، وذلك عن طريق آلات الضرب ، مثل(٢) : السوط الوسط ، الذى ليس بالغليظ الشديد أو بالرقيق ، والدرة التى تتخذ من جلد البقر أو الجمل المخروزة ، والمقرعة وهى قطعة غليظة من فرع شجرة . فكان بسبب ما يصحب هذه الأخيرة من ضرب شديد ؛ فإن بعض السلاطين يأمرون بإلغاء الضرب بها ، وتصدر المراسيم السلطانية فى ذلك(٣) . وقد يلجأ المحتسب فى تعزيره أيضاً بالتجريس أو التشهير(٤) ، فمثلاً : وُضعت الجرة والقدح فى عنق أحد السكارى(٥) ، وأركب شخص حماراً(٦) ، وضُرب آخر أمام الناس ضرباً مبرحاً(٧). ويكون العقاب كذلك بالنفى من البلد(٨)، لاسيما إذا كان الشخص من المماليك ، وحينئذ يمنع من أمواله وإقطاعه . كما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ، ومنه ما يكون بالسجن(٩).

هذا المنصب كان يليه المتعممون(١٠)، فلعل المقصود هنا العلماء ، لأنه كان يشترط فيمن يتولاه أن يكون عارفاً بأحكام الشريعة(١١)، ولأن الحسبة أعتبرت خدمة دينية ؛ إلا أنه فى زمن الجراكسة تولاها بعض المماليك (١٢) ، فهى

(١) ابن إياس ، ٢ ص ٢٩ س ١ — ٢ .
(٢) ابن الأخوة ، ص ١٨٤ .
(٣) مورد اللطافة ، ص ٦٤ .
(٤) السلوك ، ٢/١ ص ٢٥٣ س ١١ .
(٥) ابن إياس ، ١ ص ١٠٤ .
(٦) السلوك ، ٣/١ ص ٧٧٢ س ١١ .
(٧) ابن إياس ، ٣ ص ٥ س ٢٢ .
(٨) نفسه ، ٢ ص ٣٥ س ٤ .
(٩) ابن تيمية ، ص ٣٨ :
(١٠) صبح ، ١١ ص ٢١٠ .
(١١) ابن الأخوة ، ص ٨ .
(١٢) نفسه ؛ ابن إياس ، ٢ ص ٤ س ٤—٥ ، ٣ ص ١٨ س١٣ ؛ ابن تيمية ، ص ١

تكون أيضاً لذوى السلطان ، وهى أعتبرت وظيفة جليلة رفيعه الشأن[١].
فكان المحتسب يلبس زىّ العلماء[٢] ، وهو غالباً الصوف من غير طراز ،
الذى يتكون من « فوقانى » أبيض ، ومن « تحتانى » أخضر ، وطرحة
على المنكب ، وعمامة ضخمة طبعاً ، ويتسلم مرتباً قدره خمسون ديناراً ،
يُضاف إلى ذلك الرواتب الجارية[٣].

ولكن هذا المنصب انحط فى أغلب عهد المماليك على سمو مكانته ،
بسبب فساد أحوال المماليك ، حتى صار أقل الوظائف ، أو يُترك شاغراً[٤] ،
أو أن من يتولاه قد يطالب الاستعفاء منه[٥] . وقد فسد محتسب المماليك
كذلك ، حتى أن أحدهم جعل دكته مطعّمة بالفضة[٦] ، بدلاً من أن تكون
مظهراً للبساطة الإسلامية . ووجدنا من أراد عزل المحتسب أو قتله ، لخلو
الأسواق من البضائع واختفائها[٧] .

*

الشرطة : خصائصها — المساعدون — اختصاصاتها — العقوبات .

وهى وظيفة من وظائف السيف توجد فى العاصمة ، وموضوعها تنفيذ
العقوبات الشرعية وغيرها ، ولذلك أعتبرب تابعة الوظائف الدينية[٨] .

---

(١) صبح ، ٤ س ٣٧ ؛

(٢) الخطط ، ٣ س ٣٧٠ س ١٦ — ١٧ ؛ انظر . Tyan :
Org · Jud, I, p. 293.

(٣) نفسه ، ٣ س ٣٦٤ س ١٨ .

(٤) ابن قاضى شهبة ، ذيل ، مخطوط ١٠٩٩ (B. N.) ، ٢ ورقة ٢٢ ب.

(٥) ابن إياس ، ٣ س ١٣ س ١٩ .

(٦) الخطط ، ٣ س ١٧١ .

(٧) ابن إياس ، ٣ س ٥ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، مخطوط دار
الكتب ، ١ ورقة ٣٦ .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، س١٩٨ ؛ انظر . Tyan : Op. cit., I2, p. 368 sqq
Ency. (art Shurta) t 4, p. 408 ;

وكان يُطلق عليها : « الولاية »[١] ، ومن يقوم بها يسمى : « الوالى » ، او « متولى » ، أو « صاحب »[٢] ، وهى ألفاظ أطلقت أيضا على بعض الموظفين الكبار ، وتدل على موظف هام فى الدولة . وغالباً ما يتولاها المماليك الترك[٣]، فيقدم لمتوليها خلعة ، تتميز بعلامة يُعرف منها الشرطى – وذلك على حسب ملاحظة القلقشندى[٤] – فيشق الشوارع وهو لابسها ، للإعلان عن توليته ؛ بقصد إخافة أهل الفساد[٥] .

ونستطيع أن نميز الشرطة تمييزاً واضحاً عن الحسبة ، ولكن ليس من السهل تمييزها عن منصب والى القاهرة أو والى مصر[٦] ، فالأولان يقدمان ورقة كل صباح إلى السلطان ، تشتمل على ما يحدث فيها من حريق أو قتل أو سرقة ، وهى أعمال قريبة من أعمال الشرطة . ومع ذلك ؛ فإن والى الشرطة ، يقول عنه المؤرخون إنه معروف باسم : والى أو متولى الحرب[٧] ، ربما لتمييزه عن والى القاهرة أو والى مصر ؛ أو لأن الشرطة تقاتل أهل الجرائم[٨] .

ومن ناحية أخرى ، كان تنظيم الشرطة فى عهد المماليك يتفق مع تنظيمها قبلهم فى عهد الفاطميين ، من حيث تقسيمها إلى الشرطة العليا ، والشرطة السفلى ؛ فالأولى فى القاهرة وضواحيها من العسكر والقطائع ،

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٤ س ٢١ .

(٢) صبح ، ٥ ص ٤٥٠ .

(٣) المقدمة ، ص ١٩٩ س ٩ .

(٤) صبح ، ٥ ص ٤٥٠ .

(٥) ابن تغرى بردى (P) ، ٦ ص ٤٢٦ س ٥ – ١٠ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٤٣ س ٢٠ – ٢٣ . فى مكان آخر ، يقول المقريزى أيضاً : « والى البلد » ؛ فلعل المقصود بوالى البلد هو والى القاهرة أو مصر ، وهو قطعاً غير والى الشرطة ؛ إذ يقول : والى البلد ومتولى الحرب ، حيث أن هذه الأخيرة تطلق على والى الشرطة . نفسه ، ٣ ص ٣٣٩ س ٤ .

(٧) مثلاً : صبح ، ٤ ص ٢٣ ؛ ابن تيمية ، ص ٩ .

(٨) أنظر ، ملاحظة Tyan : Op. cit, 2, p. 371.

والثانية فى مصر أو الفسطاط ، وأن متولى الأولى فى مرتبة أعلى من الثانى ولكن الشرطة زادت قسماً ثالثاً فى عهد المماليك ؛ إذ اختصت شرطة لحى القرافة[١]، المجاور للفسطاط ، الذى اتسع فى عهدهم حتى شمل قسمين : القرافة الكبرى والقرافة الصغرى ، ولم تعد القرافة مدافن فقط ، وإنما بنيت فيها بيوت ومساجد ومدارس . وقد ألغى هذا القسم ، ولم يبق قسماً مستقلاً طويلاً ، وأضيف إلى شرطة مصر ؛ فعادت الشرطة بذلك شرطتان ، كما كان الحال سابقاً . وربما أقيمت شرطة خاصة بحى القلعة — مدينة الحكم — فقد وُجدما يعرف بوالى القلعة[٢] ، كما وجدت شرطات فى نيابات البلاد الشامية[٣] .

وعلى كل حال ، كان والى الشرطة يتخذ له مساعدين ، وهم : الأعوان[٤] والخفراء[٥] ، والعسس[٦] ، والسجانون[٧] ، والمشاعلية[٨] ، وهؤلاء الأخيرون عملهم قطع الرقاب ، فهذه التعبيرات المقتضبة تدل على أنهم كانوا درجات ، وأنهم مكلفون بمهمات مختلفة تتعلق بأعمال الشرطة . وكما يبدو ؛ فالشرطة لم تعد — كما كانت سابقاً — أداة تنفيذ فقط ، وإنما أيضاً حفظ الأمن ليلاً ونهاراً ؛ إذ يذكر المؤرخون أن الشرطة كانت تشمل حراسة أبواب القاهرة[٩] . ويبدو أن القاهرة وقت المماليك ، كثرت فيها عناصر فوضوية ؛ مما تدل عليه الأسماء التى أطلقت عليها فى وقتهم ، مثل : الحرافيش ، والزعر ، والشلاق[١٠] .

---

(١) عن حى القرافة ، انظر . زبدة ، ص ٢٧ .

(٢) صبح ، ٤ ص ٢٣ ؛ المقصد ، ورقة ١٢٧ ب .

(٣) ابن تيمية ، ص ٩ ؛ انظر . قبله .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٠٤ س ٨ .

(٥) زبدة ، ص ١٣٠ س ١٣ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ س ١٣ . العسس ، للطواف بالليل ، لتتبع أهل الريب .

(٧) الخطط ، ١ ص ١٤٣ .

(٨) ابن إياس ، ٢ ص ٣١٢ ، ٣ ص ٩٣ س ١٦ . لعلهم سموا هكذا لأنهم كانوا يسيرون فى المواكب ، وهم يحملون المشاعل .

(٩) المقصد ، ورقة ١٢٧ ب

(١٠) ابن تغرى بردى (P) ، ٦ ص ٩٣ ؛ السلوك ، ٢/٣ ورقة ٦٦٥ . عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٢٩ (المصدر خطأ) . أنظر . Dezy : Suppl, I, 273; 592, 782

فالشرطة إذاً كالحسبة ، عملها أن تكون أداة تنفيذ . فكان واليها يقوم بتنفيذ « الحدود » ، أو « حدود الله[1] » ، — مفردها حد ، وتأتى دائما بصيغة الجمع — وهى الزواجر التى وضعها الله وذكرت فى القرآن . ويعتبر ابن خلدون الشرطة وظيفة تابعة للقضاء ، وأن متولها يستوفى الحدود — أى تنفيذ الأحكام الشرعية — التى يصدرها القاضى[2] . كذلك كانت الشرطة أداة للحسبة ، لتنفيذ « التعزير » ، الذى هو عقاب لم يقرره القرآن ، وإن اتفق عليه الفقهاء ، وهو لا يصل إلى عقاب الحد ، حيث أن الحسبة غالباً ما أضيفت إلى عمل والى الشرطة[3] . وأخيراً الشرطة تنفذ ما تأمر به « السياسة الشرعية[4] » ، التى ليست من الشرع ، ولا من إجماع الفقهاء ، وإنما هى إجراء تتخذه السلطة الحاكمة لمعالجة أمر .

ولم تكن العقوبات التى ينفذها والى الشرطة فى عهد المماليك ، هى العقوبات التى تنص عليها الحدود من رجم وجلد وقطع يد ورجل ، أو تنص عليها التعزيرات من ردع وتوبيخ وتشهير ونفى وضرب ، وإنما عقوبات أخرى لم تظهر من قبل إلا على يد المماليك ، وتدل على طبيعتهم القاسية . فمثلاً من هذه العقوبات : « التنصيف » أو « التوسيط » ، وذلك بقطع الشخص من عند بطنه ؛ بأن يُعرى من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين بشكل صليب ، ويطرح على ظهر جمل ، ثم يأتى السياف ، فيضرب المحكوم عليه بقوة ، ضربة تقسم الجسم نصفين من وسطه[5] ، و « العصر » ، بأن يُعصر شخص فى الأركاب إلى أن يموت ، فى آلة خاصة بذلك اسمها المعصرة

---

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٤ فا بعدها ؛ انظر .
Ency. (art Hadd) t2, p. 199.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٣) أنظر . قبله .

(٤) المقدمة ، ص ١٩٩ س ١٢ ؛ انظر . قبله .

(٥) السلوك ، ١/٢ ص ٤٠٤ وهامش ؛ انظر . Quat :
Sult . Maml, l, p. 72 n (103).

جمعها المعاصر أو المعاصير[1] ، وهى مكونة من خشبتين مربوطتين ببعضهما ، تشدان شداً وثيقاً على الشخص المعاقب ، و « التسمير » على عامود ، بوضع الشخص على جمل ، وبعدها يقطّع بالسيف[2] ، و « القتل » بالنسمجة أو ما يسمى أيضا النسمجاة أو النمشاة[3] ، هذا غير قطع اللسان أو إخراج العينين[4] ، أو قلع الأضراس ودقها فى الرأس[5] ، أو تسخين دست وإجلاس عليه الشخص المعاقب ، أو يحمى طاسة ويلبسها له ، أو يضرب الوتد فى الأذن ، أو بدق القصب فى الظفر[6] .

ولم تكن العقوبات التى تنفذها الشرطة تشتمل على العقوبات التى تنفذ فى وقتها فقط ، وإنما تشتمل أيضاً على العقوبات الطويلة الأمد ، وهى على الخصوص : الترسيم — جمعها تراسيم — أى تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه[7] ، ولا سيما السجن ، الذى كان يتبع سلطات متنوعة ؛ فنسمع بوجود سجن القضاة أو سجن الحكم[8] ، وهى مخصصة لما يصدره القضاة من أحكام ، وسجون الولاة[9] — وهى الشرطة — التى هى بالأولى لأحكام لا تصدر عن القضاة . فكانت السجون أشبه بجهنم الحمراء ، تجمع الكثير من المسجونين فى موضع ضيق . كذلك بعض

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ١٣٠ س ٦ ، ٢ ص ٣٧ ؛ السلوك ؛ ١/٣ ص ٧٤٠ وحاشية (٣) .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٣) مفضل (P.O.) ١٤ ، ص ٦١٢ . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 724. يكتبها النمشة .

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ٣٥٣ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ١٧٢ س ١٠ .

(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، حيدر آباد ، ١٣٤٨ هـ ، ١ ص ٤٠٤ .

(٧) السلوك ، ١/٣ ص ٧٤٠ س ١٥ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٤ س ٢١ . عنها ، Suppl, 2, p. 528. : Dozy

(٨) الخطط ، ١ ص ١٤٣ س ٢٧ ؛ النويرى ، نهاية ، ٢٩ ورقة ١ .

(٩) الخطط ، ٣ ص ٣٠٤ س ٧ .

المسجونين يستعملون فى الحفر وفى العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة[١]، فيعملون وهم فى الحديد ، فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم . وفى هذه السجون لا يطعم المسجون ، وإنما يعيش على ما يتصدق به الناس أو السلطان عليهم ، الذى كان يصنع لهم الخبز ، أو حتى على ما يصادر من بضائع مغشوشة[٢] . فيصف المقريزى هذه السجون بقوله : « وأما الحبس الذى هو الآن ، فإنه لا يجوز عند أحد المسلمين »[٣] . ومن قسوة هذه السجون أن المساجين من جوعهم ، أمضوا ثلاثة أيام ماذاقوا شيئاً ، فأحدثوا فيها شغباً ، وقتلوا سجانهم ، وخرجوا عن آخرهم من سجنهم[٤] . ولكن من وقت لآخر ، كان السلاطين يطلقون سراح بعض المساجين ؛ « ظناً منهم أن فى ذلك قربة إلى الله المستعان »[٥] .

هذه السجون توجد فى أنحاء البلاد[٦] ، لا سيما فى مصر والقاهرة والقلعة . ففى مصر والقاهرة يوجد سجنان باسم : « حبس المعونة » — نسبة إلى العون ، الذى هو مساعد والى الشرطة كما ذكرنا — فالأول كان فى أيام الفاطميين ، وتحول إلى مدرسة فى أيام صلاح الدين[٧] ، أما الثانى فبقى إلى عهد قلاوون ، الذى حوله إلى سوق ؛ فكان شنيع المنظر ، مكاناً ضيقاً ، تنبعث منه روائح منكرة ، ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعرى والقمل[٨] . وفى القاهرة أيضاً عدة سجون أخرى ، منها : « خزانة البنود » ،

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٠٤ س ٨ وما بعدها .
(٢) المقريزى ، السلوك ، مخطوطة بدار الكتب ، ٤ ورقة ٦ .
(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٠٤ س ٤ .
(٤) السخاوى ، التبر المسبوك ، بولاق ١٨٩٦ ، ص ١٤٦ .
(٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢ ورقة ٣٧٨ ؛ السلوك ، ٤ ورقات ٦٦٧ ، ٧٦١
(٦) مثل سجن الإسكندرية . النجوم (P) ، ٦ ص ٣٢٥ س ١٠ .
(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .
(٨) نفسه ، ٣ ص ١٦٦ ، ٣٠٥ .

الذى كان من جملة قصور الفاطميين ، يحتوى على السلاح والرايات ، فلما أحرق تحول إلى سجن للأعيان والأمراء فى ١٠١٨/٤٦١ ، وقد بقى إلى وقت المماليك إلى أن هدم فى ١٣٤٣/٧٤٤[١] ، وسجن شمايل ، الذى بنى فى عهد الأيوبيين ، نسبة إلى شمايل أحد ولاة الشرطة ، وربما سمى خزانة شمايل لأنه أنشىء خصيصاً تحت إشرافه ، وقد بقى إلى عهد المماليك ، وإن هدم فى ١٤١٥/٨١٨[٢] ، وسجن المقشرة — سمى هكذا لأنه كان مكاناً يقشر فيه القمح — وكان فى سور القاهرة ، ويدخل ضمنه أحد أبراجها ، وحل محل خزانة شمايل بعد هدمها ، وكان ضيقاً يقاسى فيه المسجونون الغمّ والكرب[٣] . كذلك نسمع عن بعض سجون فى مصر والقاهرة ، لا نعرف منها إلا الاسم ، مثل سجن : الديلم والرحبة[٤] ، كما نسمع عن سجن للنساء يسمى الحجرة ، يستخدم لاعتقال المذنبات[٥] .

ونذكر سجون القلعة الرهيبة ، التى ربما لا تدخل تحت سلطة والى الشرطة ، وإنما بالأولى تحت سلطة والى باب القلعة ؛ وأن من يسجن فيها هم المماليك وموظفو الدولة ، مثل : سجن الجب ، الذى بنى فى عهد قلاوون فى ١٢٨٢/٦٨١ ، وهو كبير مهول مظلم ، كثير الوطاويط ، كريه الرائحة ، يقاسى فيه المسجون ماهو كالموت أو أشد منه ، وقد هدم فى عام ١٣٢٨/٧٢٩[٦] ، وسجن الزردخاناه أو زردخانه[٧] ، التى يبدو أنها كانت إحدى مصانع السلاح ، وتشبه خزانة البنود فى أيام الفاطميين ؛ فقد كانت سجن الأمراء ، وقدر لمن

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٠٥ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٠٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٠٤ س ١٥ .

(٥) السلوك ، ٢/٢ ص ٤٩١ — ٤٩٢ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٠٦ ، ٣٣٣ س ٧ ، ٣٤٥ — ٣٤٦ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٦٠ — ٣٦١ . « الزرد » ، هى الدرع ، وهى عربية ، و « خاناه » وهى فارسية ، تعنى المكان ، والمقصود هو مكان السلاح أو الدرع ؛ وإن قصد بها هنا السجن . عن هذه الكلمة ، انظر . صبح ، ٤ ص ١١ و ٩٨ ؛ Dozy : Suppl, I, p. 584-5.

يُعتقل فيها منهم ألا تطول مدته ، فيقتل أو يُخلى سبيله ، وقد كانت تحت نظر موظف كبير فى البلاط اسمه أمير جاندار أو جندار[١] ، الذى كان ضمن عمله عقاب من يريد السلطان عقابه ، وأخيراً سجون الأبراج ، التى يبدو أنها متعددة[٢] .

* * *

هذا هو التنظيم الدينى فى عهد المماليك ، نجده تطور على حسب مقتضيات العصر ، دون أن يخرج فى جملته عما كان سائداً قبلهم فى مصر ، أو فى دول الإسلام

---

(١) هو لفظ مكون من كلمة « أمير » العربية ، و « جان » الفارسية أو التركية ، بمعنى الأخ ، و « دار » فارسية بمعنى ممسك ؛ فالمقصود هو الأمير الممسك بالروح ، أى أنه يقتل من يأمر السلطان به ؛ وإن كانت وظيفته الأساسية حراسة السلطان فى القصر أو فى الخروجات ؛ ولذا فتحت يده حراس ، يسمون : جاندارية أو جنادرة أو حتى ركابية لأنهم يركبون الخيل . عنه ، انظر . صبح ، ٥ ص ٤٦١ ؛ Dozy : Suppl, I, p. 168 ;
Ency. (art Djândar) tI, p. 1043 ;
Quat. : Sult. Maml, I, p.14, n (15).

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ س ٨ .

الفصل الخامس

النظم الحربية والبحرية

الجيش والأسطول

تميّز النظم الحربية والبحرية فى عهد المماليك تميّزاً واضحاً عن النظم الديوانية والدينية السابقة ؛ فالقائمون بها من رجال السيف ، وليس من رجال القلم أو العلماء .

**

الجيش : ديوانه ـ الإقطاعات ـ الأمراء ـ العساكر النظامية ـ العساكر غير النظامية ـ معسكراته ـ أسس السياسة الحربية ـ الجيش والحرب ـ قيادته ـ خروجه ـ حواشيه ـ زيه ـ أسلحته ـ دوابه ـ سروجه ـ راياته ـ موسيقاه ـ خيامه ـ الخطط الحربية ـ عودته .

وقد كان جيش المماليك من أقوى الجيوش عدداً وقوة ؛ بحيث تغلب على أكبر جيوش الأرض كالصليبيين والمغول ، وهؤلاء الأخيرون لم يكونوا قد هُزموا قبل هزيمتهم على يد المماليك ، وذلك فى مواقع مشهورة فى التاريخ ؛ بحيث أن جيش المماليك عُرف دائماً بالجيش أو الجيوش المنصورة[1] .

وكان جيش المماليك فى وقت السلم أو فى وقت الحرب يتطلب من الدولة الإشراف عليه . فكان يقوم بذلك ديوان يوجد فى القلعة ، يعمل فيه أرباب الأقلام ، بحكم أن العمل فيه من الوظائف الديوانية ؛ وإن كان الإشراف عليه يكون غالباً للعلماء[2] . فكان هذا الديوان يسمى : ديوان الجيش أو الجيوش ، ووظيفته تسمى : نظارة أو نظر الجيش ، ومن

(١) ابن إياس ، ١ ص ٢٦١ س ٧ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣ (آخر الصفحة) .

يقوم به يسمى : ناظر الجيش[١] . وقد كان يعاون ناظر الجيش عدد من الكتاب ، يسمون : كتاب الجيش ، والواحد منهم: كاتب الجيش[٢].

فنميز فى هذا الديوان إدارتين ، إحداهما يتولاها صاحب ديوان الجيش ، ويتبعه كتاب وشهود ، لعله يختص بأفراد الجيش من غير المماليك ، والثانية يتولاها صاحب ديوان المماليك ، له كاتب خاص اسمه : كاتب المماليك ، وشهود ، وكما يبدو من اسمه واسم معاونه ؛ فإنه يختص بالمماليك فقط .

كذلك نميز فى هذا الديوان قسمين ماليين : أحدهما خاص بجيش مصر ، عُرف بديوان الجيش المصرى ، والثانى بجيش الشام ، عُرف بديوان الجيش الشامى[٣] . فكان يشرف على كل منهما موظف كبير فى الديوان ، يُسمى : مستوفى الجيش ، يختص بمصادر الانفاق على الجيش ، أحدهما للديار المصرية ، والآخر للديار الشامية[٤] .

وكان أساس عمل ديوان الجيش ، هو تسجيل أسماء الجنود وأعدادها ونفقاتها . وقد كان تقييدهم يكون عادة تحت أسماء أمرائهم وهم القواد ؛ بحيث أن أى جندى لا يستطيع أن ينتقل من قيده مع أمير إلى أمير آخر . ويذكر المؤرخون أن الأمير لا يأكل إلا وجميع جنوده معه ، ويأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه[٥] .

ونحن نعرف أن أساس النفقة فى هذا الديوان آتية من الإقطاع[٦].

---

(١) صبح ، ٤ ص ٢٠ — ٣١ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢٦٤ س ١٤ . لدينا تكاليف بتعيينه ، ووصية له : صبح ، ١١ ص ٣٢٣ — ٣٢٥ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٣٩ س ٢٥ ، ٣٥٠ س ١٣ .

(٣) زبدة ، ص ١٠٣ .

(٤) المقصد ، ورقة ١٣٦ أ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٤ س ١

(٥) الخطط ، ١ ص ١٤١ س ١٦ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٠٧ — ٤٠٨ ، ٤ ص ١٤ ؛ انظر . Ayalon
The System of Payment in Mamluk Military Society, J. of =

ولا بد أن يكون الإقطاع ممنوحاً من السلطان أو نائبه ، الذى كان له أيضاً حق منح الإقطاعات . ونظام الإقطاع للجيش ، وضع منذ عهد نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى فى العراق[١] ، على أساس الاستعاضة به عن المرتبات . وذلك بينما أنه فى مصر منذ عهد الإخشيد إلى الفاطميين ، وحتى قبل ذلك ، كان الجيش فيها لا يعرف الإقطاع ، ويتسلم العطاء ، وهو المرتبات[٢] . حقاً إنه فى عهد الفاطميين كانت توجد الإقطاعات للجيش ؛ إلا أنها قليلة جداً ؛ وإن زادت فى عهد وزراء التفويض — وهم المستبدون — حتى وجد ديوان الإقطاع[٣] ، ووجدنا إعتراضاً من الجند لقلة إقطاعاتهم . وقد طبق صلاح الدين نظام الإقطاع للجيش فى عصره ، واستمر بعده ؛ بحيث يقول المقريزى : منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب إلى يومنا هذا ؛ فإن أرض مصر كلها ، صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده[٤] . أما فى عهد المماليك ، فيقول المقريزى : إن ديوان الإقطاع أصبح هو ديوان الجيش[٥] .

وقد كان لتوزيع الإقطاعات على الجيش رسوم معينة فى دولة المماليك[٦] .

---

the Economic and Social History of the Orient, I, 1957-58, =
L'Evolution de l'iqtâ'du IX au, : Cahen ؛ pp.37-65 ; 257-296
XIIIe Siècle. Contribution à une histoire comparée des Sociétés
médiévales. Extrait Annales économies . sociétés · civilisations.
؛ Paris. انظر . قبله .

(١) الخطط ، ١ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٢٨ س ٣ — ٤ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٩٣ .

(٤) الخطط ، ١ ص ١٥٦ س ٢١ — ٢٢ ؛ انظر . Gibb :
The armies of Saladin. Cah. d'hist ég. Série III, Fasc 4, Mai, 1951 p. 304 - 306.

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٤٩ س ١٨ و [illegible] .

(٦) زبدة ، ص ٨٦ — ٨٧ .

فيجلس السلطان فى أيام محدودة ، فى قاعة معينة اسمها الأصطبل - أو فى غيرها - ومعه الأمراء عن يمينه وشماله ، على مقاعد من حرير ، ومعهم ناظر ديوان الجيش ؛ ليقرأ ما يتعلق بالإقطاعات على المسامع ، فيمضى السلطان ما يشاء ، ويكون ذلك باسم الأمراء . أما الأجناد فإن الذى يقطعهم الأمراء فى الغالب ؛ وإن كان السلطان ينص على أن للأمير ثلث الإقطاع ، وللأجناد الثلثان[1] ، كما أنه أحياناً يقطع الأجناد بنفسه . كذلك كان الأمير إذا أراد حرمان أحد ؛ فإنه لابد من الرجوع إلى السلطان أو نائبه . وقد كانت بعض الشكاوى ، حتى أن ناظر الجيش قال إن من يشكو أو يتضرر يحبس ، ويقطع إقطاعه « خبزه » . كما أن بعض الأمراء كانوا يتوسطون فى الإقطاع ؛ حتى صدر أمر بمنع ذلك[2] . وكانت الإقطاعات للأمراء فى الغالب على قدر درجاتهم ، فمنهم من يجتمع له نحو العشر بلاد إلى البلد الواحد وهى تكون من الأرض الخصبة « البلاد النفيسة » ، أما غير الأمراء من الأجناد ، فإنه قد يشترك الاثنان فما فوقهما فى البلدة الواحدة ، أو ينفرد الواحد منهم بالبلد الواحد[3] ، وكان من التقليد أنه إذا قدم الإقطاع ؛ قبّل المقطع الأرض[4] .

فكان الإقطاع يكتب مختصراً أمام السلطان أو حتى بخطه ، فيسمى[5] : « قصة » ، إذا كان بخصوص طلبه ، و « مثال » ، إذا كان إنتقاله من متوفى لغيره ، و « نزول » أو « مقايضة » ، إذا تنازل أحدهم عنه لآخر بالمال ، و « إشهاد » ، وهو الإشراك فيه . ثم يرسل الإقطاع إلى ديوان الجيش ، لتقييده وتقديره ، وحينئذ يسمى : « مربعة أو مربعة شريفة[6] » ، جمعها مربعات .

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ س ٢٢ فما بعدها .
(٢) السلوك ، ١/٢ ص ١٥٦ س ٦ — ٨ ؛ الخطط ، ١ ص ١٤٥ .
(٣) صبح ، ٣ ص ٤٥٧ .
(٤) السلوك ، ١/٢ ص ١٥٥ س ١٥ .
(٥) صبح ، ١٣ ص ١٥٣ - ١٥٤ .
(٦) نفسه ، ١٣ ص ١٥٤ - ١٥٦ ؛ ابن إياس ، ٢ ص ١٦٥ .

ثم يرسل إلى ديون الإنشاء للتنفيذ ، فيسمى «منشوراً[١]» ، جمعها مناشير ؛ حيث يذكر فيه عبارة تقليدية : خرج الأمر الشريف ، كما يختم بعلامة السلطان أو الطغرى ، وهى العبارة الدينية : «الله أملى[٢]» .

وقد كان على الأمير فى أول الأمر أن يستغل إقطاعه كما يشاء بمعاونة جنده ، وله فى ذلك دواوين[٣] ، ومباشرون من قبله[٤] . وبعد ذلك . وجدنا الدولة هى التى تقوم باستغلال الإقطاع للأمير وجنده ، حيث وضعت قواعد ذلك فى ديوان النظر ، كما ذكرنا سابقاً . فقد قدرت الدولة لكل فئة من الأمراء والجنود قدراً معيناً من المال ، فمثلاً[٥] : بالنسبة لفئات الأمراء ، قدرت إقطاع الكبار منهم بين ٢٠٠ ألف دينار جيشية إلى ٨٠ ألف ، والأقل درجة من ٣٠ ألف إلى ٢٣ ألف ، وأما دونهما ، فمنهم من يصل إلى ٧ آلاف إلى ما دونها ؛ أما بالنسبة للأجناد ؛ فقد قدر إقطاع الجندى من ١٥٠٠ دينار إلى ٢٥٠ ديناراً ، ومع ذلك ، فهذا المال الذى ينفق على الأمراء والجنود ، لا يكون فقط آتياً من إستغلال الإقطاع الأرضى ، وإنما قد يأتى أيضاً من أبواب مالية أخرى . مثل ضريبة المكس ، التى جعل بعض متحصلها لإقطاع بعض فئات المماليك[٦] .

---

(١) صبح ، ١٣ ص ١٦٢ ، ١٦٧ فما بعدها ؛ Quat :
Sult. Maml, I, p. 200; n (82).

(٢) ابن إياس ، ٢ ص ٣١٩ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٤٢ ؛ انظر . قبله .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٤١ س ٢١ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٥٠ س ٢٥ .

(٥) صبح ، ٤ ص ٥٠ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٣ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٥٠–٣٥١ . أو من عشرين أو ثلاثين ألف درهم للجندى إلى ما دونها . الخطط ، ٤ ص ١٢٦ س ٦ ، ١ ص ١٤١ .

(٦) الخطط ، ١ ص ١٤٣ س ١ – ٢ .

وقد كان بعض الأمراء أو الجنود من طبقة المماليك ، لا يستطيعون القتال أو القيام بأعباء وظيفة فى الدولة ؛ لكبر سنهم أو ضعف قدرتهم ، فيسمى الواحد منهم : «طرخاناً» ، وحالته «طرخانية» — جمعها طرخانيات — وهؤلاء لا يتسلمون إقطاعاً أو قيمة إقطاع ، وإنما مبلغاً من المال «معلوماً» ، ويصدر لهم بذلك تقليد من السلطان ، يعدد فيه مزاياهم واستحقاقهم[1] . وحينئذ يكون لهم الحق فى الإقامة فى أى مكان يشاءون ، دون التقيد بوجودهم بجوار السلطان أو فى عاصمته . كذلك كان يطلق اسم المماليك البطالة أو البطالين ، على من يحرمهم السلطان من الإقطاع أو المرتب «جامكية[2]» .

وفوق ذلك ، كان بجانب الإقطاع توجد للأمراء والجنود رواتب معينة جارية فى كل يوم وفى السنة ، من اللحم والتوابل والخبز والشعير والزيت والشمع والسكر[3] . وكان اللحم — بما فيه لحم الخيل ، الذى انتشر أكله بين المماليك ؛ إذ أن أغلبهم من الترك الذين يأكلون لحم الخيل[4] — من أهم ما يعطى لهم يومياً ، حتى إنه كان يشترى

---

(١) صبح ، ١٣ ص ٤٨ فما بعدها . كذلك وجدت طرخانيات للموظفين ، من بين أرباب الأقلام وهذه نادرة . صبح ، ١٣ ص ٥٢ — ٥٣ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٦ س ٤ ، س ١٤ — ١٥ . هذه اللفظة فارسية الأصل ، جمعها «جوامك» ، لها معنى عام وهو «راتب» مالى ، ومعنى آخر وهو «دراهم الكسوة» . ولدينا عن هذين المعنيين عبارات متعددة ؛ فيقول القلقشندى : نفقة مماليك السلطان عبارة عن : جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك [صبح ، ٣ س ٤٥٧] ؛ فهى هنا تعنى راتباً . ويقول المقريزى : امتنع القاضى عن تناول جامكية على القضاء [السلوك ، ٢/١ ص ٥٤٢] ؛ مما يعنى أيضاً المرتب . وعلى العكس يقول المقريزى فى مكان آخر : الرواتب والجامكية [الخطط ، ٤ ص ١٢٦ س ٢٨] ؛ مما قد يعنى دراهم الكسوة . وإن كنا نرجح الجامكية بالأولى لرواتب المماليك . عن هذه الكلمة عموماً ، انظر . Suppl, I, p. 168 : Dozy

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٥١ س ١٢ — ١٤ ؛ صبح ، ٤ ص ٥١ :

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، مخطوط دار الكتب ، ٢ ورقة ٢١٠ .

لهم منه كميات كبيرة[١] ، وبلغت كمية ما يُشترى منه فى عهد أحد السلاطين ستة وثلاثين ألف رطل فى كل يوم[٢] وللجاحظ — الأديب المشهور — ملاحظة عن أكل اللحم عند الترك ؛ فيقول : إن أجسامهم دون أجسام سائر الناس بنيت على تقبل اللحوم[٣]. كذلك ، كان الأمراء والأجناد يأخذون رواتب إضافية فى رمضان وعيدى الفطر والأضحى ، وحتى إذا أنجبوا الأولاد[٤] وأخيراً كان لهم كسوة ، أو دراهم تسمى: دراهم الكسوة[٥].

وجيش المماليك ككل جيش يتكون من قواد ومن جنود . فيسمى قائد جيش : « أتابك (أو أتابگ) العسكر[٦] ؛ وهو لقب فخرى ، ظهر فى عهد ملكشاه السلجوقى فى العراق ، وبقى إلى زمن المماليك وظل فخرياً ؛ لأن السلطان فى الغالب ، هو الذى يقود الجيش . وهذا اللقب « أتابك العسكر » معناه أبو العسكر ، أخذ ليتفق مع طابع دولة المماليك ، التى اعتمدت على العلاقة بين الأستاذ ومماليكه .

وبالإضافة إلى أتابك العسكر ، كان للجيش قواد يسمون : « الأمراء » ، ووظيفتهم « الإمرة » ؛ فكلمة أمير منذ العهد الإسلامى الأول ، وحتى قبل الإسلام ، تعنى القائد[٧] . فكانت الإمرة لجيش المماليك ، لايحصل عليها

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٩ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٧٣ س ١٤ . وهى كمية للسلطان ومماليكه فقط .

(٣) رسالته إلى الفتح بن خاقان فى مدح الترك ، تحقيق ص ٢٩ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٥١ ؛ صبح ، ٤ ص ٥١ .

(٥) حوادث ، ص ١١٣ س ٧ ، ٢٢ . بلغت ألف أو ألفين درهم .

(٦) أنظر . صبح ، ٤ ص ١٨ ، ١١ ص ١٦٧ ؛ المقصد ، ورقة ١٢٤ ا ؛
Rép. t VII, n. 2737 : Corpus, I, p. 209; 290,
لفظة أتابك تركية ، مركبة من كلمة « أطا » أو « أتا » ، بمعنى أب ، وكلمة « بك » بمعنى السيد أو الأمير . عن هذه الكلمة ، انظر . حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص١٢٢ ؛
Ency. (art Atabak ou Atabeg) 2 ed, tI, p. 753.
Sult. Maml, I, p. 2 n (5) : Quat : Suppl, I, p. 8. : Dozy :

(٧) ابن خلدون . المقدمة ، ص ١٧٩ .

إلا عن طريق الترقى من درجة إلى أخرى[١]، أو عن طريق المحسوبية، بأن يكون له سند «Piston» ؛ وهى للمماليك وحدهم ، وفى النادر لغيرهم[٢]؛ وتكون من قبل السلطان أو نائبه بمشاورة السلطان[٣] . فكان الأمير عند توليته الإمارة يتسلم التشريف من السلطان فى القلعة ، ويحلف يميناً بالولاء، ويُقام له حفل ، يمد فيه السماط — أى الوليمة — وتوقد له القاهرة ، وتزفه أهل الأغانى ، كما يقدم إليه الأمراء الهدايا[٤] .

هؤلاء الأمراء فى جيش المماليك ، يتميزّون فى درجاتهم بأعداد الجند تحت إمرتهم، وبأعداد المماليك الذين يملكونهم ، وحتى بعلامات تشريفية[٥]. كذلك ، كانت أعدادهم تختلف على حسب درجاتهم ، ومن سلطان إلى آخر ؛ إذ السلطان القائم له أن يعين أو يحذف منهم من يريد ، وتختلف أيضاً على حسب الإقطاع والتصرف فيه ؛ إذ قيمة الإقطاع تتفق مع درجة الأمير . وقد كان من يعمل منهم فى الجيش يسمى خرجية ، على عكس من كانوا يلازمون السلطان ؛ ويكونون حاشيته ، فيسمون : خاصّكيّة[٦] .

فمنهم : الأمراء المقدمون ، أو مقدمو ألف أو ألوف ، ووظيفتهم تسمى تقدمة أو تقادم ألف أو ألوف[٧] ، أى تحت قيادتهم ألف أو ألوف

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ س ١٢ ؛ انظر . قبله .

(٢) نفسه ، ٤ ص ١٢٠ س ١١ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٤٩ (آخر سطر) ، ٣٥٣ س ١٢ .

(٤) نفسه ٣ ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، ٢٣٢ س ٢٧ .

(٥) عن ذلك عموماً ، انظر . Mayer :

Studies on the Structure of Mamluk Army. B. S. O. A. S, XV, 1953, p. 204 sqq.

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٥٣ — ٣٥٤ . الخاصكية أو الخرجية كما يظهر فى المتن ، يطلقها المقريزى على الأمراء ، ولكن كما يبدو فإن الخاصكية من غير الأمراء أيضاً ، حتى وصل عددهم إلى ألف . المقصد ، ورقة ١٢٣ ب ؛ انظر أيضاً : زبدة ، ص ١١٥ — ١١٦ . هى كلمة من أصل عربى ، مع تصغير فارسى . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 346.

(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ ؛ صبح ، ٤ ص ١٤ ؛ ابن إياس ، ٢ ص ٢٥ س ١٣ ، ٣٠ س ٧ — ٨ . ربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين.

من الجنود ، كما يسمون : أمراء المئين — مفردها أمير مئين — لأن الواحد منهم يملك مائة مملوك أو أكثر خاصة به . فهؤلاء الأمراء بمثابة الأمراء المطوقين في عهد الفاطميين[١] ، الذين ميّزوا بوضع الطوق الذهب حول العنق على الطريقة الفرعونية . . وقد وصل عدد هؤلاء الأمراء الكبار أربعة وعشرين ، وإن نقص إلى الثمانية عشر أو العشرين[٢] ، لهم رئيس ، يسمى : رأس مقدمى الألوف[٣] . وكان المقربون منهم يسمون : الأكابر ، ويتولون الوظائف الكبرى في الدولة والبلاط ، وحينئذ يسمون : الأمراء المقدمين أرباب الوظائف[٤] .

٢ — أمراء الطبلخاناه ، وظيفتهم تسمى : إمريات طبلخانات[٥] ، سموا هكذا لأنه كان لهم الحق في دق الطبول وغيرها من الآلات في المواكب الرسمية ، أو حين التوجه في أمر هام . وهذا التميز للقواد بدق الطبل تشريفاً لهم ، عرف من قبل في العراق زمن البويهيين . فهم بمثابة أصحاب القضب عند الفاطميين[٦] ، الذين لكى يميزوا عن غيرهم من القواد ، كانوا يحملون في أيديهم قضباً — أى عصى — فضة . كذلك سمى أمراء الطبلخانات بعدد المماليك ، الذين يملكونهم — وهم أقل مما يملكه أمراء المئين — فسموا بأمراء ثمانين وسبعين ، وأقلهم أمراء أربعين ، فهذا الرقم هو أدناها . ومع أن المؤرخين لا يذكرون عدد الجنود تحت قيادتهم ، إلا أنه ولا ريب كانت تحت أيديهم أجناد أقل في العدد من الأجناد ، التي تحت قيادة

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٨٠ .
(٢) نفسه ، ٤ ص ١٤ .
(٣) حوادث ، ص ١ س ١١ .
(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ س ١٧ ؛ صبح ، ٤ ص ١٤ ؛ ابن إياس ، ٢ ص ٢٥ س ١١ ، ٣ ص ٢ .
(٥) صبح ، ٤ ص ١٥ ؛ القصد ، ورقة ١٢٣ آ . هى طبلان وزمران . صبح ، ٤ ص ٦١ .
(٦) صبح ، ٣ ص ٤٨٠ .

أمراء الألوف ؛ فأمراء الطبلخانات كانوا تحت قيادة أمراء الألوف[١] .
وقد كان عدد أمراء الطبلخانات فى الجيش أو الوظائف أكثر من عدد
أمراء الألوف ؛ فهم أربعون أو ثلاثون أميراً[٢] .

٣ — أمراء العشرات أو العشراوات ، ووظيفتهم تسمى : إمريات
عشرة[٣] ، ليس لهم الحق فى دق الطبول تشريفاً لهم ، فهم بمثابة أدوان
الأمراء فى العصر الفاطمى ، الذين لم يكن لهم حق حمل القضب[٤] . ولا يعنى
هذا أن كل أمير من هؤلاء لديه عشرة مماليك خاصة به ؛ بل قد يكون منهم
من تحت إمرته أكثر مثل عشرين ، فيسمون : أمراء العشرينات ، أو أقل
مثل خمسة ، فيسمون : أمراء الخمسات أو الخمسوات . وهؤلاء الأمراء
معظمهم من أبناء الأمراء المقدمين أو الطبلخانات تقديراً لخدمات آبائهم[٥] .
وقد وصل عددهم فى الجيش إلى عشرين أميراً من أمراء العشرينات ،
وخمسين من أمراء العشرات ، وثلاثين من الخمسوات[٦] . ولا ريب أن عدد
الأجناد تحت قيادتهم أقل من عدد الأجناد تحت قيادة فئتى أمراء المماليك السابقين .

أما عن الأجناد ، أو ما يسمى أيضاً العسكر أو العساكر ؛ حيث اشتهروا
باسم : العسكر أو العساكر السلطانية[٧] ، فليس لدينا عنهم معلومات وافية ،
وهم على نوعين : نظامية ، وغير نظامية .

فنميز من النظامية : ١ — أجناد المماليك ، وهم أنواع : مماليك الطباق ،

---

(١) أبو المحاسن (P) ، ٦ ص ٦٤٤ س ١٤ .
(٢) زبدة ، ص ٢٨ ، ١١٣ .
(٣) صبح ، ٤ ص ١٥ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٥٠ ؛ ابن إياس ، ٢ ص ٢٥ س ١٤ ؛
المقصد ، ورقة ١٢٣ .
(٤) صبح ، ٣ ص ٤٨٠ .
(٥) نفسه ، ٤ ص ١٥ ؛ السلوك ، ٢ ص ٣١٤ س ٩ .
(٦) زبدة ، ص ١١٣ .
(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٣٤ س ١١ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٣١٣ س ٢٦ ؛ زبدة ،
ص ١١٦ ؛ النجوم (P) ٦ ص ٧٠٣ ، ٧ ص ٩١ ، ٩٧ .

الذين يخضعون لنظام تعليمي دقيق ، ويسمون أيضاً[1] : مشتروات ، أو جلبان ، أو أجلاب ، أو أحداث ، وهي ألفاظ تعني شراءهم أو جلبهم من بلاد أخرى ، أو حداثة سنهم ، ومعظمهم يشتريهم السلطان أو الأمراء من الخارج ، فهم أجناس مختلفة وعناصر متعددة من تركمان وقوقازيين وأكراد وروس ومغول ، أو حتى من مصر ، حيث كان المصريون أحياناً يبيعون أولادهم من الجوع[2] ، والمماليك القرانصة أو القرانيص ، أو حتى المماليك السلطانية ، وهم مماليك السلاطين السابقين ، الذى ضمهم السلطان القائم إلى مماليكه[3] ، ومنهم حتى العجائز والشيوخ[4] ؛ والمماليك السيفية[5] ، الذين يستولى عليهم السلطان من الأمراء ، الذين يتوفون أو يقبض عليهم أو يقتلهم . فكان هؤلاء المماليك يختلفون فى عددهم من سلطان لآخر ؛ فى وقت ما بلغ عددهم للسلطان عشرة آلاف ، وللأمراء ثمانية آلاف[6] . ولم يكن الأمراء يقفون عند العدد الذى يحدد إمرتهم ؛ فإنهم كانوا يستزيدون ما يشاءون ؛ حيث قيل إن مقام الأمراء بمماليكهم[7] ؛ كما أن السلطان

---

(١) عن هذه التسميات ، انظر . حوادث ، ص ١٩١ س ٢٠ ، ٢٣١ س ٧ ، ٢٤٠ س ٥ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ؛ زبدة ، ص ١٢٦ ؛ السلوك ، ١/٢ ص ٦٤٣ س ٨ وحاشية ؛ انظر . قبله . عن أجلاب ، Dozy : Suppl, I, p. 204 . وعن أحداث ، انظر . Ibid, I, p. 258 .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٩٢ (آخر السطر) . مثلما حدث فى عهد فرج بن برقوق ، لما وقعت مجاعة شديدة .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٥ ص ١٠ ؛ حوادث ، ص ٢٥٠ ، ٣٣٥ ؛ زبدة ، ص ١١٦ ؛ انظر . قبله .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ١٦ س ١٨ .

(٥) زبدة ، ص ١١٦ ؛ انظر . قبله .

(٦) نفسه ، ص ١٠٤ .

(٧) المقريزى ، السلوك ، مخطوطة ، ٤/٢ ، ورقة ٤٣٤ ؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٠٠ .

هو الآخر كان يجمع أكبر عدد من المماليك(١). وقد كان هؤلاء الأجناد المماليك يسجلون فى الديوان، ويوزع عليهم الإقطاع(٢) وليس لدينا معلومات عن تقسيمات هؤلاء الأجناد المماليك؛ غير أن مماليك السلطان كان يرأسهم مقدمو المماليك السلطانية(٣)، بينما الأمراء يرأسون مماليكهم؛ بطبيعة الحال. وقد وصف القلقشندى هؤلاء الأجناد المماليك بقوله: «وهم أعظم الأجناد شأناً، وأرفعهم قدراً، وأشدهم قرباً، وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة(٤)».

٢ — قسم آخر هام، هو جند الحلقة، وهى تسمية ظهرت فى عهد صلاح الدين؛ لتدل على نخبة من الجند، محترفى الجندية(٥). كذلك سموا أولاد الناس، حتى ولو كانوا من نسل المماليك، أو من الأسرى الأطفال الذين ربوا فى مصر، بمعنى أنهم أحرار، وليسوا من المماليك(٦). فكان معظمهم من الجند المرتزقة؛ إذا الارتزاق بالجندية كان من سمة العصور الوسطى فى الشرق والغرب. وقد أصبح معظمهم من أهل مصر؛ إذ يقول المقريزى إن معظم جند الحلقة من أصحاب حرف وصناعات(٧).

---

(١) فمثلاً قلاوون جمع سبعة آلاف أو اثنى عشر ألفاً. الخطط، ١ ص ١٥٣ س ٣. وبرقوق جمع أربعة آلاف. نفسه. ١ ص ١٥٣ س ٧. والناصر بن قلاوون اثنى عشر ألفاً. ابن إياس، ١ ص ١٧٣ س ١٥.

(٢) صبح، ٣ ص ٤٥٧. قد يشترك الاثنان فما فوقهما فى البلدة الواحدة، وربما انفرد الواحد منهم بالبلد الواحد.

(٣) الخطط، ٣ ص ٣٥٤ س ٩.

(٤) صبح، ٤ ص ١٥ — ١٦.

(٥) أبو شامة، الروضتين، القاهرة ١٢٨٧ هـ، ٢ ص ١٧٩ س ١٨، ٢١٧ س ٢٢. الحلقة هى السلاح. أنظر. Dozy : Suppl, I, p. 317 ؛ ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ٨٥.

(٦) عن هذه التسمية، انظر. زبدة، ص ١٠٤؛ ابن إياس، ٣ ص ١٨ س ٢٤؛ انظر. Ency. (art Awlâd al-Nâs.) 2ed, tI, p. 788. ؛ السلوك، ١/٣ س ٦٩٠ حاشية ٢.

(٧) الخطط، ٣ ص ٣٥٥ آخر سطر.

فكانت هذه الطبقة لا تتغير بتغير السلاطين وإنما تبقى كأساس دائم للجيش في مصر . وفوق ذلك ، كان يوجد جند حلقة في الشام . يؤخذون من أهل الشام ، ويوزعون على نياباتها[1].

فكان جند الحلقة يقسمون إلى أقسام ، كل منهم تعداده ألف ، فيسمون بالفرسان(٢) ؛ لوضعهم تحت إمرة أمراء الألوف . كذلك يقسمون إلى مائة ، عليهم باش أو باش العسكر(٣) ، وإلى أربعينات عليهم مقدم أو مقدم الأجناد[4] ، منهم الأعيان ، فيسمون : أعيان مقدمي الحلقة[5] ، كما نسمع عن النقباء أو نقباء الألوف[6] ، وعن أعيان الجند[7]. فكان باش العسكر والمقدمون يختارون عادة من أبناء الأمراء[8] ، أو حتى من أبناء الموظفين والتجار ، ومنهم المصريون والشاميون(٩). ولا نعرف علاقة مقدمي الألوف بباش العسكر والمقدم ؛ وإن عرفنا بأن مقدمي الألوف كان تحت قيادتهم أمراء طبلخانات ، وأمراء عشراوات(١٠) . وفوق ذلك ، لم يكن للمقدم على جند الحلقة سلطة إلا في وقت الحرب[11] ؛ وإن كان لهم الحق في حضور حفلات السلطان ومواكبه[12] . وقد كان جند الحلقة يسجلون في ديوان

(١) زبدة ، ص ١٠٤ .

(٢) الخطط ، ١ ص ١٥٣ س ١١ .

(٣) زبدة ، ص ١٠٦ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٣٥ س ١٢ ؛

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٥١ س ٤ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٣٥٥ س ١١ ؛ صبح ، ٥ ص ٤٥٦ ؛ انظر . بعده .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٥٢ س ١٥ .

(٨) ابن إياس ، ٣ ص ١٠ — ١١ .

(٩) ابن قاضي شهبة ، ذيل على تاريخ الإسلام ، مخطوط رقم ١٥٩٨ (B.N) ، ورقة ٢٣ ب .

(١٠) أبو المحاسن (P) ٦ ص ٢٩٣ س ١٢ ، ٦ ص ٤٦٤ س ١٤ ؛ انظر . Demomb. : Syrie CII, n (2) .

(١١) الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ (في آخر الصفحة) .

(١٢) نفسه ، ٣ ص ٣٥٣ ؛ المقصد ، ورقة ١٢٣ ب .

الجيش ، ولهم الحق فى الإقطاعات[١] ، وذلك باسم أمرائهم . وقد بلغت هذه الطبقة من الجند أقصاها فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فوصلت إلى أربعة وعشرين ألفاً فى مصر ، وستة وعشرين ألفاً فى الشام[٢] .

بعد ذلك نميّز العساكر غير النظامية فى الجيش ، مثل : ١ — العربان ، وهى التى تؤلف طلائع الجيش النظامى[٣] ، وهم مشاة أو فرسان ، فنسمع عن العربان الركابة التى تركب الخيل ، والعربان النجابة التى تركب النجب[٤] ، وتقوم بإنهاك قوى العدو قبل الجيش النظامى . وهذه الطبقة كانت فى أعداد كبيرة ، نظراً لكثرة العربان ، الذين سكنوا مصر ، وجاءوا مع حركة الفتوح الأولى ، أو مع غزوة القرامطة لمصر أيام الفاطميين ؛ حيث مثلت فى مصر جميع شجرة النسب العربى[٥] ؛ هذا فضلاً عن عربان الشام[٦] ، حيث أن الشام كانت دائماً مجالاً لسكنى العرب . وكان عربان مصر أو الشام ، يسجلون أحياناً فى الديوان ، وتقطع لهم أراضى مصر والشام[٧] ؛ وإن كان الدفع لهم غالباً يكون عن طريق الراتب « جامكية » . وقد بلغ عدد العربان المسجلين فى الديوان فى مصر والشام أكثر من ٢١٩ ألفاً[٨] ، وكان لهم أمراؤهم .

٢ — وأخيراً نميّز عامة المصريين ؛ فقد ورد ذكرهم صراحة[٩] ؛

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٥٨ ؛ انظر . قبله .
(٢) نفسه ؛ الخطط ، ١ ص ١٥٣ ؛ زبدة ، ص ١٠٤ ، ١١٦ .
(٣) ابن إياس ، ١ ص ١٤٤ س ٢٦ ، ١٤٥ س ٤ .
(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٦٦ س ٥ ، ٤ ص ١٢٦ س ٢ .
(٥) عن قبائلهم فى مصر ، انظر . صبح ، ٤ ص ٦٧ — ٧٢ ؛ المقريزى ، البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب ، تحقيق Wust ، ط . Gottingen ، ١٨٤٧ .
(٦) ابن إياس ، ١ ص ١٤٥ س ٤ ؛
(٧) زبدة ، ص ١٠٥ .
(٨) نفسه .
(٩) ابن إياس ، ١ ص ١٤٤ — ١٤٥ ؛ المقصد ، ورقة ١٢٣ ب .

حين كان يلم بمصر خطر عظيم ، وذلك منذ عهد الفاطميين . فالمصريون هم الذين صدوا الصليبيين وطردوهم من الشام ، وصدوا المغول الذين لم يكونوا قد هزموا قط ، وكانوا يحلمون بالوصول إلى المحيط الأطلسى . فكانوا يجمعون بالآلاف، بما يعرف النفير العام[١] — أى التعبئه العامة — أو الجهاد فى سبيل الله ؛ فيأتون من القاهرة ، ومن سائر أقاليم مصر . فكان من يرفض أن يجند يضرب بالمقارع ، كما يضرب من يختفى منهم[٢] . وكانت تؤخذ لهم ضريبة خاصة ، تفرض بخط العلماء ، مثل مقرر جباية الدينار — على كل واحد من جميع أهل مصر[٣] . ولكى السلطان - يرغبهم «الرعية» فى القتال وقت الحرب ؛ فإنه يوزع عليهم الغنائم[٤] .

هذا الجيش المماليكى فى وقت السلم — ونقصد به المماليك دون العرب والمصريين — لم تكن له معسكرات ثابتة ، مثلما كان الحال فى الدول التى قامت فى مصر ، قبل المماليك . فلم نعد نسمع مثلاً عن الحارات ، التى كانت لجيوش الفاطميين ، وهى التى كانت معسكرات حقيقية ، توجد فيها البيوت والدكاكين والأسواق لحاجات العسكر[٥] . فقد كان الغرض من إسكان العسكر فى حارات معينة ، منعهم من مضايقة سكان البلاد[٦] . حقاً إن المماليك فى أول عهدهم فى مصر ، سكنوا جزيرة الروضة[٧] ،

(١) ابن إياس ، ١ ص ١٤٤ س ٢٦ .

(٢) السلوك ١/٢ ص ٤٢٩ س ١٣ .

(٣) نفسه ، ١/٢ ص ٤٣٧ س ١٥ ؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ٧١ س ١٢ فما بعدها .

(٤) ابن إياس ، ١ ص ١١٠ س ٦ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٢ فما بعدها ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢٠٢ فما بعدها .

(٦) ناصر خسرو ، سفرنامة ، تحقيق الخشاب ، ط ١ ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤٧ ؛

(٧) عنها ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٢٨٩ فما بعدها .

وهى جزيرة بين مصر والجيزة ؛ كان الأيوبيون قد أقاموا فيها قلعة[١] ؛ حتى أن دولة المماليك التى قامت بعد الأيوبيين ، سميت : البحرية[٢] ؛ نسبة إلى سكناهم فى هذه الجزيرة . وقد بقيت غالبية المماليك تسكن قلعة الروضة إلى عهد بيبرس ، الذى زاد فى عدد بروجها وهى الأماكن الحصينة — وفرق هذا البروج على جميع الأمراء وسلمهم مفاتيحها ، ورسم أن تكون سكناهم ، وسكنى أجنادهم فيها ، وحتى اصطبلاتهم[٣] . ولكن هذه القلعة خربت بعد بيبرس ؛ مما دعا الأمراء بالتالى إلى هجرها إلى أماكن أخرى . كذلك دولة المماليك الجراكسة التى جاءت بعد المماليك البحرية ، تكونت من المماليك ، الذين يسكنون بروج قلعة الجبل (على جبل المقطم) ، ولذا سميت دولتهم أيضاً : المماليك البرجية[٤] ، نسبة إلى سكناهم هذه البروج . ومع ذلك ، فيبدو أن المماليك عموماً لم تكن لهم معسكرات ثابتة ، غير الطباق التى تكلمنا عنها سابقاً ؛ وإنما كان الجنود يسكنون مع أمرائهم فى أى مكان بين الناس ؛ فيقول ابن شاهين إن ثلاثين أميراً من أمراء الطبلخانات[٥] ، كانوا يسكنون الحسينية ، إحدى حارات القاهرة القديمة . ويضيف المقريزى ، أن هؤلاء الأمراء اتخذوا لهم فيها الاصطبلات ومناخات الجمال ؛ وقد جر ذلك إلى أن يئن الناس دائماً من مضايقة العسكريين[٦] . وعلى العكس ، فقد كان مماليك السلطان وخواصه من الأمراء يسكنون معه فى القلعة ، بنسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم ؛ وإن لم يكن ذلك طوال حكم المماليك[٧] .

---

(١) عنها ، انظر . نفسه ، ٣ ص ٢٩٧ فما بعدها .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٨٤ س ٢٦ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٩٩ س ١١ فما بعدها .
(٤) نفسه ، ١ ص ١٢٠ س ١٩ — ٢٠ ، ٣ ص ٣٩١ . المقصود على إنما يظهر قلعة الجبل (المقطم) ؛ لأن القلعة فى جزيرة الروضة ، كانت قد بدأت تخربه .
(٥) زبدة ، ص ٢٨ . عن هذه الحارة ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٣٤ س ١٥ — ١٨ .
(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٥ س ٦ — ٧ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٣٣ س ١ فما بعده .

كذلك ، لم تكن توجد حاميات عسكرية دائمة فى أنحاء مصر ، كما كان الحال من أيام الفاطميين ، الذين كانوا يُسكنون أجنادهم فى مراكز الحدود وهى «الثغور»[١] ، فى دمياط ، وتنِّيس ورَشيد ، وعَيذاب وأسوان ، والإسكندرية[٢] ، وغيرها فمثلاً لما هوجمت الإسكندرية من قبل جيش ملك قُبرس فى ٧٦٧/١٣٦٥ — ٦ ، لم تكن فيها حامية ثابتة ، غير بعض العربان المجاورين لها ، وإنما وصلها جيش المماليك من القاهرة[٣] فلعل نظام حكم المماليك ، كان يجمع غالبية الأمراء حول السلطان فى مقر الحكم .

وعلى العكس ، وجدت حاميات المماليك فى نيابات الشام ، وحتى فى الإسكندرية لما تحولت إلى نيابة[٤] . فكانت هذه الحاميات تقيم فى قلاع ، انتشرت فى أنحاء الشام على الخصوص ، حيث أقيمت إحداها فى الإسكندرية ، وهى قلعة قايتباى المشهورة[٥] ، التى لا تزال آثارها باقية إلى الآن . فكان يشرف على القلاع فى الشام نائب عُرف باسم : نائب القلعة[٦] ، وهو فى مرتبة أقل من مرتبة النيابة ذاتها ، وكان إذا تولى منصبه ، حلف يمين الطاعة للسلطان ، والدفاع عن قلعته وإنه لا يسلمها إلا للسلطان أو بمرسومه الشريف[٧] .

وقبل أن نعطى فكرة عن تنظيم جيش المماليك فى أوان الحرب ،

---

(١) مثلاً : نفسه ، ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٤ س ٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ص ٢٠٥ .

(٢) الخطط ، ١ ص ١٧٦ س ١ — ٢ .

(٣) ابن إياس ، ١ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٤٠٨ ، ٤ ص ٢٤ ، ١١ ص ٤٠٥ — ٤٠٧ ؛ انظر . قبله .

(٥) عنها ، انظر . Mayer :
The building of Qaytbay. London, 1938.

(٦) صبح ، ٤ ص ١٨٤ — ١٨٥ ؛ ١٣ ص ٩٩ فما بعدها ؛ Sauvaget :
Décrets, 3ème, n 40, p. 15,

(٧) صبح ، ١٣ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

نذكر سياسة المماليك الحربية خلال حكمهم فى مصر . والواقع أن أركان سياستهم الحربية ، هى نفس أركان سياسة حكام مصر الإسلامية القوية ، وهى التى بدأت تظهر منذ الفاطميين . فمصر منذ الفتح العربى ، كانت ولاية تابعة للخلافة الإسلامية ، تنفذ ما تمليه عليها المدينة ، ومن بعدها دمشق ، ومن بعدها بغداد . ولكن تحول مصر من ولاية إلى خلافة مستقلة استقلالاً تاماً على يد الفاطميين ، جعل لمصر سياسة حربية إسلامية خاصة بها . ولما جاءت دولة الأيوبيين ، ومن بعدها المماليك ، عملت الدولتان على أن تكون مصر دولة إسلامية قوية ، فاستمرت السياسة الحربية الخاصة .

والمماليك فى سياستهم الحربية ، كانوا مثل الفاطميين والأيوبيين ، لم يكن قصدهم فرض سيطرة جنس المصريين ، أو سيطرة جنسهم التركى على العالم الإسلامى كما كان الحال مثلاً عند الأمويين ، حينما كان هدفهم فرض سيطرة العنصر العربى ، أو عند العباسيين ، الذين قاموا بتأييد الفرس ففى ذلك الوقت ، كانت حركة الشعوبية أو القوميات قد اختفت ، والروح الإسلامية قد تمكنت من شعوبها ، وجعلتهم أخوة لا فرق بين عربى وعجمى . ولكن قصد المماليك فى مصر ، كما هو قصد خلفاء الفاطميين أو السلاطين الأيوبيين ، اتخاذ مصر الغنية بمالها ورجالها ، قاعدة أصيلة فى الدفاع عن الكيان الإسلامى .

ولا ريب ، فإن الشعب المصرى ، كان قد تحول معظمه للإسلام ، وكان مستعداً للتضحية فى سبيل الإسلام . ويكفى أن نقرأ كتاب السلوك للمقريزى لنرى حماس المصريين للإسلام بحيث أنهم فى إحدى مظاهراتهم ، كانوا ينادون : لا دين إلا دين الإسلام[1] . وقد وجدت هذه الروح المصرية الإسلامية صدى عند المماليك . مثلما وجدت عند الفاطميين والأيوبيين

---

(١) السلوك ، ١/٢ ص ٢٢٦ س ١٤ ؛ انظر ، قبله .

من قبل ـ لا سيما وأن المماليك كانوا بدورهم متحمسين للإسلام ، حيث أن إسلامهم حديث ، ويحبون الفروسية والقتال ـ فلم يدخروا وسعاً فى النضال فى سبيل الإسلام وكيانه

لذلك ، تمكن المماليك عن طريق اتخاذ مصر قاعدة للدفاع عن الكيان الإسلامى ، محاربة الصليبيين الذين جاءوا إلى الشرق وطردوهم منه ، خصوصاً وأن الأيوبيين قبلهم ، لم يستطيعوا أن يقطعوا دابر هذا الخطر . كذلك كان على المماليك أن يقفوا أمام خطر أكبر ، لا يقل فى تهديده للإسلام عن الخطر الصليبى ، وهو الخطر المغولى الوثنى ، أو الخطر الأصفر ، الذى هدد جميع أجزاء العالم المعروف،وامتد من آسيا إلى أوربا ، وكان يحلم بالامتداد إلى افريقيا ، والوصول إلى المحيط الأطلسى ؛ فهزموه وأوقفوه بعيداً عن افريقيا .

ثم إن موقع مصر الجغرافى هو أيضاً يتدخل بالضرورة لرسم سياسة المماليك الحربية . فسياسة مصر الحربية منذ الفراعنة ، تجعل حكامها يفتحون الشام ، ، أو على الأقل يكون الشام متفاهماً مع مصر ؛ لأنه منطقة أمان لمصر ؛ حيث يُعتبر الشام امتداداً لحدود مصر حتى جبل طوروس . وعلى العكس ؛ فإن وجود صحارى واسعة فى غرب مصر ، لم تجعلهم يعطون قسطاً هاماً لشئون المغرب . والدليل على ذلك ، أن الدولة الفاطمية بعد استقرارها فى مصر ، لم تهتم بالمغرب اهتمامها بالشام ، مع أنها ظهرت فى المغرب . كذلك لعل السبب فى اهتمام المماليك بالشام أكثر من المغرب هو أن الأخطار على العالم الإسلامى ، لم تظهر فى غرب مصر ، وإنما فى شرقها .

أضف إلى ذلك ، أن المماليك تنبهوا إلى ضرورة الاهتمام بجنوب مصر أو السودان . مثلما فعل الفراعنة من قبل . وهو الذى أهمل فى عهد حكام مصر قبل المماليك ؛ بسبب إنشغال هؤلاء الحكام بالأحداث الخطيرة فى الشام قبل كل شىء . فالمماليك ، هم الذى فتحوا السودان ، وصبغوه

بالصبغة الإسلامية ، بعد أن كان مصبوغاً بصبغة قبلية أو وثنية . ولا ريب ، فقد كان السودان أبداً على مر العصور ، يأخذ صبغته من مصر ، بحكم أن النيل يجمع بينهما ؛ فكما أن السودان تحول إلى دين مصر القديمة ، وإلى المسيحية عن طريق مصر ، تحول إلى الإسلام عن طريق مصر أيضاً ، وذلك فى عصر المماليك .

وفوق ذلك ، منذ أن تحولت مصر إلى الإسلام ، وقامت فيها الخلافة الشيعية فى عهد الفاطميين ، ثم قيام الأيوبيين بحماية الخلافة العباسية السنية ، ثم انتقال هذه الخلافة إلى مصر فى عهد المماليك ؛ فنجد المبدأ السائد ، هو أنه لا شرعية لهذه الخلافة دون أن يذكر اسمها فى الحرمين ؛ لذلك أصبح خضوع الجزيرة العربية ـ مهد الإسلام ، بما فيها الحجاز على الخصوص ـ لهذه الخلافة كان ضرورياً ، وقد تمسك حكام مصر المسلمون على أن تدين الجزيرة العربية بولائها لهم . كذلك كان هم المماليك هو جعل العالم الإسلامى يخضع جميعه بالولاء للخلافة العباسية السنية فى مصر ، وهو نفسه الهدف ، الذى رمى إليه الفاطميون من قبل ، حينما أقاموا فى مصر خلافتهم الشيعية ، وكذا الأيوبيون الذى أصبحوا حماة الخلافة العباسية .

*

على كل حال ، كان الجيش الفاطمى حسن التنظيم فى أوان الحرب ؛ وإن لم تصلنا المعلومات الوافية عنه . ففى وقت الحملات الكبرى ، كان السلطان بنفسه يقود الجيش ، ولكن فى حالة وجود فتن أو حملات صغيرة ، مثل الحملات فى السودان ؛ فإنه غالباً ما يكفل القيادة إلى أحد الأمراء[1] ؛ فكما ذكرنا لم يكن ، أتابك العسكر ، إلا منصباً فخرياً .

وقبل أن يخرج الجيش ، كان يعرضه السلطان[2] ، وذلك على حسب

(١) مثلاً : ابن إياس ، ١ ص ١٠٩ .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ س ٤ .

عوائد معروفة[١] . فكان يشرف على العرض رجال متخصصون ، على رأسهم «نقيب الجيوش[٢]» ؛ فهو الذى يمر على الأمراء يعلمهم بيوم العرض وله أن يقبل عذر من يعوقه عن السفر — ويجمع فرق الجيش وينظمها ، بمساعدة « نقباء » أو « نقباء الألوف[٣] » ؛ حيث أنه كان أكبر تقدمة للجيش ألف جندى ، كما ذكرنا .

فيبدأ الاستعداد للعرض برفع راية السلطان الكبرى المسماة : « جاليش أو شاليش[٤] » ، وهى راية فى رأسها خصلة شعر كبيرة ، وذلك نقلاً من شعار الترك فى موطنهم الأصلى فى التركستان ؛ فقد كان عليهم تزينه خصلات من شعر ذنب الخيل[٥] . فكان « الجاليش » ، يعلق على المكان الذى تدق حوله الطبول والمزامير والنفير أمام مقر السلطان ، حيث يذكر النصّ : « على الطبلخانات[٦] » . ويستمر « الجاليش » ، هكذا معلقاً إلى

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ٢٦ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٣ فما بعدها ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ ؛ صبح ، ٥ ص ٤٥٧ ؛ زبدة ، ص ١١٥ ؛ Corpus, I, p. 172; 175.

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٥٥ س ١١ ؛ صبح ، ٥ ص ٤٥٦ . ربما يكون « نقيب » ، غير « نقيب ألف » ؛ حيث أن الجيش كان يشتمل على أمراء مقدمى ألف ، وحتى أمراء يعملون فى الوظائف على درجات مختلفة ، كانوا يشتركون فى القتال ، إذا ما دعت الحاجة إليهم .

(٤) المقدمة ، ص ٢٠٥ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ٢٧ فما بعدها ؛ النجوم (P) ٦ ص ٤٨ س ٢ ، ١٢١ س ١٨ (جاليش السفر) . عنها ، انظر . Quat : Sult I, I, 225; 253. ؛ Dozy : Supp, I, p. 168.

هذه الكلمة أصلها تركى أو فارسى قديم . وربما كان يحمله فى مواكب السلطان موظف خاص ، هو « العلم دار » ، وهذه التسمية الأخيرة مكونة من « علم » العربية ، و « دار » الفارسية ، لتعنى : حامل العلم . عنه ، انظر صبح ، ٤ ص ٢٢ ، ٥ ص ٤٦٣ . هذا الموظف — فى رأيى — غير « أمير علم » ، الذى حدد عمله بالإشراف على الأعلام . عنه ، انظر . صبح ، ٥ ص ٤٥٦ . ومع ذلك فعاشور يذكر أنهما شخص واحد . أنظر . عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٤٣٥ .

(٥) انظر . حسين مجيب المصرى ، تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٨—٢٩ .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ٢٧ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 27.

أن يتحرك الجيش ، حتى ولو استمر الاستعداد والعرض أربعين يوماً أو شهرين[١] ، وبعدذلك يوضع «الجاليش» فى طليعة الجيش ، ليكون أمامه.

وقد كان العرض يكون فى الميدان عادة[٢] ، ولعله ميدان القلعة ، الذى يُوصف على أنه فسيح المدى[٣] . فيركب السلطان فرسه وفى يده سلاح أشبه بفأس « طبر[٤] » ، وكأنه قضيب الملك ، الذى كان خليفة الفاطميين يمسكه فى يده[٥] . فيتحرك الجيش أمام السلطان ، وهو موزع فى وحدات مختلفة الأسماء ، منها : تقادم الألوف جمع تقدمة ألف ، التى على رأس كل منها أمير مقدم ألف ، وأطلاب ، جمع طُلب[٦] ، وهى وحدات أصغر ، قد تبلغ أربعمائة ، يرأسها أمراء يعملون فى وظائف البلاط أو الدولة[٧] ، حتى أنه كان للسلطان نفسه هو الآخر طُلبه من الفرسان فى عدد صغير[٨] ، وجرائد جمع جريدة[٩] ، وهى وحدات صغيرة أيضاً ، لعلها من الخيالة

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٢ س ١٠ ، ٢٤ س ٢٨ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٣٠١ س ٢ — ٣ ، ٣ ص ٢٥ س ١ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ س ١٢ .

(٤) ابن إياس ، ١ ص ٢٤ . آخر سطر . جمعها أطبار . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 20.

(٥) هو عود طوله شبر ونصف ، مرصع بالدر والجوهر ، ملبس بالذهب . أنظر . صبح ، ٣ ص ٤٧٢ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ٦٧ .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ١٨ ، ٢٠ . ظهر هذا اللفظ فى أيام صلاح الدين والأيوبيين . ويذكر المقريزى أن الطلب فى لغة الغز ، هو أمير له لواء وبوق ، ومائتى فارس ، الى مائة ، إلى سبعين ؛ ولكن — كما رأينا — فإن هذا العدد ازداد . عن هذه الكلمة ، انظر . الخطط ، ١ ص ١٣٩ س ١٢ — ١٣ ؛ Dozy : Suppl, 2, p. 51.

(٧) مثل الدودار ، وهو موظف بالبلاط . ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ١٩ .

(٨) نفسه ، ٣ ص ٢٤ س ١٥ ، ١٨ .

(٩) يظهر معنى هذه الكلمة من النصوص ، مثل : « توجهت العساكر جرائد على الأمر المعهود » . السلوك ، ١/٢ ص ٦٢٨ س ٦ . و « ركب إلى القدس جريدة » . نفسه ١/١ ص ١٠٦ وحاشية (٨) . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, 1, p. 184.

فقط . وأخيراً توامين أو طوامين(١) ، جمع تومان أو طومان ، وهى فرقة من العسكر ، يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل ؛ لعلهم يكونون من المصريين ، أو حتى من العربان .

ويصحب الجيش حواشى ، فمنهم رجال الدين ، مثل : قضاة العسكر ، وهم ثلاثة نفر : شافعى ، وحنفى ، ومالكى(٢) ، ولا يوجد للحنابلة أحد . فيقول القلقشندى عن عملهم ، أنه هو التحدث فى الأحكام فى الأسفار السلطانية(٣) ، لاسيما فى الغنائم والبيع والشراء ، ويكون ذلك بحسب الشريعة ، حيث يكون الشهود من الأجناد(٤) ؛ وذلك على الرغم من وجود قضاة عسكر آخرين فى النيابات(٥) . كذلك يصحب الجيش المؤذنون والقراء والوعاظ ، لتحميس الجيش أثناء القتال(٦) ، وحثهم على الجهاد والتشويق للجنة . فمن العبارات المألوفة : «يامجاهدون ، لاتنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم ، وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم(٧)» . كما قد يذهب رجال الصوفية المباركين بطوائفهم وأعلامهم ؛ فنسمع بخروج سيدى أحمد البدوى ، وسيدى أحمد الرفاعى فى إحدى الحملات(٨) . وأحياناً يصحب الجيش

---

(١) السلوك ، ٣/١ ص ٩٣٣ س ٨ وحاشيته . وهى تسمية مغولية .

(٢) صبح ، ٤ ص ٣٦ . فى مكان آخر يقول القلقشندى أربعة . نفسه ، ١١ ص ٢٠٤ . انظر : ملاحظة Tyân : Org. Jud 2, p. 298; 300-3, 804-5, ؛ انظر ، ، .

(٣) صبح ، ١١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٢٣٥ س ٩ فما بعدها .

(٥) صبح ٤ ص ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ؛ انظر ، قبله .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣ س ٢٠ .

(٧) السلوك ٣/١ ص ٩٣٣ س .

(٨) نفسه ، ٣ ص ٢٢ ، ص ٤٦ س ٦ — ٧ .

الخليفة[١] ، وحتى القضاة الأربعة[٢] . ومن ناحية أخرى ، كان يخرج مع الجيش لتحميسه والترفيه عنه رجال الغناء والطبالون والزمارون والمنقرون[٣] .

وفوق ذلك ، يصحب الجيش الحواشي من النجارين ، والحجارين ، والحدادين ، لما يحتاج إليهم[٤] ، وأيضاً الغلمان الذين يقومون بأعمال الخدمة العادية وخدمة الخيل[٥] ، والعبيد الذين يحملون الأمتعة وغيرها[٦] ؛ وحتى السقاة لسقى الماء[٧] . وفوق ذلك كان يسير مع السلطان فى الأسفار الأطباء والجراحون[٨] ، ويكون معه مارستان ـ مستشفى ـ وخزانة عقاقير وأشربة . وقد يسبق الجيش أو يصحبه جواسيس ، يجهزون لبلاد العدو ، يختارون على حسب اليقظة والذكاء ، ولهم دربة بالأسرار ، ويكونون عارفين بلغة البلاد ، ويتشبه الواحد منهم بأهلها[٩] .

ويستمر العرض نفسه عدة أيام تبلغ أربعة[١٠] . وفى هذه المناسبة توزع النفقة ، وهو المال الطارىء للحرب ، الذى يحمل فى صناديق مغطاة بالحرير الملون[١١] . فقد كان الجيش يأخذ معه المال فى أكياس ، حيث يصحبه

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٢ س ١٢ ، ٢٤ س ٢٣ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٢ س ١٥ ـ ١٦ ، ص ٤٦ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٣ س ١٣ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٣ س ١٦ ، ٨٩ س ١٩ .
(٥) صبح ، ٥ ص ٤٧١ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٦١ س ٣ ـ ٤ .
(٦) حوادث ، ص ١٩ ، ٢٥١ .
(٧) النويرى ، نهاية الارب ، ط . دار الكتب ، ٨ ورقة ٢٢٦ .
(٨) الخطط ، ٣ ص ٣٢٥ س ٢٢ فما بعدها .
(٩) المقصد ، ورقة ١٠٢ .
(١٠) ابن إياس ، ٣ ص ١٩ س ٢٢
(١١) نفسه ، ٣ ص ١٨ س ٢٠ ؛ النجوم (P) ، ٦ ص ٢٥٦ س ١٥ ـ ١٦ .

« الخزّان » ، و « شهود الخزانة[١] » . وفي بعض الأحيان قبل أن يتحرك الجيش ، قد يذهب السلطان ، لزيارة ضريح الإمام الشافعي للتبرك[٢] .

وقد كان الأمراء والعسكر في العرض يكونون باللبس الكامل[٣] .

ويذكر ابن شاهين عن زيّهم ، أنه اختلف من طائفة إلى أخرى ، حتى بلغ المائة ؛ وذلك على عكس المغول ، الذين كان لبس سلطانهم أو أميرهم أو خدمهم واحداً[٤] . كذلك يذكر المقريزي أن زيّ الأمراء والعسكر اختلف في دولة المماليك[٥] . ومع ذلك ، فيبدو أن زيّهم قد بدأ يأخذ شكلاً متجانساً منذ قلاوون[٦] ، وإن حدثت فيه بعد ذلك تعديلات خفيفة .

فلدينا وصف عام لزيّ المماليك ؛ فهو على الجسد يتكون من أربعة أثواب « أقبية »[٧] : الأول قطني ، والثاني هندي ، والثالث حريري ينزل على القدمين ، والرابع سميك ، له أكمام طويلة إلى الأصابع . وقد شدوا الوسط بحزام « منطقة » ، جمعها « مناطق » ، وهي ما يُعبر عنها أيضا « بالحياصة » ، جمعها « حوائص »[٨] ، حيث يعلق في الجانب الأيمن منها

---

(١) السلوك ، ١/٣ ص ٩٣٧ س ٢ — ٦ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٢٥ س ١٢ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣٠١ (آخر الصفحة) .

(٤) زبدة ، ص ٨٨ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٥٢ س ١١ — ١٢ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٣٥٢ ؛ صبح ، ٤ ص ٣٩ — ٤١ ؛ انظر . Guemard : De l'armement et de l'équipement des Mameluks. Le Caire, 1926 p. 5. ؛ أنظر أيضاً .Mayer : Mameluk Costume, p. 21

(٧) القباء هو ثوب فوق آخر .

(٨) صبح ، ٢ ص ١٢٧ . عن المنطقة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 618
يوجد سوق للحوائص [الخطط ، ٣ ص ١٦١] ، اسمه سوق الحوائصيين .

حقيبة كبيرة «صواق» ، جمعها «صوالق»[١] ، ثبت فيها منديل . أما على الرأس ، فتوضع طافية «كلوته»[٢] ، جمعها «كلوتات» ، يلف حولها شاش «عمامة» . أما «المهماز» ، وهو آلة من حديد ، تكون فى رجل الفارس ، فوق كعبه ، وذلك فوق خف[٣] .

وكان زى الأمراء والمقدمين وأعيان الجند — مع تفاوته — يختلف بعض الشيء عن زى عامة الجند[٤] . فكانوا يلبسون فوق ثيابهم ثوبين متميزين «قباءين» ، الفوقانى أقصر من التحتانى ، وتكون أكمام الأول أقصر ، بلا تفاوت كبير . وكان زيهم فى الصيف الأبيض من الحرير الرقيق «النصافى»[٥] ، و«الشرب»[٦] ، و«الإسكندرانى»[٧] ، وفى الشتاء الصوف الملون ، والقطيفة «الكمخا»[٨] ، وقماش له وبر «مخمل»[٩] ، أو من الشعر «سنجاب»[١٠] ، ولاسيما الفرو بأنواعه : «فنك»[١١] ، و«قاقم»[١٢] ، و«وشق»[١٣] ،

(١) عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Vêt, pp. 248 - 249. ; Quat : Sult, II: I, p. 152 n(40) .

(٢) هى كلمة فارسية ، أنظر . Dozy : Vêt, pp. 387-388
عن سوق الطواقى فى أيام المماليك ، انظر الخطط ، ٣ ص ١٦٨ .

(٣) صبح ، ٢ ص ١٢٩ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٠٢ .

(٥) هو من الحرير أو النيل ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 680
يصفه بالمصقول أى الرقيق .

(٦) هو نوع من القماش الشفاف تدخله خيوط حريرية أو مذهبة ، يوجد منه الشفاف جداً . عن هذه الكلمة ، انظر . Ibid, I, p. 740.

(٧) أنظر . Marzouk : History of Textile industry in Alex, 1955, p. 60.

(٨) أنظر . Dozy : Suppl, 2, 487 - 8

(٩) أنظر . Ibid, I, p. 406

(١٠) أنظر Ibid, I, p. 691 ؛ أنظر قبله .

(١١) صبح ، ٤ ص ٤٠ (فى آخر الصفحة) . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p 285. هو فرو الثعلب

(١٢) الخطط ، ٣ ص ١٦٨ . يعنى الفرو الممتاز ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 406.

(١٣) الخطط ، ٣ ص ١٦٨ ، عن هذه الكلمة ، انظر . Ibid, 2, p. 808
هو فرو الديب .

و « سمور(١) » و « قندس »(٢) . ويكون الحزام « المنطقة أو الحياصة » ، من الذهب أو الفضة ، مرصعة بالفصوص الجوهر(٣) . أما على الرأس ، فتوجد الطواقى « كلوتات » صغار أو كبار ، تلف حولها العمائم ، فالصغار تسمى : « ناصرية » ، نسبة إلى السلطان الناصر بن قلاوون الذى أوجدها ، والكبار تسمى : « طرخانية » ، نسبة إلى أحد الأمراء فى أيام السلطان شعبان ، وقد غلبت هذه الطواقى الأخيرة ، كما عُمل فى شدة العمامة حولها عوج ؛ فأصبحت تُعرف « بالجركسية » ، لأنها حدثت فى أيام برقوق ، مؤسس دولة الجراكسة(٤) . أما « المهماز » ، فتارة يكون من فضة ، أو من حديد مطلى بالذهب أو الفضة(٥) .

ولدينا وصف تفصيلى لزىّ أمراء المئين(٦) على الخصوص — وهم الذين كانوا يتولون السلطنة — يتميّز بالأناقة الباهرة . فقد كان القباء « الفوقانى » من قماش أملس « أطلس(٧) » ، لونه أحمر ، مطرز بزخرفة « طرز زركش(٨) » ، من الحرير الذهب ، والقباء « التحتانى » ، صُنع أيضاً من قماش أملس « أطلس » ، لونه أصفر ، محلى بشعر « سنجاب(١٠) » ، ومبطن [illegible]

(١) هو فرو أو قماش من الوبر اشتهرت صناعته فى الأندلس بمدينة سرقسطة ولذا سمى أيضاً بالسرقسطية . معجم البلدان ، ٥ ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٩ س ١٦ . عن هذه الكلمة ، انظر . قبله.

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٥٢ ؛ صبح ، ٢ ص ١٢٧ .

(٤) عن هذه الأنواع ، انظر . الخطط ، ٣ ص ١٦٠ ، ص ٣٥٢ . الأمير فى أيام السلطان شعبان ، هو يلبغا ، ولعلها سميت « الطارخانية » ، لأنه ربما كان طرخاناً ، أنظر قبله .

(٥) صبح ، ٢ ص ١٢٩ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٦٩ .

(٧) عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 53.

(٨) عن الكلمتين ، انظر . Ibid, 1, p. 589; 2, p. 35

(١٠) عن هذه الكلمة ، انظر . Ibid, I, p. 691 ؛ انظر . قبله أو « سنجب » .

وأطرافه «سُجُف»[1] ، بفرو «قندس»[2] . كذلك الحزام «المنطقة» ، تكون من ذهب ، وضعت فيها قطع معدنية هندسية «بواكر»[3] ، مرصعة بالزمرد واللؤلؤ . أما الطاقية «الكاوتة» ، فهى تكون مطرزة «زركش» بذهب ، وبزوائد «كلاليب»[4] ، من ذهب ، لفت حولها عمامة «شاش» من قماش الحرير الرفيع الموصلي أو الموسلين «لانس»[5] ، موصول طرفاها بحرير أبيض مزخرف «مرقوم» بألقاب السلطان ، مع نقوش باهرة من الحرير الملون .

ويظهر أن لبس المماليك عموماً قبل ذلك ، منذ أن وجدوا فى أيام الأيوبيين ، كان شنيعاً بملاحظة ابن إياس[6] . فكانوا يلبسون ثوباً فوق ثيابهم «قباء» ، أحمر أو أزرق ، ضيق الأكمام ، يشدون عليه فى أوساطهم شريطاً من القطن المصبوغ «بنداً»[7] ، عوض الأحزمة «الحوائص أو المناطق» ، يكون بحلق نحاس وإبزيم جلد ، يعلقون فيه أشياء كثيرة ، منها : ملعقة من الخشب كبيرة ، وسكين كبيرة ، ومناديل لمسح أيديهم قدر الفوطة ، وحتى الحقيبة «صوالق» تكون كبيرة الحجم جداً . أما على الرأس فيضعون الطواقى «كاوتات» العريضة ، من الصوف الأزرق

---

(١) عن هذه الكلمة ، انظر . Ibid, I, p. 634.

(٢) عن هذه الكلمة ، انظر . Ibid, 2, p. 410. ؛ انظر ، قبله أو «مقندز» .

(٣) عن هذه الكلمة ، انظر Ibid, I, p. 136. للفرد بيكاربة .

(٤) مفردها كلاب . انظر . Ibid, 2, p. 481.

(٥) عن هذه الكلمة ، انظر . Ibid, 2, p. 551

(٦) ابن إياس ، ١ ص ١٢٠ . وانظر أيضاً : صبح ، ٤ ص ٣٩ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٧٤ ؛ الخطط ، ٣ ص ١٦٠ .

(٧) عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 117 بينما يذكر ابن إياس هذا الشريط فقط دون أن يسميه ، يذكر المقريزى «البنود» ، وأيضاً «كمران» ، وهذه الأخيرة كلمة فارسية ، بمعنى حزام من الشعر . عنها ، انظر . Ibid. 2, p. 482 . ونرى نص ابن إياس أكثر وضوحاً .

الغامق، لها زوائد «كلاليب أو كابندات»، بغير عمامة «شاش». وكان الأمراء منهم، يضعون بدل الطاقية «الكلوتة»، قلنسوة طويلة تشبه التاج مثلثة الشكل «شربوس[١]» بغير عمامة كذلك. وكان المماليك يربون شواربهم، ولهم ذوائب من الشعر خلفهم، يضفرونها ويشدونها في أكياس من حرير أحمر أو أصفر، يطلقون على كل منها «دبوقة[٢]»، أي المحكمة. ويلبسون في أرجلهم خفاً فوق خف آخر «سقمان[٣]»، من الجلد البلغاري «برغالي[٤]» الأسود، ثبت فيه «مهماز» من الحديد.

وكان الجند إذا تجهزوا للحرب، يكونون لابسين آلة الحرب[٥]. فقد كان جيش المماليك معداً بالسلاح، الذي يصنع في أماكن خاصة، ويحمل لتخزينه في القلعة بالقاهرة، في الأماكن التي عُرفت باسم: خزائن السلاح أو السلاح خاناه أو حواصل الذخيرة[٦]؛ حيث يُشرف عليها أمير كبير من أمراء الألوف اسمه: أمير السلاح أو السلاح دار[٧]، الذي يلي أتابك العسكر في المرتبة أحياناً ـ وهو قائد الجيش الفخري — مما يدل

(١) الخطط، ٣ ص ١٦٠ (آخر الصفحة). هذه ألغيت في عهد الدولة الجركسية.

(٢) عن هذه الكلمة، انظر. Suppl, I, p. 424 : Dozy

(٣) الخطط، ٣ ص ١٦٠. يقول وهو خف ثان.

(٤) عن هذه الكلمة، انظر. Suppl, I, 73. : Dozy

(٥) ابن إياس، ١ ص ٣٠٢ س ١٠.

(٦) نفسه، ٣ ص ١٦ س ٢٨.

(٧) صبح، ٤ ص ١٨، ٥ ص ٤٥٦، ٤٦٢؛ الخطط، ٣ ص ٣٦١؛ زبدة، ص ١٢٢؛ المقصد، ورقة ١٢٣ ب؛ انظر. Ency. (art Silâhdâr) t4,p.442 هذا الاسم الأخير مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو «السلاح»، والثاني فارسي وهو «دار»، ومعناه ممسك كما تقدم، ويكون المعنى «ممسك السلاح»، فقد كان هو وفرقته من السلاحدارية، يحملون سلاح السلطان في المواكب. ويبدو أن أمير سلاح — من وصف المقريزي — هو السلاح دار؛ وذلك على الرغم من ذكر القلقشندي لاثنين بالاسمين السابقين، دون تحديد دقيق.

على مكانته ، حتى كان السلطان يلقبه بالأخ[١] . فكان تحت يده جملة موظفين، منهم : ناظر خزانة السلاح[٢] ، والمباشرون[٣] ، وشاد[٤] — بما يعنى الإشراف أيضاً — وصناع كل صنف من السلاح، يعملون باستمرار فى إنتاجه، أو اصلاحه[٥] وقد كان إذا صنع السلاح حمله العتالون[٦] على رءوسهم ، ويزف فى القلعة فى يوم مشهود[٧] . ويبدو أن خزائن السلاح كانت توجد فى أماكن أخرى غير القاهرة ، مثل قصر السلاح فى الإسكندرية[٨]

ولقد أوجدت الحروب الصليبية من ناحية ، والمغولية من ناحية أخرى ؛ تطوراً هائلاً فى صناعة السلاح عند المسلمين ؛ بحيث صار علماً عُرف : بعلم الآلات الحربية[٩] . يُضاف إلى ذلك أن هذه الأسلحة تقدمت تقدماً هائلاً على يد المماليك . ولا تزال قطع من سلاح المماليك توجد إلى الآن تحت أنظارنا فى المتاحف الحربية ، أو فى الصور الخاصة ، التى نقلها علماء نابليون على الخصوص ، لما جاءوا إلى مصر .

فمن أسلحة المماليك ، ما كان معروفاً للمسلمين قبلهم ، أو حتى جاءوا به من موطنهم الأصلى . فعرفوا : النُشاب أو ما يسمى أيضاً النِسمجاة

---

(١) أبو المحاسن ، ط . دار الكتب ، ٧ ص ١٨٤ — ١٨٥ ؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ص ٣٢١ .

(٢) المقصد ، ورقة ١٣٣ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١٠ س ١٧ . مباشرو الزردخانية .

(٤) المقصد ، ورقة ١٢٨ ا .

(٥) زبدة ، ص ١٢٢ .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٧ س ٦ — ٧ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 94 . مفردها عتال .

(٧) صبح ، ٤ ص ١١ — ١٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ٨ ص ٢٢٧ .

(٨) زبدة ، ص ٤٠ .

(٩) كشف الظنون ، ١ ص ١٣٥ .

أو النـمجة[١]، وهو خنجر مقوس ، والطَبر جمعها أطبـار[٢]، وهى الفؤوس، وعلى ما يبدو لم تـكن سلاحاً متمـيزاً فى مصر قبلهم ، والسيوف بأنواعها الطويل والقصير والعريض والدقيق[٣] ، والدّبوس جمعها دَبابيس[٤] ، وهو عمود له رأس مضرسة، والنشّـاب[٥] وهى سهام خشبية صغيرة ذات نصول مثلثة الأركان، والـترْكاس أو التركاش جمعها تراكيس أو تراكيش[٦] ، وهى جعبة توضع فيها النشّـاب، وأيضاً الخناجر، والسكاكين، والبلط، والرماح. كذلك استخدموا أنواع الأقواس المختلفة[٧] ، وهى تتألف من عمود وقضيب ومفتاح ، والسهم يوضع فى القضيب ، فمنها : قوس اليد التى تشد باليد، فتخرج منها سهام تشبه الجراد دفعة واحدة فى جهات متعددة ، وهى تعرف بالعربية ، وقوس الرجل ، التى تشد بدفعها من الرجلين ، وهى تعرف بالأفرنجية أو الرومية ، وقوس اللولب ، التى تشد بواسطة لولب ، وقوس الركاب ، التى تشد من ركاب الخيل .

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٢٧٣ س ٢٥ ؛ مفضل (P. Or) ص ٦١٢ . عنها ، انظر . Suppl, 2, p. 724 : Dozy . وهى كلمة فارسية .

(٢) صبح، ٢ص ١٣٤. هى لفظة فارسية عنها ، انظر، Suppl, 2. p. 20 : Dozy . وهذه كانت تحمل على الخصوص فى المواكب وغيرها كشعار من آلات السلطنة — يحملها الطبردارية ، مفردها طبردار ، أى حاملى الفؤوس ، وهم من أبناء الجند ، يرأسهم أمير طبر . صبح ، ٥ ، ص ٤٥٨ ، ٤٦٢ .

(٣) صبح ، ٢ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ١٣٠ ؛ السلوك ، ١/٣ ص ٨٨٦ س ٩ ؛ انظر . Dozy : Suppl, I, p.423

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٩ س ٢٠ . عن وصفها ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٦٨ س ٢٤ — ٢٥ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٩ س ١٩ . عنها ، انظر . Suppl, I, p. 145 : Dozy

(٧) نفسه ، ٣ ص ٩ س ٢٠ . عن وصفها ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٦٨ ؛ ابن هذيل : كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق وتعليق عبدالغنى ، دار المعارف، ص ٢١١ ؛ Cahen : Un traité d'armurerie composé pour Saladin B. E. O. XII, années 1947-1948, p. 110 (نص) ; p. 132 (ترجمة) Suppl. 2, p. 418 : Dozy ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ويما يذكر أن نص القلقشندى عن النوعين ، غير دقيق .

وقد عرفوا أسلحة الحصار الثقيلة ، مثل : المنجنيق ، جمعها منجنيقات ، بنوعيها الصغار والكبار . وهذه تقدمت على أيدى المماليك ، ولدينا عنها تآليف مبينة بالرسوم والتصاوير[١] . وهى آلات قذافة على بعد ، بالأحجار واللهب ، وحتى الزرنيخ والأفيون ، لعله تسير بقصد خنق العدو[٢] . ولدينا وصف منجنيق ؛ فقد حمل على مائة عجلة ، حتى سمى بالمنصورى[٣] . وكانت المجانيق تجرها الأبقار ، بعد فصل أجزائها بعضها عن بعض ، ثم تركب عند الحصار[٤] . كذلك تقدمت صناعة الدبابات على أيديهم ؛ فأصبحت أشبه بالبروج المتحركة ، تتكون من عدة طبقات ، تسير على عجلات ، بقصد تسلق الحصون، ونقب الأسوار[٥] .

ولكى يتقى جيش المماليك ضربات عدوه ، كان أفراده يلبسون على رءوسهم « الخوذات[٦] » ؛ منها الفارسية « خود » ، والعربية « بيض » ؛ لأن هذه الأخيرة على شكل البيضة ، وهى تصنع من الجلد أو الحديد . ولدينا خوذة السلطان قلاوون ، محفوظة فى متحف بروكسل[٧] ، وهى طويلة ومحلاة . كذلك استخدموا « الترس » أو « الدرقة »[٨] ؛ لإتقاء قذائف العدو ،

---

(١) ابن أرنبغا الزردكاش (ت ٧٦٧/١٣٦٥) ، الأنيق فى المجانيق ، مخطوط بدار الكتب ٧٥ فنون حربية .

(٢) نفسه ، ورقات ٩٠ — ٩١ ؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٠٩ .

(٣) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ٤ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٤) النجوم (P) ، ٦ ص ٢٥٦ ؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣٠٩ .

(٥) ابن أرنبغا ، ورقات ٧٢ — ٨٨ ؛ انظر . على إبراهيم ، المماليك البحرية ، ص ٣١٠ ؛ Dozy : Suppl, I, p. 421.

(٦) النجوم (P) ، ٦ ص ٢٥٦ س ١٤ ؛ صبح ، ٢ ص ١٣٥ .

(٧) أنظر . Mayer : Saracenic [arms and amor, 1943, p. 42.

(٨) صبح ، ٢ ص ١٣٦ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢٧٣ س ٢٥ .

ويكون من جلد البقر أو اللمط[1] ، وهو حيوان يعمر فى الصحارى ؛ أو حتى من خشب أو حديد .

أما على جسدهم ، فيلبسون « الدروع » ، وتسمى بالفارسية « زرديات » جمع زرد أو زرادة . فكانت السلاح خاناه — وهى مكان حفظ السلاح وصنعه — تسمى أيضاً : الزردخاناه[2] ، نسبة إلى احتوائها على الزرديات على الخصوص ، ومن يعملون فيها يسمون : الزردكاش أو الزردكاشية . فكانت هذه الدروع أنواعاً ، لها أسماء متعددة ، أغلبها فارسية ، مثل : « زرديات مسبلة[3] » ، وهى تغطى الجسم كله ، و « قرقلات »[4] ، أو « كز اعندات ، أو كز اغنديات[5] ، أو « بكايز[6] » ، وهى أسماء دروع أيضاً ، قد تكون مبطنة ، و « الجوشن[7] » ، وهو عبارة عن صدر بغير ظهر . كما كانوا يضعون « المغفر[8] » ، وهو خوذة مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، لوقاية العنق .

(١) عن هذه الكلمة ، انظر . ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق وتعليق عبد الغنى ، دار المعارف ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 550 - 1.

(٢) صبح ، ٤ ص ١١ ؛ النجوم (P) ، ٦ ص ٢٥٦ ، ابن إياس ، ٣ ص١٢١ س ١٩ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 585 ؛انظر . قبله . عن الدروع بعامة ، انظر . Schwarzlose :

Kitâb al - Silâh die Waffen der alten Araber aus ihren Dichtern dargestellt. Leipzig, 1886, p. 322 sqq.

(٣) السلوك ، ١/٢ ص ٦٠٨ س ١٢ ؛ انظر Mayer : Op. cit. p. 37

(٤) صبح ، ٤ ص ١١ ؛ ابن إياس ، ٣ ص١٦ (آخر الصفحة)؛ النجوم ؛ (P) ، ٦ ص ٢٥٦ . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 336 . مفردها قرقل ؛ هى فارسية .

(٥) السلوك ، ١ص ٢٥٣ ؛ انظر. Dozy : Schwarzlose, p. 334 ; Suppl. 2, p. 542, 462 . مفردها كزاغنده ، وهى فارسية .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ١٦ . هى أيضاً دروع .

(٧) نفسه ، ٣ ص ١٦ . عن وصفها ، انظر . ابن هذيل ، ص ٢٢٧ . وهى كلمة فارسية ، مفردها جوشن .

(٨) صبح ، ٢ ص ١٣٥ . عن هذه الكلمة ، انظر. Suppl, 2, p. 218

كذلك أستخدم « النفط » ، وهو مركب كيماوى أساسه البترول ، ينسب اختراعه إلى يونانى اسمه « كالينيكوس » ، « Kallinikos »[١] ، فعرف بالنار الإغريقية ؛ وإن كان الرومان ربما عرفوه قبلهم . فنقل المسلمون استعمال النفط منذ الأمويين ، وقد سماه الأوربيون حديثاً باسم : « Feu grégeois » فكان المماليك يستعملونه ، لاسيما وأنه متوفر فى مصر ؛ فقد كان الأسود منه ، يوجد على ساحل بحر القُلْزُم (الأحمر) ، ويسيل من أعلى جبل ، ويجمع فى خزائن السلاح السلطانية[٢] . فكانت له فرقة خاصة فى جيش المماليك ، عُرفت بالزرّاقين[٣] ، جمع زرّاق ، إذ كانوا يلقونه بالمزراق وهو الرمح ، كما يلقونه أيضاً بالنشّاب — وهى السهام — ، والأقواس ، والمجانيق ، وحتى فى قارورات ؛ أو فى قوارير « قدور »[٤] . وبرع المماليك فى استعمال النفط ، إلى حد أنهم كانوا يلقونه مشتعلاً فى كل وقت ، حتى فى وقت سقوط المطر ، واشتداد الريح[٥] .

---

(١) عن ذلك ، انظر : Michel le Syrien :
Chronique. ed et trad, Chabot. Paris, 1899 - 1910, t2, Fasc 3, p. 455. أيضاً ، انظر : Reinaud et Favé : Feu Grégeois. Paris, 1845.
Canard : L'emploi du feu grégeois. chez les Arabes. Bull. des Etudes Arabes. No 26. Jan - Fev. 1946.
Dozy : Suppl, 2, p. 703 - 4.
؛ ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، ط ٢ ، ٢ ص ٤٨ وهامش ؛ الحضارة الإسلامية ، ص ٦٨ وهامش .

(٢) صبح ، ٣ ص ٢٨٨ .

(٣) السلوك ، ١/٣ ص ٨٨٧ س ٥ ؛ النجوم (P) ، ٥ ص ٢٠٧ س ٣ . عن هذه الكلمة ، انظر : Dozy : Suppl, I, p. 588
كانوا فى أيام الفاطميين يسمون النفاطين . الخطط ، ٣ ص ٣ س ١٨ .

(٤) ابن أرنبغا ، ورقة ١٠٣ ؛ صبح ، ٢ ص ١٣٨ .

(٥) حسام الدين لاجين الرماح ، عمدة المجاهدين فى ترتيب الميادين ، مخطوط (B.N.) رقم ٦٦٠٤ ، ورقات ١٤ ب — ١١٥ .

وبعد ذلك حدث انقلاب فى صناعة الأسلحة فى عهد المماليك . بظهور « البارود »(١) ، لأول مرة على أيديهم ، وذلك قبل أن يعرفه الغرب ، وهى كلمة انتقلت إلى اللغات الأوربية ، كما فى الإنجليزية « Powder » ، والفرنسية « Poudre » . وقد أصبحت كلمة نفط توافق كلمة بارود ، ولم تختف كلمة نفط إلا فى أيام العثمانيين . ومن المؤكد أن البارود أول ما أستعمل فى مصر ، إذ أن مادته الأساسية وهى النطرون توجد فيها(٢) . وكذلك ، لا نظن بأن الصينيين هم الذين اخترعوا البارود بدليل أن المغول الذين فتحوا الصين لم يأخذوه عنهم ، أو حتى استعملوه فى أسلحتهم ضد المسلمين(٣) ومع ذلك ، فالأوربيون يحاولون أن يجعلوا ظهور هذا الاختراع فى أوربا . قبل الشرق ، أو أنه على الأقل ظهر فى وقت متقارب(٤) .

وقد ترتب على اختراع البارود ظهور المدفع أو المكحل أو المكحلة ، وهى كلمات مترادفة ؛ فقيل المكاحل بالمدافع(٥) ؛ حيث عرف المماليك منها الصغير والكبير(٦) ، فسمعنا عن مدافع النفط المهولة(٧) . ويوصف

---

(١) مثلاً : صبح ، ٢ ص ١٣٧ ؛ Ayalon : Gunpowder and Firearms, in the Mamluk kingdom. London, 1956. Mercier : Le feu grégeois, les feux de guerre depuis l'antiquité, la poudre à canon, 1952. Ency. (art Barûd) 2ed, tI, p. 1087 sqq.

(٢) عن النطرون ، انظر . صبح ، ٣ ص ٤٦٠ — ٤٦١ .

(٣) أنظر . Reinaud : Nouvelles observations sur le feu, grégeois, ext J. A. 1852, p. 3.

(٤) أنظر . cf Ency. Britannica. Gunpowder and Artillery.

(٥) ابن إياس ، ١ ص ١٩٦ س ٣ ، ٣ ص ٩ س ٢٥ — ٢٦ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ١٢٤ س ٢٠ . هكذا يفهم من النص .

(٧) النجوم (P) ، ٦ ص ٢٥٦ س ١٣ — ١٤ .

المدفع أو المكحل على أنه آلة من نحاس ورصاص أو حديد ، يوضع فيها الحجر أو البندق وهو من الحديد ، ينبعث من خزانة أمام النار الموقد فى البارود[١] . وقد اختلف فى وقت ظهور المدفع ؛ فيذكر المستشرق « Quatremère » أنه استخدم فى مصر لأول مرة فى سنة ١٣٩٠/٧٩٣[٢] ؛ ولكن يبدو — مما لدينا من نصوص — أن هذه الكلمة « مدفع » ، وجدت قبل ذلك فى سنة ١٣٥٩/٧٦٠ ، أو فى سنة ١٣٥٢/٧٥٣ ، أو حتى فى سنة ١٣٤٢/٧٤٣[٣] ؛ وإن كان من المؤكد أن المماليك أول من استخدموه ضد إيلخانات المغول .

وربما تكون البندقية أيضاً قد استعملت فى أيام المماليك ، حيث يذكر المؤرخون البندقيات والبنادق ، التى سميت أيضاً قوس البُنْدُق أو الجُلاَهِق ، أو الزَّبطانة ، وهى تطلق الرصاص[٤] ، وقد كان لها فى مصر سوق خاص عُرف باسم : البندقانيين[٥] ، حتى أنه حدث فيه حريق فى عام ١٣٥٠/٧٥١ .

---

(١) صبح ، ٢ ص ١٣٧ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٩ ؛ العبر ، ٤ ص ٦٩ — ٧٠ ؛ انظر ، ماجد ، الحضارة الإسلامية ، ص ٦٩ ؛ Dozy : Suppl, I, p. 449 - 50

(٢) أنظر . Quat : Observations sur le feu grégeois J, A. 1850 n 4, p. 25.

(٣) العمرى ، المصطلح الشريف ، ص ٢٠٨ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٩٦ س ٣ ؛ صالح بن يحي ، تاريخ بيروت ١٩٢٧ ، ص ١٠٥ ؛ ماجد ، الحضارة ، ص ٦٩ .

(٤) صبح ، ٢ ص ١٣٨ ، انظر . Ayalon : Gun, p. 60
أنظر . Dozy : Suppl, I, p. 118 عن البندقية ، كان البندق يوضع فى آلة من الجلد ، تسمى : الجراوة ؛ كما أن الزبطانة بالأولى بندقية للصيد.

(٥) الخطط ، ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

وكان جيش المماليك يتزود بعدد كبير من الدواب ، لاسيما الخيل ، وذلك لأن المماليك بطبيعتهم فرسان ، ولا يركبون غير الخيل بأية حال ، حتى كانت الدولة تمنع أن يركب الخيل غير المماليك ، فصدر أمر بأن لا فقيه ولا متعمم يركب فرساً[1] . وقد كانت الخيول تستورد من برقة والمغرب ، وتشترى من العرب في الأحساء والبحرين والحجاز والعراق[2]. وقد وجد عدد كبير من الاصطبلات في مصر لتزويد جيش المماليك بالخيل ؛ حتى أنها بلغت في عهد برقوق سبعة آلاف[3] . ويذكر المقريزى أن الخيل

---

(١) ابن إياس (بولاق) ، ١ ص ٢٨٣ س ٢١ — ٢٢ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٦ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٦٩ . تنوعت هذه الاصطبلات ، فبعضها خاص بالسلطان [صبح ، ١١ ص ١٧١] ، وبعضها خاص بالبريد . نفسه ، ١ ص ١١٤ — ١١٥ ، ٤ ص ١٨ — ١٩ . وقد وجد لهذه الاصطبلات عدة موظفين ، بعضهم من كبار الأمراء . فيأتى على رأسهم أمير آخور ، ووظيفته : أمير آخورية ، وهى كلمة مكونة من أمير العربية ، وآخور الفارسية ، بمعنى الأمير المعلف ، أى الذى يختص بالدواب . وهذه الوظيفة تعددت ، فمثلاً أمير آخور المشرف على اصطبل البريد كان تابعاً لأمير آخور المشرف على اصطبلات السلطان . نفسه ، ٥ ص ٤٦١ ، ١١ ص ١٧٠ ، ١٧٢ س ٣ ؛ النويرى ، نهاية ، ٣٠ ورقة ٣ ؛ Corpus 301 n. . كذلك وجد موظف آخر كبير اسمه السراخور أو السراخورى أو السلاخورى ، ليس من السهل تفرقة عمله عن عمل أمير آخور ، يتبعه عدد كبير من السراخورية ، عملهم كما يظهر من تكوين الاسم علف الدواب ؛ فسرا وهى فارسية معناها الكبير ، وخور معناها العلف صبح ، ٥ ص ٤٦٠ ؛ المقصد ، ورقة ١٢٤ ب . يضاف إلى ذلك أن الاصطبلات كان يشرف عليها رجل دينى ، يكون عادة هو القاضى ، يسمى : ناظر الاصطبل أو الاصطبلات . الخطط ، ٣ ص ٣٦٣ س ٢٨ ؛ السلوك ، ٢/٢ ص ٥٢٧ ؛ المقصد ، ورقة ١٣٧ ا ؛ صبح ، ٤ ص ٣٢ . وفوق ذلك يوجد عدد كبير من العمال مثل السواس ، والسواق ، وغيرهم . أنظر . قبله ، وبعده .

كانت تفرق على امراء المماليك مرتين فى كل سنة ، حتى أن بعضهم كان يصله من السلطان مائة فرس ، وأنه إذا نفق أحدها عوضه السلطان عنها[١]. فكانت الخيول ، التى تذهب إلى الحرب يُطلق عليها الجنائب ، مفردها جنب[٢] .

هذا غير الجمال والبغال وحتى الأفيال[٣] ؛ حيث وجدت لها أماكن خاصة ، تسمى : المناخات[٤] . وهذه الدواب كانت لحمل الأمتعة . فقد كان كل مملوك يُمنح جملاً أثناء الحملة لحمل متاعه[٥] . وقد بلغت عدة الجمال ، التى صحبت أحد السلاطين ثلاثة وعشرين ألف جمل[٦] . كذلك ، يسير مع الجيش عدد كبير من الأغنام والجاموس والبقر والماعز ، يسوقهم الرعيان؛ لتزويد الجيش باللحوم واللبن ، كما كان البقر يستخدم أيضاً فى جر العجلات[٧]. وقد بلغ عدد هذه الدواب فى إحدى المرات ثمانية وعشرين ألف رأس من الغنم الضأن وحدها[٨] . وقد كانت تحمل للدواب حياض من جلد ليبقى الماء فيها لسقى الدواب ، وكلما كبرت هذه الحياض دلت على اتساع العسكر[٩] .

كذلك تزود جيش المماليك بما تحتاجه الدواب من أدوات ، حيث

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٥١ — ٣٥٢ ؛ صبح ، ٤ ص ٥٤ — ٥٥

(٢) السلوك ، ١/٢ ص ٤٣١ س ١٢ وهامش . عن هذه الكلمة ، انظر .
Suppl, I, p. 221 : Dozy

(٣) ابن اياس ، ٣ ص ٢٣ س ٢٢ .

(٤) زبدة ، ص ١٢٥ — ١٢٦ ؛ ورقة ١٠٢ ا . بلغت عدد الجمال زمن برقوق خمسة عشر ألف جمل . الخطط ، ٣ ص ٣٦٦ س ٢٣ ،

(٥) حوادث ، ص ٧٠١ .

(٦) النجوم (P) ، ٦ ص ٢٥٧ س ٧ .

(٧) نفسه ، ٦ ، ص ٢٥٦ س ١١ — ١٢ .

(٨) نفسه ، ٦ ص ٢٥٧ س ٤ — ٥ .

(٩) صبح ، ٢ ص ١٣٢ .

كان لها مكان خاص لصنعها وخزنها فى القلعة هو: الركاب خاناه[١]. أو الركبخاناه أى المكان الذى به معدات ركوب الخيل ، يشرف عليه المهتار[٢] ، وهى كلمة فارسية تعنى أنه كبير الغلمان[٣] ، وهم الذين يتصدون للخيل ، لعلهم أيضاً الركابدارية ، أى الذين عندهم معدات ركوب الخيل . كذلك يذكر المقريزى أن أدوات الخيل وغيرها ، كانت لها أسواق خاصة يتزودمنها المماليك بما يحتاجون إليه ، مثل : سوق اللجميين ، أو سوق المهامزيين[٤] . كما أن هذه الأدوات ، كانت توجد أيضاً فى أماكن التخزين المسماة : بالحواصل[٥] . فمن هذه الأدوات : « السروج[٦] » — مفردها سرج — ، وهو مقعد الفرس . ويكون من كل نوع وقيمة ، بعضها مرصع بالعقيق والبللور ، أو مطعم بالذهب أو بالفضة البيضاء ، أو منقوش وغير منقوش ، وهو ما بين أصفر وأزرق . و « الأكوار[٧] » — مفردها الكور — وهو مقعد الهجن — وأحياناً الخيل — تكون مغشاة بقماش ذى وبر « مخمل » ، مطرز « زركش » بالذهب أو الفضة . و « القرابيس[٨] » . — مفردها قربوس — وهى الخشبة الصغيرة فى مقدمة السرج وخلفه ، تعمل من الفضة أو الذهب . و « اللجم » ، مفردها لجام ، وهو ما يكون فى فك الفرس ، مطلية بالذهب أو الفضة

---

(١) صبح ، ٤ ص ١٢ ؛ زبدة ، ص ١٢٤ . وأيضاً . صبح ، ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩

(٢) صبح ، ٥ ص ٤٧٠ . بالفارسية الكبير ، وتار يعنى أفعل التفضيل ، فيكون المعنى للمهتار الأكبر . ولعل الركابدارية هم أيضاً الغلمان ، الذين يحملون آلات السلطان فى المواكب . صبح ، ٤ ص ٧ ، ١٢ .

(٣) صبح ، ٥ ص ٤٧١ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ١٥ .

(٦) صبح ، ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ الخطط ، ٣ ص ١٥٩ .

(٧) صبح ، ٢ ص ١٢٩ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٢٣ (فى آخر الصفحة) ؛ النجوم ، ط . دار الكتب ، ٩ ص ٥٨ س ٣ . لا نوافق « Dozy » على أن الأكوار تعنى الطبول .

(٨) الخطط ، ٣ ص ١٥٩ س ١ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 324

أو ساذجة . و « السيور » — مفردها سير — خاصة بالخيل وغيره ، من الجلد البلغارى الأسود ، الذى كثر استعماله وقتذاك . و « الخطاطم[١] » — مفردها خطام — وهى الجلاجل ، التى توضع فى مقدمة الخيل ، تكون من الفضة أو غيرها . و « الركاب[٢] » ، الذى — كما نعرف — ينسب إلى القائد المهلب بن أبى صفرة (م٨٣/٧٠٢) ، أنه أول من جعله من الحديد بدلاً من الخشب ؛ فهو فى وقت المماليك مطعّم بالذهب والفضة . و « المهماز »[٣] ، وهو آلة من حديد تكون فى رجل الراكب ، فوق كعبه ، تركّب على الخف ، يكون من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة ، أو من حديد مغطى بالذهب والفضة . و « الكنبوش » — جمع كنابيش — أو « الزنارى[٤] » ، وهى البراذع أو ما يوجد أسفل السرج ، فهى تكون مطرّزة « زركش » ، بعضها يصنع من قماش أملس « أطلس » ، أو من الصوف « جوخ » . وقد كان يوجد موظف فى بلاط سلطان المماليك ، عمله حفظ أقشة الدواب ، يسمى « المهمرد[٥] » ، بمعنى الرجل الكبير . يضاف إلى ذلك ، وجود بدل للخيل فى وقت الحرب ، تسمى : « بركستوانات أو بركصطوانات[٦] » — مفردها بركستوان — تكون مصنوعة من الفولاذ ، وهى حلت محل التجافيف — مفردها تجفاف —[٧] التى عرفت فى زمن الفاطميين ؛ فكانت هى الأخرى تكون مطعّمة « مكفتة »

---

(١) عن هذه الكلمة ، انظر . Suppl, I, p. 384

(٢) صبح ، ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ١٥٨ .

(٤) عنهما ، انظر . Dozy : Suppl, 2, 491 - 2; I, p.606 ؛ انظر . قبله .

(٥) صبح ، ٥ ص ٤٧١ . مه اسم للكبير ، ومرد اسم للرجل .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ١٥ (فى آخر الصفحة) . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 97.

(٧) الخطط ، ٢ ص ٢٦٨ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy : Suppl, 1, p. 200 ؛ Schwarzlose, p. 324 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١١ .

بالذهب ، كما توضع على أنحاء جسم الخيل أيضاً : ركب فولاذ ، وأتراس[1] .

ويتزود جيش المماليك بعدد كبير من الرايات بأنواعها الكبيرة والصغيرة . ومن الملاحظ أن رايات المماليك ملونة ، بينما رايات الفاطميين بيضاء ، ورايات العباسيين سوداء . وقد عين للاشراف على رايات المماليك أمير خاص اسمه : أمير علم[2] . فمن هذه الرايات على الخصوص : الجاليش[3] ، وهو علم أصفر من الحرير ، فى أعلاه خصلة من الشعر ، على أساس التقليد التركى كما ذكرنا ؛ وهى تكون فى مقدمة العسكر ؛ ولعل الذى يحملها هو : العلم دار[4] — موظف خاص — بمعنى ممسك العلم . كذلك الرايات الملكية المسماه السناجق — أو الصناجق[5] — السلطانية ، وهى رايات صفراء أيضاً ، لا ترفع إلا فى الحرب ؛ إذ سنجق كلمة تركية معناها الرمح أو الطعن ، وإن عنى به مجازاً اللواء . وهذه يحملها رجال خصوصيون اسمهم السناجق ، على رأسهم : السنجقدار[6] ، مما الذى يحمل منها أفخمها : المسمى السنجق السلطانى[7] ، حيث

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٢١ س ٣ .

(٢) صبح ، ٤ ص ٢٢ ، ٥ ص ٤٥٦ . وهو غير علم دار . أنظر ملاحظتنا .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٥ ؛ انظر . Sult, I, 226 n : Quat قبله .

(٤) عنه ، انظر ، صبح ، ٤ ص ٢٢ ، ٥ ص ٤٦٣ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ١٢٨ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ١٣ — ١٤ . عن هذه الكلمة ، انظر . Suppl, I, p. 691 : Dozy ؛ Ency. (art Sandjak) t4, p. 154sqq.

(٦) صبح ، ٥ ص ٤٥٨ ؛ انظر . Suppl, I, p. 691 : Dozy بمعنى ممسك السنجق .

(٧) ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ١٣ ؛ المقصد ، ورقة ١٢٢ أ ، ١٢٩ أ . درفش بمعنى علم ، وكاويان بمعنى رأس البقرة ، ويقصد بها العلم الكبير . عنها ، فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ .

يقف السلطان فى الحرب تحته[1] وحتى شُبهت براية ملوك الفرس درفش كاويان ، وهى راية كسرى الكبرى ، مصنوعة من جلد البقر ، كانت ترسل مع الجيش فى الحرب . وكذا العصائب ، وهى رايات لونها أصفر ، منقوش عليها اسم السلطان[2] . وكان الخليفة إذا صحب السلطان فى الحرب ، خرج له سنجق خاص اسمه : «السنجق الخليفتى» ،[3] ، لونه أسود شعار الخلفاء العباسيين . وربما كان للأمراء أيضاً رايات يكون منقوشاً عليها شعارهم «رنك»[4] ؛ إذ يقول القلقشندى : إن شعار الأمير ، كان يُجعل على كل شىء منسوباً له .

ويتزود الجيش بعدد كبير من الآلات الموسيقية ؛ لتحميسه أثناء السير أو فى القتال ؛ أو حتى للترفيه عنه . فنميز من هذه الآلات : الطبل أو النقارات[5] ، وهى ذات شكل أسطوانى مجوف من الداخل ، مشدودة بالجلد من الناحيتين . فكان يوجد فى القلعة مستودع خاص بها وبغيرها من الآلات ، عُرف باسم : الطبلخاناه أو الطبلخانات ،[6] أى مكان حفظ الطبول ، وهى بمثابة خزانة البنود عند الفاطميين . فقد كان الجيش يستكثر من الطبول أو النقارات ، بحيث أن كل أمير كان يتخذ منها ما يشاء فى أثناء الحملات[7] ؛ كما أن فئة من الأمراء ، عرفت باسم : أمراء الطبلخاناه أو الطبلخانات[8] ؛ أى الأمراء الذين تدق الطبول تشريفاً لهم . كذلك وجدت للسلطان فرقة خاصة من الطبول وغيرها ؛ فكان إذا تحرك طلبه — أى وحدته الخاصة — أحاطت به جماعة من مماليك صغار ، مشتروات ،

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٤٦ س ٢٥ .
(٢) صبح ، ٢ ص ١٢٨ . جمع عصابة ، لأن الراية تعصب رأس الرمح من أعلاه .
(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٢٧ س ١٦ .
(٤) صبح ، ٤ ص ٦١ — ٦٢ .
(٥) عنها ، انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 26
(٦) أنظر . Ibid, 2, p. 27 ؛ صبح ، ٤ ص ٩ — ١٣ ؛ زبدة ، ص ١٢٥ .
(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٥ .
(٨) صبح ، ٤ ص ٨ ؛ انظر . ابله .

تعلموا صناعة ضرب الطبل والزمر وأتقنوه إلى الغاية[١] ، يُسمى الواحد منهم طبال وزمار . ونميز من الآلات غير الطبل : الكوسات[٢] — وهى صنوجات من نحاس يُدق بإحداها على الآخر — والمزامير ، والبوق ، وغيرها . وكان ساعة الزحف ، ترتب الطبول على الجمال للتحميس ، حتى أنه وقت حصار عكا — التى كانت فيها بقايا الصليبيين — رتبت الطبول على ثلثمائة جمل[٣] . وقد كانت هذه الآلات تشرف الدولة بها من تريد ؛ فقد كان موكب الخليفة الذاهب إلى الحرب ؛ يتكون من طبلين ، وزمرين ونفيرا[٤] .

ويتزود الجيش بعدد كبير من الخيام ، يُطلق عليها أيضاً الفسطاط والقبة ، تصنع من الصوف ، الجوخ ، الملون ؛ أو من خرق القطن الغليظ ، أو من أى قماش آخر[٥] . ولعل اشهرها « الوطاق »[٦] ؛ وهى خيمة السلطان

---

(١) النجوم (P) ، ٦ ص ٢٥٩ (فى آخر الصفحة) . يقال له دبندار . صبح ، ٤ ص ٨ ؛ انظر . عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٥ .

(٢) صبح ، ٤ ص ١٣ . هذه الكوسات فى أيام الفاطميين ، كانت تعنى الطبل ؛ وإن كانت على شكل نصف دائرى ، مشدودة بالجلد من ناحية واحدة ، وهى كلمة فارسية . عن هذه المناقشة ، انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٨٢ وهامش . كذلك ، يذكر ابن خلدون أن الكوسات هى الطبول . مقدمة ، ص ٢٠٥ . ولكننا قد نأخذ بقول القلقشندى ، لأنه تخصص فى الكتابة عن نظم المماليك . ثم إن النص عند ابن إياس يبين أن الكوسات غير الطبول . ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ١٤ . ولم يرد تفسير لهذه الكوسات فى المعاجم الدقيقة ، مثل : Suppl, cf : Dozy

(٣) الجزرى ، جواهر السلوك (B.N) ، برقم ٦٧٣٩ ، ورقه ٤٤ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٢٤ س ٢٣ .

(٥) صبح ، ٤ ص ٩ .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٢٠ س ٢٠ — ٢١ . الوطاق يعنى أيضاً عدة خيام ، أو معسكراً . أنظر . Suppl, 2, p. 819 : Dozy

الخاصة ، أو معسكره فى الحرب ، أشبه بسرداق كبير ، كان لها جماعة من الفراشين ، برسم نصبها ؛ كما أن خيام الأمراء لا تقل فخامة عن خيمة السلطان . يضاف إلى ذلك ، أن الجيش ، كان يتزود ببيوت من الخشب «الخركاه» ، مصنوعة على هيئة مخصوصة ، تغشى بالجوخ ونحوه ، وتحمل فى السفر ؛ لتقى المعسكر من البرد[١] .

وأخيراً ، يتزود الجيش بكل شىء يحتاج إليه فى الأسفار ؛ لا سيما إذا كان السلطان قائده . فيتزود بالحمامات الخشبية ، التى تنقل على ظهور الدواب[٢] ؛ وبمستشفى – مارستان – مجهز بالأدوية والعقاقير[٣] ، وبقدور لطبخ الطعام ، وحتى بآلات من الحديد «أثافى» توضع عليها ، وبالأفران لخبز العيش[٤] ، وبالنباتات لزرعها إذا دعت الحاجة[٥] . وبالفوانيس ، وبالمشاعل[٦] ، وغير ذلك .

من هذا نرى أن جيش المماليك ، كان حسن التجهيز للحرب ، وهو ما عبروا عنه وقتذاك «بالبرك[٧]» .

*

أما عن مسلك الجيش فى الحرب ؛ فنعرف أنه قد تمرس بحرب الصليبيين والمغول ؛ مما أكسبه قدرة فائقة فى شئون الحرب . وقبل تحرك الجيش ، كان السلطان يعقد غالباً مجلساً عاماً فى العاصمة ؛ يجمع فيه سائر أمراء المماليك ، وكبار رجال الدين ، وفيهم الخليفة والقضاة والمفتون وشيخ

---

(١) صبح ، ٢ ص ١٣١ . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 366
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٢٥ .
(٣) نفسه .
(٤) صبح ، ٢ ص ١٣١ .
(٥) النجوم ، (دار الكتب) ٩ ص ٥٨ .
(٦) صبح ، ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ .
(٧) ابن إياس ، ٣ ص ٢٠ . يكتب برق . عنها ؛ انظر . Dozy : Suppl, I, p.75

الصوفية (شيخ الشيوخ) . فيقرر هذا المجلس أحياناً ضريبة خاصة ، برسم نفقة سفر العسكر[1]

وقد كان أساس الدفاع عن البلاد ، أن المدن الكبرى ، مثل : القاهرة والإسكندرية ، تحاط بأسوار ، وأبواب من الحديد محكمة[2] . وقد بدأ ينتشر نظام الدفاع أيضاً عن طريق القلاع ، التي كثرت في عهد المماليك . فهذه لم تكن معروفة قبل الأيوبيين ، الذين نقلوها عن الصليبيين ، وبنوا أول قلعة لهم في عهد صلاح الدين في سنة ١١٧٦/٥٧٢ ، وهي قلعة الجبل على جبل المقطم . وفي عهد المماليك أصبح لكل مدينة في الشام قلعة ، وحتى في الأماكن الحساسة في مصر ، مثل الإسكندرية[3] .

فكانت القلعة تقوم على نشز مرتفع من الأرض ، عبارة عن مبان دفاعية ، محصنة بأسوار ، وأبواب محكمة ، وبروج ، وخنادق تدخل فيها مياه البحر وقت الضرورة[4] ؛ مثلما كان الحال في الاسكندرية . وفي آخر عهد دولة المماليك ، زادت حصانة هذه القلاع ؛ بسبب أنه كان ينصب في أبراجها المكاحل والمدافع[5] .

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٢٦٧ ؛ الخطط ، ١ ص ١٧١ س ١٩ — ٢٠ .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٢٠٤ فما بعدها .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٣٣٠ فما بعدها ؛ انظر . Enscy. de l'Isl, (art Le Caire) Histoire et description de la Citadelle, : Casanova ; tI, p. 844 au Caire. M. M. A. F. tVI Fasc 4; 5, p. 509 sqq' Paris ; 1897. p. 535 sqq.

النقش الذي وجد على بلاطة بداخلها يبين أنه أمر بإنشائها في سنة ٥٧٩ / ١١٨٣ أنظر Répertoire, t9, p. 123—4.

(٣) أنظر . قبله .

(٤) زبدة ، ص ٣٩ .

(٥) نفسه ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٩٦ س ٣ ، ٣ ص ١٢٤ س ٢٠ .

وكان تموين القلاع يسير وفق نظام معين . فالقلاع بالضرورة تحتوى على مخازن لخزن الغلال وغيرها[١] ؛ حيث تخزن فيها ألوف أرادب القمح فى كل سنة . وكان يشترط فى هذه الغلال أن تكون سمراء اللون ، قد أحكم جفاف قمحها فى سنبله ، ويكون مواضع خزنها ناشفة أرضها ، وحيطانها ليس بها نداوة . وينبغى أن يخلط فى كل مائة أردب من القمح أو الشعير أردب من الرماد الأبيض ؛ ليحفظها من التسويس . فإذا انقضت سنة ، ولم يستهلك القمح ، بيع وعوض غيره قمح جديد .

ولدينا وصف من المقريزى[٢] ؛ يبيّن فيه كيف كانت ترتفع المياه إلى قلعة الجبـــل ، إلى ارتفاع أكثر من خمسمائة ذراع ؛ لتدخل إلى جميع ما فى القلعة من قصور ودور وحمامات ، وذلك بدواليب تديرها الأبقار ، من مكان إلى مكان ؛ إلى أن تصل من النيل إلى القلعة ؛ فكان ذلك من عجائب الأعمال .

أما فى القتال ؛ فإن جيش المماليك ، كان يستخدم الطرق الحربية المعروفة ؛ وإن عمل على تطويرها ، وذلك كما يظهر من كتب فن الحرب فى عصر المماليك[٣] ، وهى التى كثرت بشكل لم يعرف قبلاً . وكان مؤلف هذه الكتب متخصصون بناء على طلب السلاطين ؛ أو رغبة فى تطوير الفن الحربى ، وبيان طرقه الصحيحة . ولدينا من المؤلفين الحربيين المماليك أسماء لامعة ، مثل بكتوت الرماح (١١ /٧ /١٣١١) : نهاية

---

(١) صبح ، ١٣ ص ٩٦ فما بعدها ؛ النويرى (محمد بن قاسم) الإلمام فيما جرت به الأحكام فى الأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية الواقع بها سنة ٧٦٧ هـ ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٩٤٤٩ تاريخ ، ١ ورقة ٢٤ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٤١ .

(٣) أنظر : Abdel Rahmân Zakî :
Military Literature of the Arabs. Cah. d'hist. ég, série VII. Fasc. 3, Juin, 1955, p. 149 sqq.
ونفس المقالة فى : Isl. Cult, XXX/2, 1956, pp. 193-172.

السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية[١] ، وعماد الدين اليوسفى المصرى (ت ٧٠٩/ ١٢٥٨) : كشف الكروب فى معرفة الحروب[٢] ، وابن أرنبغا الزردكاش (٧٦٧ / ١٤٦٥) : الأنيق فى المجانيق[٣] ، وتيبغا(أوطيبغا) اليونانى (٧٧٠ / ١٣٦٨) : الرامى والركوب[٤] ، والجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية[٥] ، ومحمد بن منكلى المصرى (ت ٧٧٨/١٣٧٦) : التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية[٦] ، والأحكام المملوكية ، والضوابط الناموسية[٧] ، وحسام الدين لاجين (٧٨١/١٣٧٩) : عمدة المجاهدين فى ترتيب الميادين ، وكتاب فى لعب الدبوس[٨] ، وغير ذلك .

وقد كانت خطة الحرب ، ترسم أحياناً قبل مغادرة الجيش القاهرة . ولدينا رسوم فى كتب المؤلفين السابقين تبيّن طريقة الزحف ، والتحرك من مكان إلى مكان ، وأن تجمعات الجند قد تكون فى حلقة أو فى صف أو فى صفين أو فى مستطيل أو فى مربع أو فى غير ذلك ، وهى تشكيلات فى غاية الإبداع[٩] . ويذكر المؤرخون خطه اشتهرت فى زحف المماليك ، تعرف : « بالمصاف[١٠] » — جمع مصف — وتكون ثلاثة صفوف ، يضربون صفاً وراء صف ، وهم مترجلون عن خيولهم ، وكل

---

(١) مخطوط بالمتحف البريطانى (B. N.) ، برقم ٣٦٣١ .
(٢) مخطوط بدار الكتب ، برقم ٢١٠ فنون حربية .
(٣) مخطوط بدار الكتب ، برقم ٧٠٥ فنون حربية .
(٤) مخطوط بالمكتبة الأهلية (B. N) ، برقم ٦١٦٠ .
(٥) مخطوط بدار الكتب ، برقم ٣٠ فنون حربية .
(٦) مخطوط بالمكتبة التيمورية ، برقم ٢٣ .
(٧) مخطوط بدار الكتب ، برقم ٢٣ فروسية .
(٨) مخطوط بالمكتبة الأهلية (B. N) ، برقم ٦٦٠٤ .
(٩) لاجين ، عمدة (B.N) ؛ انظر .
(١٠) ابن خلدون، المقدمة ، ص ٢١٧ ؛ أبو المحاسن، المنهل الصافى، تحقيق نجاتى، ص ٩ .

صف رده للذى أمامه ، وهى موزعة بين قلب وميمنة وميسرة ، حيث يكون السلطان — إذا ما قاد الحملة — فى القلب (١) . وقد وضعت حوله المصاحف (٢) . فكان كل أمير — قائد — يرتب عسكره على حسب الخطة العامة .

ولا ريب ؛ فإن المماليك قد مهروا فى الكر والفر ، بما عُرف عنهم من فروسية ، فهم يتعلمونها فى الطباق (٣) . وقد أكثر سلاطين المماليك من إقامة الميادين لهامثل : الميدان الظاهرى (٤) ، الذى لا يزال باقياً إلى الآن ، والميدان العظيم الذى يقع فى أسفل القلعة ، خارج القاهرة (٥) ، ويسمى أيضاً الميدان الأسود ، والميدان الأخضر (٦) ، وغيرها . فكان المماليك يتسابقون أمام السلاطين ، وشهدهم أحد الرحالين وهم يتمرنون عند سفح المقطم (٧) . كذلك حذق المماليك فى القتال بالدبوس ، والسيف (٨) ، ورمى السهام (٩)

وقد كان جيش المماليك ، لا يتردد فى استخدام المكر والخديعة فى

---

(١) النويرى ، نهاية ، ٣٠ ورقة ٨ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٤٦ س ٤ .

(٣) السلوك ، ٢/٣ ص ٥٢٤ س ٢٠ .

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٢٢ .

(٥) صبح ، ٣ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ س ١٤ .

(٧) أنظر . Larrivaz :
Les Saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach. Le Caire, 1904, p. 55.

(٨) تينيفا اليونانى ، كتاب الرامى والركوب ، مخطوط (B.N) برقم ٦١٦٠ ؛ أنظر . السلوك ، ١/٣ ص ٨٨٦ وهامش .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٧ س ١٦ .

القتال ، مثلما فعل مع المغول حينما أوقعهم فى الـكمين ، وهزمهم هزيمة منكرة فى موقعة عين جالوت . كما كان يستخدم الذكاء ؛ فهو ينفخ القرب ، ويجعلها تحت بطون الخيل ، ليعبر الفرات[١] . بل ، لايتردد فى حرق الأرض أمام العدو لإعاقة تقدمه[٢] ؛ فكانوا يستخدمون لذلك الثعالب والكلاب ، بعد أن يعلقوا النار فى أذنابها[٣] . ثم هو أحياناً — ككل جيش — قد يضطر إلى الانسحاب تحت جنح الظلام ، أو حتى يطلب الهدنة .

وكان جيش المماليك يستخدم أماكن مرتفعة على رءوس الجبال ، توقد فيها النار ليلاً ، أو يسكون فى أبنية عاليه ، تمتد على طول الطريق من الفرات إلى القلعة ، ولهم فيها أدلة يتعارفون عليها بها فى حالة رؤية العدو[٤] . كذلك كانت لهم كشافة عملها الخروج ، لكشف أخبار العدو[٥] .

وكان جيش المماليك إذ ظفر عاد ليحييه شعب مصر تحية هائلة ، تستمر عدة أيام ؛ حيث عرف دائماً بالجيش المنصور[٦] . وفى هذه المناسبة قد يُفرض على شعب مصر ، ضريبة الانتصار ، ويجمع لذلك مال كثير[٧] . فكان السلطان على رأس الجيش يدخل من باب النصر فى القاهرة ، وقد زينت مصر والقاهرة ، وفرشت الأرض بالحرير ليسير عليها فرس

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٣٠٢ (فى آخر الصفحة) .

(٢) السلوك ، ١/٢ ص ٤٧٣ س ٤ .

(٣) صبح ، ١٤ ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

(٤) نفسه ، ١٤ ص ٣٩٦ .

(٥) السلوك ، ١/٢ ص ٤٧٣ س ٨ .

(٦) مثلاً : ابن إياس ، ١ ص ١٨٧ س ٩ ؛ انظر . قبله .

(٧) الخطط ، ١ ص ١٧١ س ١٧ — ١٨ ؛ انظر . قبله

السلطان حتى القلعة(١) . أما الأسرى ، فيسيرون وراء الجيش المنتصر ، وهم فى جنازير الحديد والأغلال ، وراياتهم « سناجق » منكوسة(٢) ، وقد تدلى من عنق كل واحد منهم رأس مقتول ؛ فقد كان من مظاهر النصر أن تُعرض الرءوس المقتولة على الجمهور(٣) . فكانت تؤجر الحجر المطلة على طريق النصر بأموال طائلة لمشاهدته(٤) . وفى هذه المناسبة تدق الطبول بالقلعة ودور الأمراء ، وتوقد فيها الشموع بالليل عدة أيام(٥) . كذلك ترسل خطابات النصر وتسمى : « كتب البشائر(٦) » عادة للقضاة ، الذين كانوا غالباً خطباء فى الجوامع ، لإعلانها من على فروق المنابر فى الأقطار(٧) .

وكان جيش المماليك يستخدم الأسرى فى مشروعات الدولة مثل البناء وحفر الشوارع(٨) . كما كان يخصص جزء من مال الدولة لاستعادة أسرى المسلمين ، وهو ما عُرف بالفداء ؛ ولدينا أمر من السلطان لأحد القضاة بأن يدبر الأموال للفداء(٩) .

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ١٠٣ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٤٥ ؛ السخاوى ، الضوء ، ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١١ س ٣ .

(٤) النويرى ، نهاية الأرب ٣٠ ، ورقة ٩ .

(٥) الجزرى ، جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك ، مخطوط (B. N) برقم ٦٧٣٩ ، ورقة ١٠٩ [٥٦ ب] .

(٦) النويرى ، نهاية ، ٣٠ ورقة ٩ .

(٧) الجزرى ، جواهر السلوك ، مخطوط (B. N) ، برقم ٦٧٣٩ ، ورقات ١١٠ — ١١٣ . نص انتصار الأشرف خليل ، بفتح قلعة الروم .

(٨) الخطط ، ٣ ص ٣٧٢ س ١٨ .

(٩) صبح ، ١٢ ص ٣٩٢ .

هذا هو تنظيم جيش المماليك ، يتبيّن منه مدى الاهتمام به ، وهو يدافع عن أرض مصر والعروبة .

* *

الأسطول : قوته — ديوانه — دور الصناعة — عدده — أنواع السفن — رجاله — أسلحته — خروجه — الفن البحرى — الغنائم .

اهتم حكام مصر بالأسطول[١] ، منذ قيام الفاطميين فيها ، الذين جعلوا منها مركزاً لخلافتهم الشيعية . فلقد أثبت أسطولهم شدة مراسه فى البحر الأبيض[٢] . كذلك اهتم الأيوبيون من بعدهم بالأسطول[٣] ، وشنوها حرباً برية وبحرية ضد الصليبيين ، الذين كانوا قد استقروا منذ أواخر عهد الفاطميين فى الشام .

فلما جاء المماليك ، هاجموا بأسطولهم القوى[٤] ، وبقوتهم البرية مراكز الصليبيين وطردوهم ، ونجحوا فى استرجاع ثغور الشام منهم . بل امتدت سيطرة أسطول المماليك إلى جزيرة قُبرس[٥] — ذات الموقع

---

(١) هى كلمة أصلها غير عربى ، لعلها يونانية « Stolos » ، تطلق على مجموعة السفن الحربية ، أو على السفينة الواحدة . الخطط ، ٣ ص ٣٠٧ س ٥ — ٦ ؛ المسعودى ، التنبيه والإشراف ، حققه de Goeje ، ط ، Leiden ، ١٨٩٤ (B.G.A) ص ١٤١ ؛ أنظر . الشاذلى ، الأسطول فى اللغة والأدب والتاريخ ، مجلة الثريا ، السنة الثانية ، العدد ٣ ، مارس ١٩٤٥ ، ص ٣٥ .

(٢) عن تنظيمه فى عهد الفاطميين ، انظر بتفصيل . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١٨ وما بعدها .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ .

(٤) عن ذلك ، انظر بتفصيل مقالة :
Ency. (art Bahriyya): La marine Mameluke, 2ed, tI, p. 974 sqq.

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ (فى آخر الصفحة) .

الاستراتيجى — مثلما كان يحدث فى أيام الفتوحات العربية الأولى. كذلك كانت سيطرة أسطول المماليك تامة — مثلما كان الحال فى أيام الفاطميين والأيوبيين، وحتى قبل ذلك — على سواحل البحر الأحمر ؛ بسبب خضوع بلاد الجزيرة العربية لهم .

إلا أن هذه السيطرة البحرية القوية لم تستمر ، بسبب طمع البرتغاليين فى الشرق من ناحية ، وضعف دولة المماليك من ناحية أخرى ؛ فكانت هزيمة أسطول المماليك أمام البرتغاليين أن هيأت للاستعمار البرتغالى بخاصة، والأوربى بعامة ، أن يثبت قدمه فى سواحل بلاد الإسلام ، وحتى فى القارة الإفريقية . فطالما كان أسطول المماليك قوياً ، فإن الاستعمار كان بعيداً عن بلاد الإسلام وإفريقيا .

وقد خصص المماليك جزءاً من ميزانيتهم للنفقة على إعداد أسطول قوى ، وتجهيزه بما يحتاج إليه من أدوات الحرب والرجال . وإن كنا لم نعد نسمع عن ديوان خاص للأسطول ، مثلما كان الحال فى أيام الفاطميين والأيوبيين ، الذين كانوا يسمونه : ديوان الجهاد[١] . فكانوا كلما رغبوا فى تقوية أسطولهم أو بناء وحدات له ، أصدروا تكليفاً إلى قوادهم بالإشراف على عمارته[٢] .

وكانت أماكن إنشاء المراكب ، تسمى : صناعة أو صناعة العمائر[٣]. فيوجد أهمها فى أيام المماليك ، فى : الجزيرة الوسطانية أو الوسطى[٤] ، التى عُرفت أيضاً بجزيرة أروى ، وتقع بين الروضة وبولاق ، وفى صناعة مصر[٥] . الواقعة على ساحل مصر القديم ؛ وهى منذ أيام الإخشيديين .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣١٥ س ١ — ٢ ؛ الالمام ، مخطوط ١٤٤٩ ، ورقة ١٤٤ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٣١٦ س ٦ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢١٧ .
(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٠٦ ، ٣١٦ س ٦ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٠٢ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢١٧ .
(٥) الخطط ، ٣ ص ٣١٦ س ٦ ، ٣١٩ — ٣٢٠ . يقول استمرت إلى سنة ٨٧٠٠ .

وعلى العكس ، لم نعد نسمع عن صناعة المقس [١] ، التى كانت أشهر أماكن إنشاء المراكب فى زمن الفاطميين ، فقد هدمت هذه الصناعة فى أيام الأيوبيين [٢] ، كما أن دار صناعة الروضة ، كانت تحولت وقت المماليك إلى بقعة للنزهة والتريض [٣]. كذلك وجدت أماكن أخرى لإنشاء السفن فى الإسكندرية ودمياط [٤] .

وكانت دولة المماليك تبذل جهدها للحصول على الخشب الضرورى لصناعة الأسطول ؛ فنسمع عن حواصل اصنف الأخشاب فى القلعة [٥] . فكانت الدولة تقيم الحراس لحماية أشجار لا تحصى من السنط ، فى البهنساويه والأشمونيين والأسيوطية والأخميمية والقوصية ، وهى توصف بأنها ذات أعواد تصلح فى أعمال المراكب [٦] . وعلى ما يبدو ؛ فإن غابات السنط فى البهنساوية ، كانت قد قطعت فى أيام المماليك ؛ بحيث لم يبق منها شىء [٧] ؛ مع أنها كانت موجودة فى أيام الفاطميين والأيوبيين. كذلك كانت المراكب تصنع من خشب البنج أو اللبخ ، التى يقول المقريزى عن أخشابها أنه إذا شد لوح بلوح وطرح فى الماء ستة أيام صار لوحاً واحداً ، وأن هذا النوع لا يوجد إلا بمدينة أنصنا من قرى صعيد مصر ، شرقى النيل [٨] . كما لم يتردد سلاطين المماليك فى الحصول على الخشب اللازم لأساطيلهم من المدن الإيطالية [٩] .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣١٧ — ٣١٩ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٣٦٩ (فى آخر الصفحة) .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ ؛ انظر . Ency. (art Rawda) t3, p. 1211

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٤ ؛ النويرى ، الالمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام فى الأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ١٤٤٩ ، ورقة ١٤٤ ط .

(٥) زبدة ، ص ١٢٢ .

(٦) الخطط ، ١ ص ١٧٨ س ١٧ فما بعدها ؛ انظر . 'Alî Babgat : Les Forêts en Egypte. M. I. Eg. Le Caire, 1900, p. I41 sqq.

(٧) الخطط ، ١ ص ١٧٨ (آخر السطر) ؛ انظر . Ency. (art al-Bahnasâ) tI, p. 954.

(٨) نفسه ، ١ ص ٣٣٠ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٣ .

(٩) أنظر . Pernoud : Op. cit, p. 66 ؛ أنظر . قبله .

وليس لدينا أرقام دقيقة عن عدد مراكب الأسطول فى عهد المماليك ، فالأرقام التى بين أيدينا تتراوح بين أربعين إلى أزيد من مائة قطعة[١] ؛ بينما فى عهد الفاطميين بلغت زيادة على ستمائة قطعة[٢] . فهذا يدل — بطبيعة الحال — على أن المماليك لم يهتموا بالأسطول اهتمامهم بالجيش . فبيبرس نفسه ، مؤسس أسطول المماليك[٣] — فى إحدى رسائله إلى ملك قبرس ، يقول : «أنتم خيلكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيل»[٤] . ولعل السبب أيضاً هو أن المماليك ، الذين استرجعوا ثغور الشام من الصليبيين فى أوائل دولتهم ، لم يعودوا يهتمون بإقامة أسطول كبير .

ولدينا أسماء بعض وحدات الأسطول الحربى الرئيسية عند المماليك فى البحر الأبيض ، وهى فى معظمها نفس الأسماء ، التى عُرفت فى أيام الفاطميين والأيوبيين ؛ وإن لاحظنا تميّز بعضها فى عهد المماليك ، ربما لتطور صناعتها ، كما لاحظنا أن أسماءها المتداولة فى عهد المماليك ، أقل مما كانت عليه فى أيام الفاطميين . فنميّز منها : «الشوانى[٥]» ، جمع «شينى» ،

---

(١) فى عهد بيبرس زيادة على أربعين شينياً ، وفى عهد الأشرف مائة غراب . الخطط ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٦ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢١٧ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣١٣ س ١٧ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٠ .

(٤) النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط ، ٣٨ ورقات ٥٥ — ٥٦ ؛ العينى ، عقد الجمان : R.H. des Crois Orientaux ، ٢/١ ص ٢٤٠ فما بعدها ؛ السلوك ، ١/٢ ص ٥٩٤ هامش (٥) .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٠ فما بعدها . عن هذه المراكب الحربى ، انظر . Syed Sulaimân :
Arab Navigation. Isl. Cult. Vol XV. October, 1941, p. 440;
; Vol XVI, 1942, p. 82.
"Schiff" im Arabischen. Untersuchung über, : Kindermann ;
Vorkmmen und Bedeutung der Termini. Zwirchau, 1934, p.3;53
;Suppl, I, p. 717 : Dozy ; Sult. Maml, I, p. 142 n (15) : Quat.
عبادة ، سفن الأسطول الإسلامى ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ٢ — ٥ .

أو « شونة » ، أو « شينية » ، وهى من أهم قطع الأسطول فى عهد المماليك حتى بلغ أقصى عددها ستين شينياً[١] ، تجذف بثلاثة وأربعين ومائة مجذاف ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وتحتوى على مخازن « أهراء » لخزن القمح ، وصهاريج لخزن الماء العذب . و « الأغربة »[٢] ، جمع « غراب » ، وهى من المراكب الحربية الشديدة البأس ، بعضها كبار[٣] ، وبعضها صغار ؛ ولعلها سُميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها ، التى على شكل رأس غراب ؛ وسيرها بالقلع ، أو بالمجاذيف ، التى يبلغ عددها مائة وثمانين أو أقل . وقد بلغ عددها فى عهد السلطان شعبان مائة قطعة[٤] ؛ حتى كونت معظم قطع الأسطول ، وكان انشاؤها يأخذ حوالى سنة[٥] . و « الحراريق »[٦] ، جمع « حراقة » ، وهى من أكبر المراكب أيضاً ، وتستعمل على الأخص فى حرق سفن العدو ، ولذلك كانت مزودة بالنفط الذى يرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو فى القوارير[٧] ، وربما وضعت عليها المدافع[٨] ، فدوزى

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣١٦ س ١١ .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ٢١٧ . عنها ، عبادة ، ص ٧ ؛

Suppl, 2, p. 204-5 ; Kind, p. 7; 68.

(٣) سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى ، نصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد السادس عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، ص ٩٩ [السفير جاء على مركب أجنبى ، وحكى عن معارك سمع عنها بين رودس والمماليك] .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٩ .

(٥) مورد اللطافة ، ص ٨٧ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٦ . عنها ، انظر . عبادة ، ص ٥ ؛

: Gildmeister ; Suppl, I, p. 274 : Dozy ; Kind, p. 22

Ueber Arabisches Schiffswesen. Gottingen, 1881, p. 438.

(وهو ترجمة من كتاب مجهول عن مراكب بحر الروم) .

(٧) أنظر . قبله .

(٨) ابن إياس ، ٣ ص ٩ .

« Dozy » ، يقول أيضاً : حراقة نفط ، وحراقة بارود . و « الطرائد »[١]، جمع « طريدة » ، كانت تستخدم فى نقل الخيل . و «البُطس» [٢] ، جمع « بُطسة » ، وهى من السفن الحربية العظيمة ، التى تشتمل على عدة طبقات، وعلى قلوع كثيرة ، تقدر بأربعين قلعاً . و « القراقير »[٣]، جمع«قُرقورة»، وهى من السفن العظيمة ، التى تنقل المؤن للأسطول ، منها ما هو بثلاثة ظهور ، ولها ثلاثة قلاع ، تسير بها فى الريح العاصف . و . الشخاتير » [٤] ، جمع « شختورة » ، وهى أيضاً مركب كبير . و «الشياطى» ، جمع«شيطى» أو « شيطية » ، أو « شطية » ، وهو مركب كبيرا ، يجذف بثمانين مجذافاً ، وله قلعان ، ووظيفته استطلاعية [٥] .

وبالإضافة إلى هذه القطع الحربية الرئيسية ، يشتمل الأسطول على قطع أخرى ، مثل : « الأجفان » أو « أجفان المراكب » ؛ جمع«جفن» ، وهى توصف بأنها مراكب صغار ، وتشحن بالرجال والميرة[٦] . و « السلالير» [٧] ، جمع «سَلورة » ، أو « سلاريّة » ، وهى مركب صغير .

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٦ ؛ السلوك ، ١/٢ ص ٤٤٧ س٥ . عنها ، انظر ، عبادة ، ص ٥ ؛ Suppl, 2, p. 34 : Kind, p. 13 - 14 .

(٢) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، مخطوط (B.N) برقم ٤٦٨٠ ، ١ ورقة ١٦٣ ؛ النويرى ، نهاية ، ٢٩ ورقة ٣٢٣ « ١ » . يقول المقريزى . بطشه . الخطط ، ٢ ص ٣٦٩ س ١٣ .

(٣) حوادث ، ص ٣٤٦ س ١٣ . عنها ، انظر . عبادة ، ص ٥ ؛ Suppl, 2, p. 335. : Kind, p. 4 ; 9.

(٤) حوادث ، ص ٣٤٦ س ١٢ . عنها ، انظر . Suppl, I, p. 733 .

(٥) النويرى ، كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام فى الأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية مخطوط ، نقلها على إبراهيم عن مخطوطة برلين ، للماليك البحرية ، ص ٣١٩ ــ ٣٢٠ . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 756 ; 811 . لعلها رومانية فى أصلها "Sagitta" .

(٦) سفارة ، ص ٩٩ . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, I, 201.

(٧) الإلمام ، انظر . عنها ، انظر . Ibid, I, p. 673 .

و « القياسات » [1] ، جمع « قياسة » ، وهى مركب مسطح صغير ، مستعمل فى المياه القليلة ، كشواطىء البحار القليلة العمق ، وهى برسم حمل الأزواد وغيرها . و «القوارب» ، جمع « قارب » [2] ، و«الزوارق»، جمع « زورق » (٣) ، كانت أيضاً ضمن قطع الأسطول ، وهى مراكب من غير شراع ، وتُستعمل — فى العادة — لنقل الأشخاص ، كما يكون فى كل منها أربعة أو خمسة من الرماة .

وفى البحر الأحمر ، كان أسطول المماليك يتكون على الخصوص من « الجلاب [4] » ، أو « الجلبات » ، جمع « جَلبة » ، وهى مركب كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً لا يستعمل فيها المسمار البتة ، وإنما خشبها يخيط بحبال مصنوعة من قشر الجوز المفتول ، وتتخللها عيدان النخيل ، ثم تسقى المركب بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش وهو أحسنها ، وذلك لتليين الأعواد ؛ فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير وتجعلها غير صالحة ؛ فكانت هذه المراكب لخفتها تحمل على ظهور الجمال ، وهى تسير بالمجاديف أو بالشراع .

وكانت دولة المماليك ، تملك أسطولاً نهرياً . فيقول المقريزى إن المماليك فى أول أمرهم أهملوا الأسطول الحربى ، واستعملوا رجاله فى النيل [5] . كذلك ابن شاهين يذكر أنه يوجد على ساحل مصر القديمة

---

(١) السلوك ، ٢/١ ص ٣٣ س٤ . هامش (٢) . عنها انظر .
Suppl, 2,p, 431.

(٢) عنها ، انظر . عبادة ، ص ١٢ ؛
Kind, p. 20 ; Suppl, 2, p. 323.

(٣) حوادث ، ص ٣٤٦ . عنها ؛ انظر . Kind, p. 37 - 8.

(٤) السلوك ، ٢/١ ص ٣٣ س ٣ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٤٧ (فى آخر الصفحة) .
عنها ، انظر ابن جبير ، تحقيق نصار ، ص ٤٤ ؛ Suppl, I, p. 204 : Dozy

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ س ٢١ .

وحدها ما ينيف عن ألف وثمانمائة مركب[1] ؛ وأنه يوجد موظف خاص اسمه « شادّ المراكب » (٢) ، لعله الذى يشرف عليها . فمن مراكب النيل : « الحراريق »[3] ، جمع « حَراقة » — وهى غير حراريق البحر — وتسمى أيام الفاطميين « عشاريات[4] » ، جمع « عُشارى » ، تُستخدم فى حمل غلات الدولة وغيرها . كذلك توجد مركب للسرور أو الركوب تكون للأمراء ، اسمه « العشيرى[5] » ، قد سطح بألواح من خشب محكمة ، وبنى فوقها بيت من خشب ، وعقد عليه قبة ، وفتح له طاقات وأبواب ، ثم تعمل فى هذا البيت خزنة مفردة ومرحاض ، ويزوق بأصناف الأصباغ ، ويذّهب ، ويدهن بأحسن دهان .

ولا ريب أن اهتمام المماليك بالتجارة مع الشرق الأقصى ، لا سيما تجارة التوابل ، جعل لهم مراكب تسير فى المحيطات . فمنذ أن فتح سندباد الأمير الهندى الأسطورى ؛ طريق تجارة الهند إلى الشرق[6] ؛ فإن هذا الطريق أصبح معروفاً للشعوب التى سيطرت فى البحر الأحمر ، ولا سيما المسلمين . ولعل هؤلاء توسعوا فيه إلى أن وصلوا إلى سواحل

---

(١) زبدة ، ص ٢٧ .

(٢) نفسه ، ص ١١٥ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ س ٢١ ؛

(٤) نفسه ، ٢ ص ١٧٣ س٦ ، ٨ — ٩ ؛ صبح ، ٣ ص ١٧ ٥ س ٥ . عنها ، انظر . عبادة ، ص ٧ ؛ Suppl, 2, p. 130; Kind, p. 62

(٥) عبد اللطيف ، الإفادة والإعتبار ، القاهرة ١٢٨٦ هـ ، ص ٤٠ — ٤١ . لعلها « الديماس » أو « الدّماس » فى أيام الفاطميين ، جمعها « دواميس » ، كانت أيضاً لكبار الموظفين . عنها ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٣٥٢ س ٥ ، ٣٧٣ س ٩ — ١١ . أنظر . Suppl, 2, p. 131 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢٢٤ . هى نوع من المشارى .

(٦) أنظر . Mazahéri :
La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age : Xe au XIIIe siècle. Paris, 1951, p. 280.

الصين عند ميناء خنفو (خانكوا)[١] . وقد كانت مراكب المحيطات كبيرة جداً تتألف غالباً من طبقة واحدة ، وذات سارية « دقل » واحدة ، وكان الوصول إلى سطحها يضطر الراكب إلى استعمال السلالم عشرات من الأقدام[٢] .

وقد ساعد على الملاحة فى المحيطات ، هو اختراع المسلمين البوصلة[٣] « Boussola » ، أو نقلوا استعمالها عن الصينيين ، وسموها الحك ، وهى الإبرة المغنطيسية . ويقول المسعودى (ت ٣٤٥/٩٥٦) ، إنه شاهد فى مصر آلة من حديد أو من نحاس على شكل ثعبان تتحرك إذا جاءه مغنطيس . فكان المسافرون فى البحر يضعون قدراً أو طاسة بها ماء بعيداً عن الرياح ، ويلقون فيه بإبرة موضوعة فى خشب أو بوصة على شكل صليب ، ويأتون بحجر مغنطس كبير على حجم اليد ، ويحركونها نحو اليمين ، وبذلك تتحرك الإبرة من نفسها نحو الجنوب ونحو الشمال . ولعل أشهر من ألف فى فن الملاحة عالم بحرى عاصر المماليك ، هو ابن ماجد[٤] (٨٩/١٥م) ، الذى يوصف بالمعلم ، وترك لنا مؤلفات عديدة عن فن الملاحة ، وهو نفسه كان دليل البرتغاليين للشرق الأقصى .

---

(١) عنه ، انظر . ماجد والمنا ، الأطلس التاريخى ، خريطة رقم ١٦ .

(٢) أنظر . Marco Polo I, 18; III, I, . نقلاً عن : متز ، الحضارة ، ترجمة عربية ، ٢ ص ١٣٤ — ٣١٥ . كلمة الدقل تسمية لمراكب بحر الصين بدلاً من الصارى . المسعودى ، مروج ، ط . مصر ، ١ ص ٧٤ .

(٣) ابن ماجد ، كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، مخطوط بالمكتبة الأهلية فى باريس (B.N) ، برقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩ ، ورقة ٦ ؛ المسعودى ، مروج ، ط . مصر ، ١ ص ١٧٣ ؛ Klaproth :

;Lettre sur l'invention de la Boussole' Paris, 1834.

Ency. (art Maghnatîs) t3, p. 109—111;

؛ بدر الدين الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥٠ ، ص ٢ ؛ ماجد ، تاريخ الحضارة ، ص ٧٩ — ٨٠ .

(٤) عنه ، انظر .

Ency. (art Shîhâb al - Dîn Ahmed B. Mâdjid) t4, p. 375sqq.

أما عن رجال الأسطول ، فلم تصلنا عنهم معلومات ذات قيمة ؛ وإن كنا نظن بأن معظمهم من المصريين ، وليس من المماليك ، الذين قصروا همهم على الجيش ؛ وإن كان القواد وبعض المقاتلة من هؤلاء[١] . فلدينا نص يورده المقريزى ، يتبيّن منه أن البحارة والجذافين ، وحتى المقاتلة من العوام « الناس » [٢] ؛ الذين على ما يبدو من المتطوعة [٣] ، فلم يكن يُجبر أحد على العمل فى الأسطول . ونميّز من رجال أسطول المماليك ، بعض المتخصصين فى فنون القتال البحرى ، مثل : النقابين[٤] لنقب الأسوار ، والنفطية أو الزراقين(٥) ، لرمى النفط .

وكانت المراكب تتزود بأنواع السلاح البحرى المختلفة . ولكننّا نجهل التفاصيل الدقيقة عنها . وربما كانت تشبه أسلحة الجيش . فيروى القلقشندى أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية فى أيام الفاطميين ، كانت عبارة عن قسى تشد باليد وهى العربية ، وبالرجل وهى الإفرنجية ، وهذه تُطلق سهاماً تخرق السفن[٦] . أما عن أسلحة المراكب الكبرى ؛ فإنها كانت تزود على الأخص : « بالمنجنيقات » [٧] ، لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ؛ فقد كان أسطول المماليك مثل أساطيل الفاطميين والأيوبيين ، يستخدم النفط أو النار الإغريقية ، حيث يوجد منها نوع يسير على المـــاء دون أن ينطفىء ؛ فكان

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣١٦ س ١٢ ، ٣١٧ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣١٥ (آخر سطر) .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٣٧٣ ، ٣ ص ٣١٣ س ١٩ — ٢٠ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣١٦ س ٢٠ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣١٧ س ٢ ، ٥ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٥٠٨ س ٢ — ٣ . عن تفصيل أنواع القسى ، انظر . ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ٢١١ ، ٢٢١ . يقول القلقشندى إن القسى العربية ، تسمى قسى الرجل والركاب .

(٧) الخطط ، ٢ ص ٣٦٩ س ٨ ، ٣ ص ٣١٤ س ١٢ .

هذا النفط يحرق مراكب العدو[1] . كذلك رأينا أن مراكب أسطول المماليك تزود أيضاً بالمكاحل والمدافع[2] . وعلى العكس ، كانت الستائر حول السفن للوقاية ، أو يغطى هيكلها بدرع من الخارج يسمى «لبوس »[3] ، عليه غطاء اسمه « لبود »[4] . من جلد البقر الطرية ، أما الرجال ، فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بدهن البلسان[5] ، الذى عرف من أيام الفاطميين . وليس منْ شك ، فى أن قطع المراكب كانت تزود أيضاً بكل ما هو ضرورى للحرب فى البر ، كما أن المقاتلة تزود بكل ما تحتاجه من سلاح القتال .

وقبل أن يبحر الأسطول ، يقوم بالمناورة « اللعب[6] » ، أمام السلطان ، وكبار رجال الدولة والناس ، الذين يبنون لهم على الساحل أخصاص القصب ، ويكترون قدام الدور . فكانت مراكبه تزين بالرايات « سناجق » ، وقد أحاطت بها الطبول ، وتروح ذهاباً وإياباً ، وتلقى بالنفط ، وتظهر الحيل ، كما يُفعل تماماً فى حالة القتال . وربما كانت توزع النفقة على رجال الأسطول قبل رحيله ، كما يفعل قبل تحرك الجيش .

ولم يترك لنا المؤرخون معلومات وافية عن خطط المماليك فى الحرب البحرية ، ولكننا نرى أن أسطول المماليك كان شديد البأس ، لا يتردد فى بذل كل غالٍ فى سبيل إحراز النصر ، كما أنه كان شديد اليقظة فى الدفاع

---

(١) انظر . مصنف مجهول ، تحقيق Cahen ، بعنوان : Un traité d'armurérie ، نص عربى ، ص ١٢٢ - ٣ ، ترجمة ، ص ١٤٥ - ٦ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٩ س ٢٥ ؛ انظر ، قبله .

(٣) صبح ، ٢ ص ١٣٨ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٦٩ س ٨ ؛ انظر . Suppl, 2, p. 512 .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣١٤ س ١٢ ؛ انظر . Ibid, 2, 510 .

(٥) صبح ، ١٠ ص ٤١٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢٢٧ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣١٦ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢١٧ .

عن سلامة السواحل ، فيقوم بدوريات منظمة « تجريدة » [١] ، لمنع قرصنة العدو فى البحر . بل كان يلجأ أحياناً إلى الخداع ، فيطلى المراكب بلون سفن العدو ، ويرفع الصلبان عليها لتشبه سفن الفرنجة (٢) .

أما عن نظام الدفاع البحرى ، عن الموانئ ضد غارات العدو ؛ ففى مدخل الميناء يوجد برجان تشد بينهما سلسلة ثقيلة من الحديد (٣) ، حتى لا تستطيع المراكب الدخول بغير إذن . كذلك تقام الأسوار الداخلية المزدوجة ، والأبواب المحكمة ، التى تبلغ ثلاثة أبواب(٤) ، الواحد وراء الآخر - كما فى الإسكندرية — والخنادق التى تُطلق فيها مياه البحر ، وقد تقام القلاع ؛ التى تزود بالمكاحل والمدافع (٥) ؛ ولا تزال آثار قلعة برج قايتباى بالإسكندرية على البحر ؛ توجد حتى الآن . وأخيراً تبنى « المراقب » ، جمع مرقب لكشف البحر(٦) .

ولا ريب أن أسطول المماليك ، كان يعود غالباً مظفراً ؛ ويأتى بالأسرى ؛ وقد جرت العادة أن يستولى السلطان على خمس الغنائم ؛ وأن يقتسم رجال الأسطول ما بقى منها بينهم(٧) .

هذا هو التنظيم الحربى والبحرى ، يظهر منه مدى قدرة المماليك فى الحرب البرية والبحرية .

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٢١٧ .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣١٥ (آخر الصفحة) .
(٣) زبدة ، ص ٣٥ .
(٤) نفسه ، ص ٣٩ .
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٩ س ٢٥ .
(٦) السلوك ، ١/٢ ص ٤٤٦ .
(٧) الخطط ، ٧٣ ص ٣١٧ .

دار الطباعة الحديثة

٦ كنيسة الأرمن ـ أول شارع الجيش

ت ٩٠٨٣١٨

للمؤلـــف

- « السجلات المستنصرية » • سجلات وتوقيعات وكتب ، لمولانـــا الامـــام المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، صلـــوات الله عليه ، الى دعـــاة اليمن وغيرهم ، قدس الله أرواح جميـــع المؤمنين ، تقديـــم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ •
(مكتبة دار الفكر المعاصر) •

- الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفتـــرى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ •
(مكتبة الأنجلو المصرية) •

- الامـــام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ •
(مكتبة الأنجلو المصرية) •

- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٦•
(مكتبة الأنجلو المصرية) •

- الناصر صـــلاح الدين الأيوبـــى ، الطبعـــة الثانيـــة ، مزيـــدة ومنقحة ، بيروت ١٩٦٧ •
(مكتبة الأنجلو المصرية) •

- ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى دراسة بمفهوم التاريخ عند المسلمين ، ودور المؤرخ الاسلامى الحديث • القاهرة ١٩٧٩ •
(مكتبة الانجلو المصرية) •

- الأطلس التاريخى للعالم الاسلامى فى العصـــور الوسطى طبعة ثانية ، القاهـــرة ١٩٦٨ •
(مكتبة دار الفكر العربى) •

- تاريخ أفريقيا ، تأليف شارل أندريه جوليان ، تقديم ومراجعة ، القاهرة ١٩٦٨ .

(مكتبة الأنجلو المصرية) .

- مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى . تعريف بمصادر التاريخ الاسلامى ومنهاجه الحديث ، الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٧١ .

(مكتبة الأنجلو المصرية) .

- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . دراسة شاملة لنظم السياسية ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٧٣ .

(مكتبة الأنجلو المصرية) .

- ظهور خلافة الفاطمين وسقوطها فى مصر . التاريخ السياسى ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، الاسكندرية ١٩٧٦ .

(مكتبة الأنجلو المصرية) .

- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . دراسة شاملة للنظم القصر الفاطمى ورسومه ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٧٨ .

(مكتبة الأنجلو المصرية) .

- تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٧٨ .

(مكتبة الأنجلو المصرية) .

- العصر العباسى الأول ، أو القرن الذهبى فى حكم الخلافة العباسية ، التاريخ السياسى ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، منقحة ، القاهرة ١٩٧٩ .

(مكتبة الأنجلو المصرية) .

● التاريخ السياسى للدولة العربية ، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين ، الجزء الأول ، الطبعة السادسة ، منقحة ، القاهرة ١٩٧٩ ·
(مكتبة الأنجلو المصرية) ·

● سيرة طومان باى ، آخر سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة للأسباب التى أنهت حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر ، القاهرة ١٩٧٩ ·
(مكتبة الأنجلو المصرية) ·

● نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، دراسة شاملة للنظم السياسية ، الجزء **الثانى** ، الطبعة الثانية ، منقحة ، القاهرة ١٩٧٩ ·
(مكتبة الأنجلو المصرية) ·

● التاريخ السياسى للدولة العربية ، عصر الخلفاء الأمويين ، الجزء الأول ، الطبعة السادسة ، منقحة ، القاهرة ١٩٧٩ ·
(مكتبة الأنجلو المصرية) ·

● جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها ، بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، وضعه وستنفلد ترجمة وتقديم ، بالاشتراك مع عبد المحسن رمضان ، القاهرة ١٩٧٩ ·
(مكتبة الأنجلو المصرية) ·

● نظم العباسيين ورسومهم ، العصر العباسى الأول ، فى جزءين ·
(تحت الطبع)

A. M. MAGUED
Professeur de l'Histoire Islamique
A l'Université Aîn Shams
Docteur ès-Lettres de la Sorbonne

INSTITUTIONS ET CEREMONIAL DES MAMELOUKS EN EGYPTE

Tome 1.

2 ème Edition

Le Caire, 1979.
Librairie Anglo-Egyptienne
Tél. 50332.